الِاعْتِبَارُ

بِبَقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ

لِلْإِمَامِ الْحَافِظِ الْفَقِيهِ الْمُجْتَهِدِ

أَبِي الْحَسَنِ تَقِيِّ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْكَافِي

السُّبْكِيِّ الْكَبِيرِ

الْمَوْلُودِ سَنَةَ ٦٨٣هـ - ١٢٨٤م

الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٥٦هـ - ١٣٥٥م

فِي الرَّدِّ عَلَىٰ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَابْنِ الْقَيِّمِ الْقَائِلَيْنِ بِفَنَاءِ النَّارِ

تَحْقِيقُ وَتَقْدِيمُ وَتَعْلِيقُ فَضِيلَةِ الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ

طَهَ الدُّسُوقِيِّ حبيشِيٍّ رضي الله عنه

رَاجَعَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ قَلِيلًا الشَّيْخُ

نَاصِرُ عَبْدُ اللَّهِ دُسُوقِيٌّ

٢٠٢٣م

كِتَابٌ – يَا أُولِي الْأَلْبَابِ – سَهْلٌ ... يُفِيدُ الْقَارِئِينَ بِلَا مُعَرِّفْ

أَبَحْتُ لَكُمْ قِرَاءَتَهُ، وَلَكِنْ ... حُقُوقُ الطَّبْعِ تُحْفَظُ لِلْمُؤَلِّفْ

❊ ❊ ❊



صُورَةُ الشَّيْخِ نَاصِرٍ ، مُرَاجِعُ الْكِتَابِ وَضَابِطُهُ

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ كِتَابِ

(الِاعْتِبَارُ بِبَقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ)

مِنْ زَمَانٍ إِلَىٰ زَمَانٍ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ .

وَبَعْدُ ،

فَإِنَّ هَٰذَا الْكِتَابَ قَدْ خَرَجَ لِلنَّاسِ فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَىٰ وَبَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ طَوَالَ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا إِلَىٰ الْآنَ ، حَيْثُ خَرَجَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الْعَامِ السَّابِعِ وَالثَّمَانِينَ بَعْدَ الْأَلْفِ وَالتِّسْعِمِائَةِ مِنْ مِيلَادِ سَيِّدِنَا الْمَسِيحِ عليه السلام ، وَنَحْنُ الْآنَ نُقَدِّمُهُ لِلْقُرَّاءِ فِي طَبْعَتِهِ الثَّانِيَةِ ، وَقَدْ أَوْشَكَ الْعَامُ التَّاسِعُ وَالتِّسْعُونَ عَلَىٰ الِانْقِضَاءِ .

وَمِنْ يَوْمِ صُدُورِ هَٰذَا الْكِتَابِ فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَىٰ ، وَمَا اسْتَلْزَمَتْهُ هَٰذِهِ النَّشْرَةُ مِنْ مُنَاقَشَاتٍ عَقِبَ ظُهُورِهَا .. وَأَنَا مُنْصَرِفٌ عَنِ الْكِتَابِ وَقَضِيَّتِهِ انْصِرَافًا تَامًّا بِفِعْلِ الشَّوَاغِلِ ، وَبِتَأْثِيرِ الصَّوَارِفِ الَّتِي يَجْمَعُهَا كُلَّهَا الرَّغْبَةُ فِي مُلَاحَقَةِ قَضَايَا الْعَصْرِ ، وَإِبْدَاءِ الرَّأْيِ فِي الْجَلِيلِ مِنْهَا .

وَمَا بَيْنَ زَمَانِ صُدُورِ هَٰذَا الْكِتَابِ فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَىٰ ، وَصُدُورِهِ الْيَوْمَ فِي طَبْعَتِهِ الثَّانِيَةِ .. مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ تَمْلَؤُهَا التَّأَمُّلَاتُ ، وَتَشْغَلُهَا التَّجَارِبُ ، وَتُصْقِلُهَا الِاحْتِكَاكَاتُ بِالْعُقُولِ وَالْأَحْدَاثِ .

وَعَلَىٰ الْـجُمْلَةِ .. فَإِنَّ هَـٰذِهِ الْفَتْرَةَ الَّتِي مَضَتْ مُنْذُ ظُهُورِ الْكِتَابِ فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَـىٰ .. قَدْ أَضَافَهَا الزَّمَانُ إِلَىٰ عُمُرِي وَعَقْلِي ، وَهِيَ إِضَافَةٌ لَـا تَـخْلُو مِنْ فَائِدَةٍ ، بَلِ الْفَائِدَةُ فِيهَا مَـحْتُومَةٌ إِلَّـا لِـمَنْ عَزَلَ نَفْسَهُ عَنْ قَضَايَا أُمَّتِهِ ، وَلَـمْ يَشْغَلْهُ إِلَّـا شَوَاغِلُ بَطْنِهِ وَشَهْوَتِهِ .

وَأَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَزْهَدُ فِي أَنْ تَـمُرَّ عَلَيْهِ مِثْلُ هَـٰذِهِ الْفَتْرَةِ دُونَ أَنْ تُثْرِيَ فِكْرَهُ ، وَدُونَ أَنْ تُشَارِكَ فِي نُضْجِ وُجْدَانِهِ .

* * *

تَـأَمُّـلَاتٌ عَلَىٰ الـسَّـاحَـةِ

وَمِـمَّـا اسْتَفَدتُّهُ مِنْ هَـٰذِهِ السَّنَوَاتِ الطِّوَالِ .. هَـٰذِهِ التَّأَمُّلَاتُ الَّتِي حَبَسْتُ نَفْسِي عَلَيْهَا حَبْسًا ، وَأَخَذْتُهَا بِهَا عَلَىٰ أَنْ تَلْتَزِمَ بِـمُمَارَسَتِهَا أَخْذًا ؛ هِيَ تَأَمُّلَاتٌ تَتَّصِلُ بِبَعْضِ الْقَضَايَا الَّتِي لِي بِهَا صِلَةٌ عَقْلِيَّةٌ وَوِجْدَانِيَّةٌ ، وَهِيَ قَضَايَا – وَلَـا شَكَّ – تَتَصِّلُ بِتَشْكِيلِ عَقْلِ الْـأُمَّةِ ، وَتَـحْدِيدِ هَوِيَّتِهَا وَانْتِمَـائِهَا .

وَقَضَايَا مِنْ هَـٰذَا النَّوْعِ حِينَ تُطْرَحُ عَلَىٰ السَّاحَةِ .. لَـا بُـدَّ أَنْ تَتَنَاوَلَـهَا أَقْـلَامٌ ، وَلَـا بُـدَّ أَنْ تَلُوكَهَا أَفْوَاهٌ ، بَعْضُهَا بِـحُسْنِ نِـيَّـةٍ ، لِـإِثْـرَائِهَا ، وَالْبَعْضُ الْـآخَرُ يَتَنَاوَلُـهَا بِسُوءِ نِـيَّـةٍ ، يَـحْمِلُهُ عَلَيْهِ إِمَّـا قُصُورُهُ عَلَىٰ مُسَايَرَةِ قَضَايَا الْفِكْرِ ، وَإِبْدَاءِ الرَّأْيِ فِيهَا ؛ وَإِمَّا لِـانْتِمَـائِهِ انْتِمَـاءً مَشْبُوهًا ، بِقَصْدِ تَـحْصِيلِ مَنْفَعَةٍ أَدَبِيَّةٍ أَوْ مَادِّيَّـةٍ .

وَانْتَهَيْتُ مِنْ تَأَمُّلِي إِلَىٰ أَنِ اسْتَقَرَّتْ فِـي ذِهْنِي حَقَائِقُ كُنْتُ لَـا أَلْتَفِتُ إِلَيْهَا

مَعَ بَدَاهَتِهَا .

وَأَعْلَىٰ هَـٰذِهِ الْحَقَائِقِ .. أَنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي سَاحَةِ الْفِكْرِ ، يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُمْ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ رَئِيسَيْنِ :

١- **وَأَحَدُ هَـٰذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ :** أُنَاسٌ يَمْلِكُونَ عُقُولًا قَادِرَةً عَلَىٰ التَّوْجِيهِ ، وَالْأَخْذِ بِيَدِ الْجَمَاعَةِ إِلَىٰ مَا يُصْلِحُهَا ، وَيُحَقِّقُ أَهْدَافَهَا .

وَهَـٰؤُلَاءِ أُنَاسٌ يَمْلِكُونَ - إِلَىٰ جُوَارِ الْعَقْلِ الْمُوَجِّهِ - قَلْبًا شَيْحَانًا - أَيْ غَيُورًا - يَمْتَلِئُ بِالْأَمَانَةِ ، وَأَوَّلُهَا أَمَانَةُ الْمَسْئُولِيَّةِ ، وَالشُّعُورِ بِالْوَاجِبِ تِجَاهَ أُمَّتِهِمْ الَّتِي احْتَضَنَتْهُمْ ، وَأَرْضَعَتْهُمْ مَاءَ الْحَيَاةِ صِغَارًا ، وَهِيَ تُحِيطُهُمْ بِالْعِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ فِي جَمِيعِ فَتَرَاتِ أَعْمَارِهِمْ ، تَحْرُسُهُمْ بِالْعُيُونِ لَا يُصِيبُهَا الْفُتُورُ ، وَلَا يَعْتَرِيهَا الْمَلَلُ .

وَهَـٰؤُلَاءِ النَّاسُ الَّذِينَ امْتَازُوا بِالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ ، وَعُهِدَتْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولِيَّةُ الرِّعَايَةِ وَالتَّوْجِيهِ .. لَا يَبْتَغُونَ مَنْفَعَةً ، وَلَا يَهْتَمُّونَ بِالْأَضْوَاءِ ، وَلَا يُؤَثِّرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا هُنَا أَوْ هُنَاكَ .

وَالْقَوْمُ رَاضُونَ كُلَّ الرِّضَىٰ بِمَوْقِعِهِمْ مِنَ الْمُجْتَمَعِ ، يَسْتَشْعِرُونَ ثِقَلَ الْمَسْئُولِيَّةِ ، وَيَعِيشُونَ لِأَدَاءِ هَـٰذِهِ الْوَظِيفَةِ ، لَا يَلْوُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَلَا يُقْعِدُهُمْ جَذْبُ ثِيَابِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ، وَلَا يُلْفِتُهُمْ صَوْتُ أُنَاسٍ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهَمِّ أَغْرَاضِهِمْ .. شَغْلُ وَقْتِ هَـٰؤُلَاءِ بِمَا لَا يَنْفَعُ الْأُمَّةَ ، حَتَّىٰ تَبْقَىٰ الْأُمَّةُ وَرُوَّادُهَا فِي عَمَايَةٍ وَجَهَالَةٍ .

إِنَّـهُمْ أُنَاسٌ يَسِيرُونَ إِلَىٰ وِجْهَتِهِمْ ، لَا يَقْعُدُ بِهِمَمِهِمْ فِعْلُ فَاعِلٍ ، وَلَا

يُلْفِتُهُمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بُوقُ مُغْرِضٍ .

وَهَٰذِهِ الصِّفَاتُ فِي هَٰذَا الْفَرِيقِ مِنَ النَّاسِ .. هِيَ مِيرَاثُ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ .

وَهَٰذِهِ الصِّفَاتُ نَفْسُهَا هِيَ الَّتِي تَرْقَىٰ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَٰذَا الْفَرِيقِ إِلَىٰ اسْتِحْقَاقِ لَقَبِ « الذَّاتِ » .

فَالذَّاتُ الْمُفَكِّرَةُ هِيَ تِلْكَ الَّتِي تَرْتَقِي بِصَاحِبِهَا إِلَىٰ مَكَانَةٍ لَا يَسْمَحُ لِنَفْسِهِ فِيهَا أَنْ يَكُونَ جَزَاؤُهُ مِنَ الدُّنْيَا .. مَكَانَةَ الْمَوْضُوعِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ ، إِنَّمَا هُوَ يُرْضِيهِ أَنْ تَكُونَ مَكَانَتُهُ هِيَ تِلْكَ الْمَكَانَةَ الَّتِي تَحْتَلُّهَا الذَّوَاتُ ، فَتُوَجِّهُ الْمَوْضُوعَ إِلَىٰ حَيْثُ تُرِيدُ ، وَتَضَعُهُ فِي الْمَكَانَةِ الَّتِي تَرَاهَا لَائِقَةً ، وَتَرْتَفِعُ بِهِ إِلَىٰ مَا يُصْلِحُهُ .

إِنَّ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ هَٰذَا الْفَرِيقَ مِنَ النَّاسِ .. هُمْ «ذَوَاتٌ» وَكَفَىٰ .

٢- وَفَرِيقٌ آخَرُ مِمَّنْ لَاحَظْتُهُمْ عَلَىٰ السَّاحَةِ ، وَهُوَ يَنْشَغِلُونَ بِقَضَايَا النَّاسِ ، جَمَاعَةٌ مِنَ الْبَشَرِ لَيْسَتْ لَدَيْهِمْ مُقَوِّمَاتُ الْمُفَكِّرِينَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ أَدَوَاتِ الْمُوَجِّهِينَ ، وَلَٰكِنَّهُمْ حَرِيصُونَ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا تَحْتَ الْأَضْوَاءِ تُظْهِرُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَمَامَ الْكَامِيرَاتِ تَنْقُلُ صُوَرَهُمْ وَأَصْوَاتَهُمْ إِلَىٰ الْآخَرِينَ .

وَهَٰذَا الْفَرِيقُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُ أَفْرَادِهِ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أُنَاسٌ لَدَيْهِمْ شُعُورٌ بِنَقْصِ قُدُرَاتِهِمْ وَأَدَوَاتِهِمْ ، وَهُمْ مُتَطَلِّعُونَ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ إِلَىٰ أَنْ يَحْتَلُّوا مَرَاكِزَ فِي الْمُجْتَمَعِ ، وَمَكَانَةً بَيْنَ النَّاسِ ، رُغْمَ

نَقْصِ الْإِمْكَانِيَّاتِ ، وَقِلَّةِ الْأَدَوَاتِ الَّتِي تُمَكِّنُهُمْ مِنْ بُغْيَتِهِمْ .

وَهَٰذِهِ الْحَالَةُ الشُّعُورِيَّةُ الْمُزْدَوَجَةُ تُثْبِتُ فِي وَعْيِ صَاحِبِهَا أَنَّ هُنَاكَ مَسَافَةً بَيْنَ مَا يَبْتَغِيهِ ، وَبَيْنَ الْأَدَوَاتِ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِمَّا يَبْتَغِيهِ .

وَهَٰذَا الْوَعْيُ بِالْمَسَافَةِ الشَّاسِعَةِ يَجْعَلُ صَاحِبَ هَٰذَا الشُّعُورِ يَسْلُكُ فِي الْمُجْتَمَعِ مَسَالِكَ غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ ، قَدْ نُشِيرُ إِلَىٰ بَعْضِهَا بَعْدَ قَلِيلٍ .

وَثَانِيهِمَا : أُنَاسٌ غَابَتْ ضَمَائِرُهُمْ ، وَغَاضَتْ يَنَابِيعُ الْأَخْلَاقِ فِيهِمْ ، فَاسْتَجَابُوا لِكُلِّ نَاعِقٍ عَلَىٰ مُقَابِلٍ يَمْلَأُ الْجُيُوبَ ، أَوْ يَمْلَأُ الْبُطُونَ ، أَوْ يُرْضِي شَهْوَتَهُمْ بِمَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَادِّيَّاتِ الْمَتَاعِ وَمَعْنَوِيَّاتِهِ .

وَيَجْمَعُ الصِّنْفَيْنِ مَعًا أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا « نَهَّازٌ » ، بَيْدَ أَنَّ **أَحَدَهُمَا** : نَهَّازٌ بِالطَّبْعِ ، **وَثَانِيَهُمَا** : نَهَّازٌ بِالْأَجْرِ .

وَلَمَّا كَانَ هَٰذَا الْفَرِيقُ كُلُّهُ لَا يَقْوَىٰ وَاحِدٌ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ ذَاتًا فِي مُجْتَمَعِهِ ، يُوَجِّهُ قَضَايَاهُ ، وَيَحْكُمُ عَلَىٰ سُلُوكِهِ .. فَإِنَّ هَٰذَا الْفَرِيقَ كُلَّهُ يَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ يَهْتَمُّ النَّاسُ بِهِ ، وَيَحْكُمُونَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ ، دُونَ أَنْ يَرَىٰ مِنْ بَأْسٍ يَنَالُهُ إِذَا حَكَمَ الْمُجْتَمَعُ لَهُ أَوْ حَكَمَ عَلَيْهِ .

وَأَفْرَادُ هَٰذَا الْفَرِيقِ جَمِيعِهِمْ يُشِيعُونَ أَنَّ الْمَرَاكِزَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ إِنَّمَا تُنَالُ بِـ « **الْفَهْلَوَةِ** » ، وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْخِدَاعِ وَالتَّضْلِيلِ ، وَأَنَّ الْحُكْمَ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَوْ لَهُ فِي جَمَاعَتِهِ .. لَيَدُورُ مَعَ مَسْأَلَتَيِ السُّعُودِ وَالنُّحُوسِ حَيْثُ دَارَتَا .

وَعَلَىٰ هَٰذَا .. فَإِنَّ مَنْ يَرْبِطُ رِفْعَةَ الْمَكَانَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ بِالْأَدَوَاتِ وَالْمُؤَهِّلَاتِ .. يَكُونُ قَدْ سَقَطَ فِي الْوَهْمِ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ ، وَمَنْ يَرْفَعْ شِعَارَ

الْخِدْمَةِ فِي مَجَالِ التَّوْجِيهِ وَحَفْزِ الْأُمَّةِ إِلَىٰ غَايَتِهَا ، اِبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَالْوَطَنِ .. لَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا لَا يَحْكُمُهُ عَقْلُهُ ، وَإِنَّمَا يَحْكُمُهُ خَيَالُ شَاعِرٍ ، أَوْ حُلْمُ حَالِمٍ ! .

إِنَّ هَٰذَا ... «[1]» وَإِنَّ هَٰذَا النَّوْعَ بِقِسْمَيْهِ جَمِيعًا – مَنْ كَانَ مِنْهُمْ نَهَّازًا بِالطَّبْعِ ، أَوْ كَانَ نَهَّازًا بِالْأَجْرِ – إِنَّ هَٰذَا الْفَرِيقَ بِجَمِيعِ طَوَائِفِهِ وَأَغْرَاضِهِ .. يَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ فِي مُجْتَمَعِهِ مَوْضُوعًا يَتَنَاوَلُهُ النَّاسُ ، وَيَتَأَمَّلُوهُ ، وَيَنْشَغِلُوا بِهِ ، فَإِنْ حَكَمُوا لَهُ .. فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ الْمُنَىٰ ؛ وَإِنْ حَكَمُوا عَلَيْهِ .. فَلَا بَأْسَ ؛ الْمُهِمُّ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعَ اهْتِمَامِ النَّاسِ وَلَوْ كَانَ مُتَّهَمًا ، وَلَوْ كَانَتْ أَصَابِعُهُمْ تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ بِالزِّرَايَةِ وَالْاحْتِقَارِ ! .

يَرْضَىٰ هَٰذَا الْفَرِيقُ بِأَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا تَتَنَاوَلُهُ الْأَلْسِنَةُ ، وَتَتَّجِهُ إِلَيْهِ الْعُيُونُ ؛ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي غَضِبَ فِيهِ أُنَاسٌ قَدْ تَنَاوَلَتْهُمْ بَعْضُ الْأَقْلَامِ بِاعْتِبَارِهِمْ مَوْضُوعَاتٍ فِي مَجَالَاتِ الْأَدَبِ شِعْرًا وَنَثْرًا ، فَثَارُوا عَلَىٰ أَوْضَاعِهِمْ ، وَطَالَبُوا أَنْ يَرْتَفِعُوا وَأَنْ يَرْتَفِعَ النَّاسُ بِهِمْ فَوْقَ هَٰذِهِ الْمَرْتَبَةِ .

فِي الْآدَابِ الْقَدِيمَةِ ، وَفِي بَعْضِ الْأَدَبِ الْمُعَاصِرِ .. نَجِدُ بَعْضَ الْأُدَبَاءِ – الَّذِينَ يَكْتُبُونَ فِي الْغَزَلِ – يَتَّخِذُونَ مِنَ الْمَرْأَةِ مَوْضُوعًا يُدِيرُونَ حَوْلَهُ أَحَادِيثَهُمْ ، وَيَكْتُبُونَ حَوْلَهُ إِبْدَاعَاتِهِمُ الْأَدَبِيَّةَ عَلَىٰ نَحْوِ مَا يَحْلُو لَهُمْ أَنْ يُسَمُّوهَا فِي هَٰذَا الزَّمَانِ إِبْدَاعَاتٍ ! .

---

(١) فِي الْأَصْلِ الْمَطْبُوعِ كَلِمَةٌ شِبْهُ مَمْسُوحَةٍ بِالْكَامِلِ ، وَلَعَلَّهَا كَلِمَةُ « الْفَرِيقَ » كَمَا سَيَأْتِي الْآنَ فِي كَلَامِ الْمُحَقِّقِ . قَالَهُ نَاصِرُ عَبْدُ اللَّهِ .

وَقَدْ يَتَنَاوَلُ بَعْضُهُمُ الْمَرْأَةَ بِاعْتِبَارِهَا مَوْضُوعًا مَادِّيًّا ، أَجْزَاءً وَتَفَارِيقَ ، وَيَأْتِي كَلَامُ الْبَعْضِ مِنْهُمْ عَفِيفًا ، فِي حِينَ يَتَنَزَّلُ بَعْضُهُمْ بِحَدِيثِهِ إِلَىٰ مَا يُؤْذِي الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ عَلَىٰ السَّوَاءِ .

وَقَدْ خَرَجَتْ فِي هَـٰذَا الزَّمَانِ أَصْوَاتٌ نِسَائِيَّةٌ تُطَالِبُ أَنْ لَا تُتَّخَذَ الْمَرْأَةُ مَوْضُوعًا لِمِثْلِ هَـٰذِهِ الْكِتَابَاتِ ، خَاصَّةً مَا يَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي مَادَّتِهَا أَجْزَاءً ، بِحَيْثُ يُسَلِّطُ الْكَاتِبُ الْأَضْوَاءَ عَلَىٰ جُزْءٍ مِنْهَا ، يُبْرِزُهُ فِي غَيْرِ مُرَاعَاةٍ لِمَشَاعِرِهَا ، وَفِي غَيْرِ عِفَّةٍ تَصُونُ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ كَرَامَتَهَا .

فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتٌ نِسَائِيَّةٌ تُطَالِبُ بِأَنْ لَا تُتَّخَذَ الْمَرْأَةُ مَوْضُوعًا ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا صَنَعَتْ بِهَا تِلْكَ الْآدَابُ فِيمَا يُسَمِّيهِ الْأُدَبَاءُ إِبْدَاعًا مَشْرُوعًا ! .

وَلَا أَعْلَمُ دِينًا مِنَ الْأَدْيَانِ إِلَّا وَهُوَ يَقِفُ مِنَ اتِّخَاذِ الْمَرْأَةِ مَوْضُوعًا مَوْقِفًا حَاسِمًا .

يَحْدُثُ هَـٰذَا عَلَىٰ مَرْأًىٰ مِنَّا وَمَسْمَعٍ ، اِحْتِجَاجَاتٌ نِسَائِيَّةٌ عَلَىٰ اتِّخَاذِ الْمَرْأَةِ مَوْضُوعًا مَكْشُوفًا ، وَصِيَانَاتٌ دِينِيَّةٌ تَرْتَفِعُ بِالْمَرْأَةِ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَوْضُوعًا فِي أَجْزَاءٍ وَتَفَارِيقَ إِلَىٰ أَنْ تُمَكَّنَ مِنْ أَنْ تَكُونَ ذَاتًا ، تَمْلِكُ النَّابِهَاتُ مِنْهُنَّ [1] – فِي حُدُودِ مَا أُتِيحَ لَهُنَّ – أَنْ يُشَارِكْنَ فِي تَوْجِيهِ الْأُمَّةِ وَارْتِفَاعِهَا .

يَحْدُثُ هَـٰذَا كُلُّهُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي ارْتَضَىٰ فِيهِ النَّهَّازُونَ – مِمَّنْ ذَكَرْتُ لَكَ – بِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَوْضُوعَاتٍ ، بَلْ طَمِعَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنْ

(١) فِي الْأَصْلِ : (مِنْهُمْ) ، وَالْأَصْوَبُ مَا أَثْبَتُّهُ فِي الْأَعْلَىٰ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّـٰهِ .

يَكُونَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مَوْضُوعًا تَتَنَاوَلُهُ الْأَلْسِنَةُ ، وَلَوْ جَرَحَ مَوْضُوعُهُ هَـٰذَا رُجُولَتَهُ وَخُلُقَهُ ! .

حَكَىٰ التَّارِيخُ أَنَّ رَجُلًا مَغْمُورًا مِنَ النَّاسِ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا لِحَدِيثِ النَّاسِ وَاهْتِمَامِهِمْ ، فَذَهَبَ إِلَىٰ الْحَجِّ ، وَبَيْنَمَا هُوَ مَعَ النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. قَامَ إِلَىٰ زَمْزَمَ وَبَالَ فِيهَا ! ، فَثَارَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَتَحَدَّثُوا عَنْهُ ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْجَلِيَ الْمَوْقِفُ .. سَأَلَهُ سَائِلُهُمْ : لِمَاذَا فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ؟! ، وَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ؟! . قَالَ : رَأَيْتُنِي رَجُلًا مَغْمُورًا ، لَا يَمْلِكُ أَنْ يَتَمَيَّزَ بِالْعَبْقَرِيَّةِ ، فَحَمَلَتْنِي الرَّغْبَةُ فِي التَّمَيُّزِ عَلَىٰ أَنْ أَفْعَلَ مَا فَعَلْتُ ، أَتَرَانِي وُفِّقْتُ ؟!! . فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ : بِئْسَتْ هَـٰذِهِ الشُّهْرَةُ ! [1] .

أَمَّا أَنَا كَاتِبُ هَـٰذِهِ الصَّفَحَاتِ فَأَقُولُ : كَمْ مِنْ أُنَاسٍ رَأَيْنَاهُمْ وَقَرَأْنَا عَنْهُمْ حِينَ لَمْ يَجِدُوا وَسِيلَةً إِلَىٰ الشُّهْرَةِ بِالذَّاتِ .. رَغِبُوا فِي الْاشْتِهَارِ بِجَعْلِ أَنْفُسِهِمْ مَوْضُوعَاتٍ وَلَوْ بِإِيذَاءِ زَمْزَمَ .

وَكَمْ فِي الْأُمَّةِ مِنْ مُقَدَّسَاتٍ ، وَكَمْ وَقَعَ عَلَىٰ الْأُمَّةِ مِنَ اعْتِدَاءَاتِ أُنَاسٍ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْمُقَدَّسَاتِ ، قَدْ تَزِيدُ أَوْ تَنْقُصُ عَلَىٰ اعْتِدَاءِ صَاحِبِ الْحَجِيجِ يَوْمَ زَمْزَمَ عَلَىٰ زَمْزَمَ ؟! .

❋ ❋ ❋

(١) قِيلَ إِنَّ ابْنَ الْجَوزِيِّ ذَكَرَ هَـٰذِهِ الْحِكَايَةَ فِي كِتَابِهِ « الْمُنْتَظَمُ » ، وَلَـٰكِنِّي لَمْ أَجِدْهَا فِيهِ ، وَبَعْضُ النَّاسِ يُشَكِّكُ فِي وُجُودِهَا أَصْلًا رُغْمَ شُهْرَتِهَا عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ . قَالَهُ نَاصِرٌ .

اِعْتِدَاءَاتٌ لَا تُحْتَمَلُ

قَدْ وَعَدتُّكَ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ تِلْكَ الْأَدْرُبِ وَالْمَسَالِكِ الشَّاذَّةِ الَّتِي يَسْلُكُهَا هَٰذَا الْفَرِيقُ الَّذِي اصْطَلَحْنَا عَلَىٰ تَسْمِيَةِ أَفْرَادِهِ بِـ « النَّهَّازِينَ ».

وَأَنَا الْآنَ أُوَفِّي لَكَ بِوَعْدِي ، وَلَٰكِنِّي سَأُحَدِّثُكَ حَدِيثًا مُخْتَصَرًا ، هُوَ إِلَىٰ الْإِشَارَةِ أَقْرَبُ .

وَهَٰذَا الْحَدِيثُ الْمُخْتَصَرُ سَأُدِيرُهُ عَلَىٰ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْعَنَاصِرِ الَّتِي ارْتَضَاهَا الْقَوْمُ وَاتَّخَذُوهَا مَسَالِكَ لَهُمْ ، وَرَآهَا الْعُقَلَاءُ مِنَ الْأُمَّةِ أُمُورًا شَاذَّةً لَا يَلْجَأُ إِلَيْهَا إِنْسَانٌ سَلِيمُ الِانْتِمَاءِ ، أَوْ صَافِي السَّرِيرَةِ ، أَوْ مُسْتَقِيمُ الْفِكْرِ :

١- وَأَوَّلُ هَٰذِهِ الْمَسَالِكِ الَّتِي ارْتَضَاهَا هَٰؤُلَاءِ : هُوَ أَنَّهُمْ قَدِ الْتَفَتُوا إِلَىٰ سَلَفِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ الَّذِينَ صَنَعُوا تَارِيخَهَا ، وَإِلَىٰ أَفْذَاذِ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ ارْتَفَعَتْ أَصَابِعُ الْأُمَمِ تُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِإِعْجَابٍ شَدِيدٍ ، وَإِلَىٰ صَفْوَتِهِمُ الْمُمْتَازَةِ الَّذِينَ أَجْبَرُوا التَّارِيخَ عَلَىٰ أَنْ يَجْثُوَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ ، وَيَسْتَرْضِيهِمْ كَيْ يُسَجِّلَ عَنْهُ مَآثِرُهُمْ ؛ اِلْتَفَتَ هَٰذَا الْفَرِيقُ مِنَ « **النَّهَّازِينَ** » إِلَىٰ سَلَفِ الْأُمَّةِ يَنَالُونَ مِنْهُ ، وَيُحَقِّرُونَهُ فِي أَعْظَمِ رِجَالِهِ وَأَعْدَلِ أَصْفِيَائِهِ .

فَصَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُمْ كَفَرَةٌ فَجَرَةٌ ، لَمْ يَصْنَعُوا لِأُمَّتِهِمْ تَارِيخًا ، وَلَمْ يَحْمِلُوا عَنْ نَبِيِّهِمْ إِلَيْهِمْ دِينًا هُوَ عِزُّهُمْ وَشَرَفُهُمْ لَوْ أَرَادَ عِزًّا وَشَرَفًا .

وَالتَّابِعُونَ مِنْ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُ شَرًّا وَسُوءًا .

فَالشَّافِعِيُّ وَإِخْوَانُهُ مِنَ الْمُزَوِّرِينَ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ أَوْرَدُوهُمْ

مَوَارِدَ الْهَلَاكِ ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُ قَدِ ابْتَكَرَ فِي الْأُمَّةِ عِلْمَ « أُصُولِ الْفِقْهِ » ، وَهُوَ فَلْسَفَةٌ تَزْهُو بِهَا أَيُّ أُمَّةٍ ، وَيَرْتَفِعُ بِهَا كُلُّ عَالِمٍ وَهَبَهُ اللَّهُ مِثْلَ هَٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فِي أُمَّتِهِ .

وَخطَأٌ آخَرُ يَرَاهُ هَٰؤُلَاءِ فِي الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَزُمَلَائِهِ : وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ حَمَلَ خَلَفَ الْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَىٰ عَقِيدَةِ سَلَفِهِمُ الَّذِينَ تَقَدَّمُوهُ ، مِنْ أَنَّ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ التَّشْرِيعِ ، مَرْتَبَتُهُ الْحَقِيقِيَّةُ بَعْدَ الْقُرْءَانِ .

وَلَيْسَ الشَّافِعِيُّ وَإِخْوَانُهُ مِنْ رِجَالِ الْفِقْهِ هُمُ الَّذِينَ قَدْ صَبَّ عَلَيْهِ هَٰؤُلَاءِ « النَّهَّازُونَ » سَوْطَ عَذَابِهِمْ ، وَإِنَّمَا قَدْ نَالَ هَٰؤُلَاءِ « النَّهَّازُونَ » بِالْأَذَىٰ قِمَمًا فِي تَخَصُّصٍ آخَرَ ، هُوَ « تَدْوِينُ السُّنَّةِ ، وَالدِّفَاعُ عَنْهَا ، وَالتَّصَدِّي لِمَنْ أَرَادُوا أَنْ يُغَبِّرُوا فِي وَجْهِهَا » ، وَكَانَتِ الرَّمْيَةُ الَّتِي مَارَسَهَا الْقَوْمُ فِي هَٰذَا الِاتِّجَاهِ مُوَجَّهَةً إِلَىٰ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ وَصَحِيحِهِ ، بَعْدَ مَا وَجَّهَهَا رِجَالٌ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلُ إِلَىٰ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ السَّابِقِينَ عَلَىٰ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ ، مِنْ نَحْوِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ « أَبِي هُرَيْرَةَ » ، وَمِنْ نَحْوِ التَّابِعِيِّ الْفَذِّ « ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ » .

وَلَقَدْ تَطَاوَلَ هَٰؤُلَاءِ بِالْحَدِيثِ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ هَٰذِهِ الْعِبَارَةَ عَنْهُ – وَالَّذِي أَرَىٰ أَنَّ فَمَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْرِجَ إِلَّا أَمْثَالَهَا – قَالَ : « إِنَّ احْتِرَامَ النَّبِيِّ شِرْكٌ » !! ، وَكَلَامٌ كَثِيرٌ يُشْبِهُ هَٰذَا .

ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي هُوَ رُوحُ الْمُجْتَمَعِ : « لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ – فِي الْحَقِيقَةِ – هُوَ الشُّيُوعِيَّ الْأَوَّلَ ، دُونَ أَنْ يَعْلَمَ أَصْحَابُهُ عَنْهُ أَنَّهُ

كَانَ كَذَٰلِكَ » [١] ؛ وَأَضَافَ الْقَائِلُ : « وَنَحْنُ نُجِلُّ النَّبِيَّ لِذَٰلِكَ الْمَسْلَكِ » .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ عَنِ النَّبِيِّ وَدِينِهِ : « إِنَّ عِبَادَاتِ النَّبِيِّ وَمُمَارَسَاتِهِ وَأَقْوَالَهُ .. كُلُّهَا أُمُورٌ صَادِرَةٌ عَنْهُ ، يَحْكُمُهَا الذَّاتُ الْخَاصَّةُ بِهِ ، وَالْمَكَانُ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ ، وَالزَّمَانُ الَّذِي احْتَوَاهُ » . ثُمَّ يُضِيفُ الْقَائِلُ : « وَهَٰذِهِ أُمُورٌ لَا تَلْزَمُنَا » ! .

أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكَ : أَرَأَيْتَ إِلَىٰ أُنَاسٍ رَأَوْا شَرَفَهُمْ فِي تَحْطِيمِ الزِّينَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ ، وَتُعَلَّقُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ ، وَتَعْمَلُ عَلَىٰ إِبْرَازِهِمْ أَمَامَ الْعَالَمِينَ فِي أَكْمَلِ صُورَةٍ ، تَحْطِيمًا لَا يُبْقِي مِنْهَا وَلَا يَذَرُ ؟! .

إِنَّ مَنْ يَفْعَلُونَ ذَٰلِكَ - وَلَا شَكَّ - هُمْ أُنَاسٌ قَدْ تَنَازَلُوا عَنْ كَرَامَتِهِمْ مُقَابِلَ حِفْنَةٍ مِنَ الدَّرَاهِمِ فِي جُيُوبِهِمْ ، أَوْ مَائِدَةِ طَعَامٍ يُدْعَوْنَ إِلَيْهَا ، فَيَمْلَؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ، أَوْ أَلْوَانٍ أُخْرَىٰ مِنَ الْمَتَاعِ ، تُصَاحِبُهَا أَضْوَاءٌ تَأْخُذُ بِأَبْصَارِهِمْ فَلَا يَمْلِكُونَ لَهَا دَفْعًا ، وَلَا يَمْلِكُونَ عَنْهَا فِكَاكًا .

٢- وَالثَّانِي مِنْ مَسَالِكِ الْقَوْمِ الشَّاذَّةِ : أَنَّهُمْ قَدِ الْتَفَتُوا إِلَىٰ مَصَادِرِ الدِّينِ الْأَسَاسِيَّةِ ، وَهُمْ يَرْغَبُونَ أَنْ يَعْبَثُوا بِهَا ، آمِلِينَ أَنْ يُشَوِّشُوا عَلَىٰ عُقُولِ الْمُنْتَمِينَ لِهَٰذَا الدِّينِ ، وَعَلَىٰ وِجْدَانِهِمْ وِسُلُوكِهِمْ ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّ هَٰذَا الدِّينِ قَدْ وَعَدَ أَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغُونَ ، كَمَا فَعَلَ بِأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ فِي عَصْرِ الْمَبْعَثِ ، وَمَا بَعْدَ عَصْرِ الْمَبْعَثِ .

---

(١) أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ كِتَابَةِ هَٰذَا الْكَلَامِ فِي حَقِّ سَيِّدِنَا رِسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَوْلَا أَنَّ فَضِيلَةَ الْمُحَقِّقِ نَقَلَهُ عَنْ هَٰذَا الْقَائِلِ الْمُجْرِمِ .. مَا كُنْتُ نَقَلْتُهُ وَلَا كَتَبْتُهُ . اِهـ . قَالَهُ نَاصِرُ عَبْدُ اللهِ .

وَمَعْنَىٰ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَ أَنَّهُ سَيَفْعَلُ ذَٰلِكَ ، وَقَدْ وَقَعَ مَا وَعَدَ بِهِ ، فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ حَاوَلُوا فِي هَـٰذَا الزَّمَانِ - كَمَا فَعَلَ أَسْلَافُهُمْ مِنْ قَبْلُ - التَّشْوِيشَ عَلَىٰ مَصَادِرِ هَـٰذَا الدِّينِ .

وَبَدَأُوا مَسِيرَتَهُمُ الْمَشْبُوهَةَ تِلْكَ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْمَصْدَرِ الثَّانِي الَّذِي هُوَ « السُّنَّةُ » .

وَإِشَارَةُ الْبَدْءِ الَّتِي يَحْتَرِمُهَا هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ فِي هَـٰذَا الْعَصْرِ .. قَدْ جَاءَتْهُمْ ضِمْنَ صَفَحَاتِ كِتَابٍ يَحْتَوِي مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُحَاضَرَاتِ ، كَتَبَهَا «إِجْنَاس جُولْدتسيهر» فِي « بُودَابِسْتِ الْمَجَرِ » بَعْدَ أَنْ عُهِدَ إِلَيْهِ بِكِتَابَتِهَا ، رَيْثَمَا يَتَوَفَّرُ لَهُ مِنَ الْوَقْتِ وَالظُّرُوفِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الطَّوَافِ بِهَا فِي حَوَاضِرِ أُورُوبَّا وَالْأَمْرِيكَتَيْنِ ، لِإِلْقَائِهَا عَلَىٰ الْعُقُولِ الْمُثَقَّفَةِ وَغَيْرِ الْمُثَقَّفَةِ هُنَاكَ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ الْقَدَرُ لَمْ يُمْهِلْهُ لِإِلْقَاءِ هَـٰذِهِ الْمُحَاضَرَاتِ .. إِلَّا أَنَّ هَـٰذِهِ الْمُحَاضَرَاتِ قَدْ نُقِلَتْ إِلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيقٍ مُنَاسِبٍ عَلَىٰ اتِّجَاهَاتِهَا الشَّاذَّةِ ، وَهِيَ حِينَ نُقِلَتْ إِلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ كَانَ عُنْوَانُهَا - وَلَا يَزَالُ فِي هَـٰذِهِ اللُّغَةِ الْجَدِيدَةِ - : « الْعَقِيدَةُ وَالشَّرِيعَةُ فِي الْإِسْلَامِ » [1] .

وَفِي هَـٰذَا الْكِتَابِ « الْعَقِيدَةُ وَالشَّرِيعَةُ فِي الْإِسْلَامِ » آرَاءٌ كَثِيرَةٌ شَاذَّةٌ ، لَسْنَا الْآنَ بِصَدَدِ مُنَاقَشَتِهَا .

(١) بِتَرْجَمَةِ وَتَعْلِيقِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ يُوسُفَ مُوسَىٰ ، وَالدُّكْتُورِ عَلِيٍّ حَسَنٍ عَبْدِ الْقَادِرِ ، وَالْأُسْتَاذِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَبْدِ الْحَقِّ . وَالنَّاشِرُ : دَارُ الْكُتُبِ الْحَدِيثَةِ بِمِصْرَ ، وَمَكْتَبَةِ الْمُثَنَّىٰ بِبَغْدَادَ ، مَطَابِعُ دَارِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ بِمِصْرَ ، مُؤَسَّسَةُ مِصْرَ لِلطِّبَاعَةِ الْحَدِيثَةِ . اهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّهِ .

وَمَا يُهِمُّنَا الْآنَ هُنَا أَنْ نَقُولَ : إِنَّ هَٰذَا الْكِتَابَ قَدِ احْتَوَىٰ إِشَارَةَ الْبَدْءِ فِي أُمَّتِنَا الْمِصْرِيَّةِ لِشَنِّ هَجْمَةٍ عَلَىٰ السُّنَّةِ ، تُوَاكِبُ أَخَوَاتِهَا فِي نَحْوِ مَا ظَهَرَ فِي « الْهِنْدِ وَبَاكِسْتَانَ » أَوَاخِرَ الْقَرْنِ الْمَاضِي ، وَجَمِيعَ هَٰذَا الْقَرْنِ .

وَالِاتِّجَاهُ – عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ – مَوْجُودٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ ... (١) فِي كُلِّ قُطْرٍ هُمْ أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ هَٰذَا الْمَذْهَبِ دُونَ أَنْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ اجْتِذَابِ أَشْبَالٍ يَحْمِلُونَ رِسَالَتَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ .

وَبَعْدَ إِشَارَةِ الْبَدْءِ تِلْكَ .. انْدَفَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ – مِمَّنْ وَصَفْنَاهُمْ سَلَفًا – يَتَحَدَّثُونَ عَنِ السُّنَّةِ وَهُمْ يُصِرُّونَ عَلَىٰ رَفْضِهَا ، وَتَحْقِيرِ نَقَلَتِهَا ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ نَظْرَةٌ عَلَىٰ التَّعَرُّضِ لِلْمَنْهَجِ الصَّارِمِ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ السُّنَّةُ فِي نَقْلِهَا مُنْذُ صُدُورِهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِلَىٰ الْآنَ .

وَكُنَّا نَوَدُّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِهَٰذِهِ الْمَنَاهِجِ الَّتِي ابْتَكَرَهَا الْمُسْلِمُونَ ابْتِكَارًا ، وَيُقَارِنُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنَاهِجِ التَّارِيخِ وَنَقْلِ الْأَحْدَاثِ وَالرِّوَايَاتِ لَدَىٰ الْعُلَمَاءِ الْمُخْتَصِّينَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، لَوْلَا أَنَّنَا قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَيْسُوا **ذَوَاتًا** قَادِرَةً عَلَىٰ مُنَاقَشَةِ الْمَنَاهِجِ وَتَوْجِيهِ الْفِكْرِ ، وَإِنَّمَا هُمْ أُنَاسٌ يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَوْضُوعًا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ النَّاسُ أَجْزَاءً وَتَفَارِيقَ .

ثُمَّ إِنَّهُمْ يَتَنَاوَلُونَ السُّنَّةَ بِأُسْلُوبٍ أَخَصُّ خَصَائِصِهِ التَّشْوِيشُ وَالتَّهْوِيشُ .

(١) كَلِمَةٌ بِالْأَصْلِ شِبْهُ مَمْسُوحَةٍ لَا تُقْرَأُ . قَالَهُ نَاصِرٌ .

فَأَبُو هُرَيْرَةَ : مَرْدُودُ الرِّوَايَةِ عِنْدَهُمْ ، لِأَنَّهُ قَدِ اشْتَهَرَ بِكُنْيَتِهِ ، وَلَمْ يَشْتَهِرْ بِاسْمِهِ ، وَهُوَ مَرْدُودٌ عِنْدَهُمْ لِأَنَّ ذَاكِرَتَهُ قَدْ وَعَتْ خَمْسَةَ آلَافِ حَدِيثٍ - أَيْ خَمْسَةَ آلَافِ سَطْرٍ - وَهُمْ يَسْتَكْثِرُونَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ ، فِي حِينَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَتَكَايَسُ بِأَنَّهُ يَحْفَظُ كَذَا وَكَذَا مِنْ دَوَاوِينِ الشِّعْرِ وَقِطَعِ النَّثْرِ ! .

وَأَبُو هُرَيْرَةَ : مَرْدُودُ الرِّوَايَةِ عِنْدَهُمْ ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ مُشْرِقُ الْوَجْهِ ، يَتَصَدَّقُ بِابْتِسَامَتِهِ وَذَرَفِهِ [1] الْبَرِيءِ عَلَىٰ أَقْرَانِهِ وَعَلَىٰ شُيُوخِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ حَوْلِهِ وَصِغَارِهِ ؛ وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَكُونَ وَجْهُهُ عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . وَهُوَ مَرْدُودُ الرِّوَايَةِ عِنْدَهُمْ لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَجْرَحَ إِنْسَانًا دَعَاهُ ، فَيُلَبِّي الدَّعْوَةَ وَلَوْ كَانَ صَائِمًا ، ثُمَّ يَعْتَذِرُ بِصَوْمِهِ حِينَ تَمْتَدُّ الْأَيْدِي إِلَىٰ الطَّعَامِ عَنْ أَنْ يَتَنَاوَلَ هُوَ الطَّعَامَ .

وَابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ : مَرْدُودُ الرِّوَايَةِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يُؤَدِّبُ وَيُعَلِّمُ أَوْلَادَ السَّلَاطِينَ .... [2] خُلُقُهُ الَّذِي كَانَ مِنْهُ أَنَّهُ يَكْرَهُ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ وَعَلَىٰ اللّٰهِ ، إِلَىٰ الْحَدِّ الَّذِي أَقْسَمَ مَعَهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ ، فَقَالَ : « وَاللّٰهِ ، لَوْ أَنَّ مَلَكًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ : إِنَّ الْكَذِبَ حَلَالٌ .. مَا كَذَبْتُ » .

أَمَّا الْبُخَارِيُّ : فَحَدِّثْ عَنْهُ وَلَا حَرَجَ ، لَقَدْ قَالَ الْقَوْمُ عَنْهُ كَلَامًا أَقَلُّ مَا يُقَالُ فِيهِ إِنَّهُ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِعِلْمٍ وَلَا بِعُلَمَاءَ ؛ فَالرَّجُلُ عِنْدَهُمْ يَهُودِيٌّ ، أَوْ عَمِيلٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَالرَّجُلُ عِنْدَهُمْ ضَلِيعٌ فِي الْكَذِبِ ، لِأَنَّهُ رَوَىٰ سُنَّةَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَالرَّجُلُ عِنْدَهُمْ مَرْدُودُ الرِّوَايَةِ ، لِأَنَّهُ مِنْ كُتَّابِ السِّيرَةِ ؛

(١) هُوَ دَمْعُ الْعَيْنِ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللّٰهِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ كَلَامٌ مَمْسُوحٌ قَرِيبٌ مِنْ سَطْرٍ . اِهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ .

إِيْ وَاللَّٰهِ ، هَـٰكَذَا قَالَ مُفَكِّرُهُمْ ! .

وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ الْقَوْمَ يَرْفُضُونَ السُّنَّةَ عَلَىٰ غَيْرِ مَنْهَجٍ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ مَنْهَجَنَا هُوَ عَقْلُنَا ! .

وَلَقَدْ نَظَرْنَا فِيمَا تَرَكُوهُ لَنَا ، فَإِذَا بِهِمْ أُنَاسٌ لَا يَتَّفِقُونَ عَلَىٰ رَأْيٍ ، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] .

وَمِنَ الْعَجَبِ الْعَاجِبِ .. أَنَّنَا وَجَدْنَاهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، فَإِذَا بِهِمْ يُحَقِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَتَمَنَّىٰ بَعْضُهُمْ لَوْ أَنَّهُ يَطَأُ رِقَابَ الْآخَرِينَ ! .

وَهَـٰذَا قَدَرُ اللَّٰهِ فِيهِمْ .

وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ : لَوْ أَنَّا وَافَقْنَاكُمْ عَلَىٰ تَنْحِيَةِ السُّنَّةِ مِنْ سَاحَةِ الدِّينِ جَدَلًا وَافْتِرَاضًا .. فَهَلْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَقُولُوا لَنَا : أَيْنَ الْمَادَّةُ الَّتِي نَمْلَأُ بِهَا فَرَاغَ التَّشْرِيعِ الَّذِي تَرَكَتْهُ السُّنَّةُ فِي كُلِّ أَجْزَاءِ التَّشْرِيعِ ؟ .

لَوْ أَنَّكَ فَعَلْتَ ذَٰلِكَ .. لَوَجدتَّ كَبِيرَهُمْ يَقُولُ لَكَ فِي كِتَابٍ كَبِيرٍ صَدَرَ عَنْهُ : « سَنَمْلَأُ هَـٰذَا الْفَرَاغَ بِفَهْمِنَا فِي الْقُرْءَانِ » . وَحِينَ حَاوَرْنَاهُ .. سَقَطَ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ تَحْتَ سِيَاطِ الْجَهْلِ تُلْهِبُ ظَهْرَهُ .

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ جَمَاعَةً أُخْرَىٰ عَابُوا عَلَىٰ شَيْخِهِمْ مَسْلَكَهُ ، فَقَالُوا : إِنَّنَا لَا نَرْضَىٰ بِذَٰلِكَ الْمَسْلَكِ ، وَإِنَّمَا نَرْضَىٰ بِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَسُنَّتِهِ تَمْلَأُ هَـٰذَا الْفَرَاغَ .

وَقَدِ اتَّخَذَ أَفْرَادُ هَـٰذَا الْفَرِيقِ لَهُمْ نَبِيًّا وَرَاءَ الْمُحِيطَاتِ ، عَرَبِيَّ الْجِنْسِيَّةِ ، مَشْبُوهَ الِانْتِمَاءِ ، وَلِهَـٰذَا النَّبِيِّ نَائِبٌ فِي مِصْرَ ، ظَنَّ لِلَحْظَةٍ أَنَّهُ

قَادِرٌ عَلَىٰ إِطْفَاءِ نُورِ اللَّٰهِ بِفَمِهِ .

ثُمَّ جَاءَتْ فِرْقَةٌ ثَالِثَةٌ تَلْعَنُ الطَّائِفَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ وَتُخَالِفُهُمَا ، لِتَقُولَ لَنَا : الْعُرْفُ ، وَالْعُرْفُ وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ مَلْءِ الْفَرَاغِ .

وَحِينَ وَاجَهْنَاهُمْ بِأَنَّ التَّشْرِيعَاتِ هِيَ رِعَايَةُ مُثُلٍ ، وَلَيْسَتْ حِمَايَةَ وَاقِعٍ ! .. أَخَذُوا يَلُوذُونَ بِطَوَائِفَ أُخْرَىٰ خَارِجَ مِصْرَ ، يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْحَلَّ ، وَكَانَ مِمَّا قَالُوهُ : إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الزَّحْفِ عَلَىٰ الْقُرْءَانِ نَأْخُذُ مِنْهُ وَنَدَعُ .

وَالْقُرْءَانُ عِنْدَهُمْ قُرْءَانَانِ : ١- مَكِّيٌّ ٢- وَمَدَنِيٌّ . وَصَدَقُوا ، لَٰكِنَّهُمْ عَبَّرُوا بَعْدَ ذَٰلِكَ بِعِبَارَاتِ الصِّبْيَانِ ، فَقَالُوا : إِنَّ الْقُرْءَانَ الْمَكِّيَ زَوْجٌ ، قَدْ تَزَوَّجَ بِالْقُرْءَانِ الْمَدَنِيِّ ، وَالزَّوْجُ لَهُ الْبَقَاءُ ، وَالطَّرَفُ الْآخَرُ لَا بُدَّ أَنْ يَفْنَىٰ بِفَنَاءِ وَقْتِهِ ؛ وَالْقُرْءَانُ الْمَدَنِيُّ - مَعَ أَنَّهُ مُتَأَخِّرٌ - مَنْسُوخٌ بِالْقُرْءَانِ الْمَكِّيِّ مَعَ تَقَدُّمِهِ ! .

أَرَأَيْتَ إِلَىٰ هَٰذَا الْكَلَامِ الْعَجِيبِ كَيْفَ يَكُونُ ؟! .

أَمَّا أَنَا فَلَا أَتَعَجَّبُ مِنْ ذَٰلِكَ بَعْدَ أَنْ قُلْتُ لَكَ : إِنِّي أَتَحَدَّثُ عَنْ أُنَاسٍ نَهَّازِينَ بِالطَّبْعِ ، أَوْ نَهَّازِينَ بِالْأَجْرِ .

إِنَّهَا لَهَجْمَةٌ شَرِسَةٌ ، أَتْبَاعُهَا - فِي الْكَثِيرِ الْأَغْلَبِ - هُمْ بَقَايَا الشُّيُوعِيَّةِ بَعْدَ أَنْ سَقَطَتِ الشُّيُوعِيَّةُ .

فَلَمَّا سَقَطَتِ الشُّيُوعِيَّةُ ، وَسَقَطَتِ الدَّوْلَةُ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِي هَٰذَا الْمَذْهَبَ .. تَفَرَّقَ دُعَاةُ هَٰذَا الْمَذْهَبِ عَلَىٰ الْأَبْوَابِ ، وَتَوَزَّعُوا عَلَىٰ

الْـمُنْتَدَيَاتِ .

وَكُلُّ جَمَاعَةٍ لَهَا غَرَضٌ وَاتِّجَاهٌ تُرِيدُ أَنْ تَنْشُرَهُ .. تَأْخُذُ وَاحِدًا مِنْ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ خَلَّفَهُمُ الْـمَذْهَبُ الشُّيُوعِيُّ ، أَوْ أَكْثَرَ ، تُوَظِّفُهُمْ عِنْدَهَا ، تَدْفَعُ بِهِمْ فِي وَجْهِ كُلِّ عَاقِلٍ يُعَارِضُهُمْ فِي الْـمَذْهَبِ الَّذِي اصْطَنَعُوهُ ، مُسْتَفِيدِينَ مِنْ أَسَالِيبِهِمُ الَّتِي تَعَلَّمُوهَا فِي مَدَارِسِ الْـمَارْكِسِيَّةِ ، وَهِيَ أَسَالِيبُ لَا تَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ .

وَأَصْحَابُ تِلْكَ الْمَذَاهِبِ يَسْتَأْجِرُونَ هَٰؤُلَاءِ النَّاسَ مِنْ بَقَايَا الشُّيُوعِيَّةِ عَلَىٰ مَلْءِ بُطُونِهِمْ ، أَوْ تَصْرِيفِ شَهْوَتِهِمْ ، دُونَ أَنْ يَخْشَوْا مِنْهُمْ بَأْسًا عَلَىٰ تِلْكَ الْـمَذَاهِبِ الَّتِي تُخَالِفُ الْـمَارْكِسِيَّةَ أَشَدَّ الْـمُخَالَفَةِ ؛ ذَٰلِكَ .. لِأَنَّ بَقَايَا الشُّيُوعِيَّةِ – مِمَّنْ كَانُوا يُمَارِسُونَ الْكِرَازَةَ[1] لَهَا ، وَالدَّعْوَةَ إِلَىٰ مَبَادِئِهَا – لَيْسُوا – فِي الْأَصْلِ – أَصْحَابَ مَبَادِئَ ؛ فَلَمَّا خَلَّفَتْهُمُ الشُّيُوعِيَّةُ أَوِ الْـمَارْكِسِيَّةُ .. رَآهُمْ أَصْحَابُ الْـمَذَاهِبِ الْهَدَّامَةِ يُشْبِهُونَ الطَّوَاشِيَ[2] بَيْنَ النِّسَاءِ ، يَقُومُونَ بِالْـخِدْمَةِ فِي الْبُيُوتِ ، دُونَ أَنْ يَخْشَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ زَوْجِهِ ، أَوْ أُمِّهِ ، أَوْ بِنْتِهِ ، أَوْ أُخْتِهِ مِنْهُمْ شَيْئًا .

وَمَهْمَا اصْطَنَعَ هَٰؤُلَاءِ مِنْ أَسَالِيبِ الْـخِدَاعِ وَالتَّضْلِيلِ فِي وَجْهِ الْأُصُولِ

(١) الْكِرَازَةُ هِيَ : الْوَعْظُ بِالتَّعَالِيمِ الْـمَسِيحِيَّةِ ، وَالتَّبْشِيرُ بِهَا . اهـ . نَاصِرٌ .

(٢) الطَّوَاشِي : مُفْرَدَةٌ تُرْكِيَّةٌ تَعْنِي « الْـخَادِمَ الْـخَصِيَّ » ، وَهُوَ لَقَبٌ شَاعَ فِي زَمَنِ الْأَتْرَاكِ وَالْـمَالِيكِ فِي مِصْرَ ، يُطْلِقُونَهُ عَلَىٰ خَدَمِهِمُ الْـمُقَرَّبِينَ ، وَكَانَ هَٰؤُلَاءِ « الطَّوَاشِيَّةُ » يَتَوَلَّوْنَ كَثِيرًا مِنَ الْـمَهَامِّ الْـخَاصَّةِ لِلْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ، وَقَدْ يَصِلُونَ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْإِمَارَةِ ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ : الطَّوَاشِي قَرَاقُوشُ الْـمَشْهُورُ ، الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ فِي خِدْمَةِ الْفَاتِحِ صَلَاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ . اهـ . نَاصِرٌ .

الْأُصُولِ الْأَسَاسِيَّةِ لِهَٰذَا الدِّينِ .. فَلَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ تَحْقِيقِ شَيْءٍ مِنْ أَغْرَاضِهِمْ ، وَلَا نَيْلِ شَيْءٍ مِنْ أَهْدَافِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة : ٣] .

٣- وَأَمَّا الثَّالِثُ مِنْ هَٰذِهِ الْمَسَالِكِ الشَّاذَّةِ الَّتِي سَلَكَهَا هَٰؤُلَاءِ النَّاسُ :

أَنَّهُمُ الْتَفَتُوا إِلَىٰ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْتِفَاتَةَ مَنْ يَزْدَرِيهَا وَيَرْغَبُ فِي الِازْوِرَارِ عَنْهَا .

وَالْقَوْمُ - فِي هَٰذَا الْمَسْلَكِ الثَّالِثِ - مُتَّسِقُونَ مَعَ أَغْرَاضِهِمْ ، وَمُتَوَافِقُونَ مَعَ مَنْهَجِهِمْ .

وَبَيَانُ ذَٰلِكَ : أَنَّهُمْ قَدْ بَدَأُوا بِأُصُولِ الشَّرِيعَةِ ، فَشَكَّكُوا فِي الْأَصْلِ الثَّانِي مِنْهَا وَهُوَ « السُّنَّةُ » ، وَرَأَوْا مِنْ مُنْطَلَقَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ التَّشْرِيعِ ؛ ثُمَّ عَمَدُوا إِلَىٰ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ - وَهُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ - فَقَسَّمُوهُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ : ١- مَكِّيٍّ ٢- وَمَدَنِيٍّ . وَهُوَ تَقْسِيمٌ صَحِيحٌ ، لَا تَرَىٰ الْأُمَّةُ فِيهِ بَأْسًا ، غَيْرَ أَنَّ الْقَوْمَ عَمَدُوا إِلَىٰ الْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ وَقَالُوا : إِنَّهُ مَحْكُومٌ بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأَشْخَاصِ ، وَهِيَ أُمُورٌ قَدِ انْقَضَتْ ، وَلَا يَصْلُحُ لِلْأَحْكَامِ الَّتِي جَاءَتْ لِأَشْخَاصٍ بِأَعْيَانِهِمْ فِي أَزْمِنَةٍ خَاصَّةٍ ، وَمَكَانٍ مُعَيَّنٍ أَنْ تَكُونَ مُلْزِمَةً لِكُلِّ النَّاسِ عَلَىٰ امْتِدَادِ خَرِيطَتَيِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ! .

وَهَٰكَذَا .. لَمْ يَبْقَ فِي يَدِ الْقَوْمِ مَا يُغَازِلُونَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا هَٰذَا الْقُرْءَانَ الْمَكِّيَّ ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ فِي هَٰذَا الْقِسْمِ مِنْ أَقْسَامِ الْقُرْءَانِ مِنَ الْعُمُومِيَّاتِ

وَسِعَةِ الْمَبْدَأِ .. مَا يَسْمَحُ لِلْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ أَنْ يَتَدَخَّلَ بِسُلْطَانِهِ وَسَطْوَتِهِ ، وَأَنْ يَحْكُمَ الْمُجْتَمَعَاتِ بِـ « دِكْتَاتُورِيَّتِهِ » وَتَسَلُّطِهِ .

عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْأَرْضِيَّةِ .. اِرْتَفَعَتْ أَصْوَاتٌ - بِحُسْنِ نِيَّةٍ ، أَوْ بِسُوءِ نِيَّةٍ - تُطَالِبُ بِتَغْيِيرِ الشَّرِيعَةِ ، وَإِلْغَاءِ الْفِقْهِ ، بِحُجَّةِ أَنَّ الْفِقْهَ نِتَاجٌ بَشَرِيٌّ مُنْقَطِعُ الصِّلَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالظُّرُوفِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ فِي هَـٰذَا الزَّمَانِ سَوْطَ عَذَابٍ ، يُلَاحِقُ الْأَفْرَادَ الْمُعَاصِرِينَ ، وَيَمْنَحُ الْمَوْتَ حَقَّ الْوَصَايَةِ عَلَىٰ الْأَحْيَاءِ ! .

وَأَنْتَ خَبِيرٌ - وَلَا شَكَّ - أَنَّ الْمُطَالَبَةَ بِإِلْغَاءِ الشَّرِيعَةِ ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ نِتَاجِ الْأَسْلَافِ ، بَعْدَمَا عَلِمْنَا أَنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِتَغْيِيرِ الشَّرِيعَةِ وَبِإِلْغَاءِ الْفِقْهِ .. قَدْ مَهَّدُوا لِذَٰلِكَ بِالطَّعْنِ فِي « السُّنَّةِ » ، وَبِتَنْحِيَةِ الْقُرْءَانِ الْمَدَنِيِّ ، وَبِالتَّشْكِيكِ فِي الْإِجْمَاعِ ، وَالتَّقْلِيلِ مِنْ قِيمَةِ مَجْهُودَاتِ الرِّجَالِ .

أَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ مَنْ يُنَادُونَ بِإِلْغَاءِ الْفِقْهِ وَتَغْيِيرِ الشَّرِيعَةِ - وَحَالُهُمْ مَا تَرَىٰ - أُنَاسٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْمِلُوا الْأُمَّةَ عَلَىٰ تَرْكِ دِينِهَا وَالتَّخَلُّصِ مِنْهُ ، مَهْمَا حَاوَلُوا أَنْ يُفَلْسِفُوا وِجْهَةَ نَظَرِهِمْ ، وَ مَهْمَا حَاوَلُوا أَنْ يَعْرِضُوهَا عَرْضًا مُشَوَّشًا ، قَاصِدِينَ إِلَىٰ إِقْنَاعِ الْبُسَطَاءِ بِمَا يَقُولُونَ .

وَدَعْنِي أَطْرَحُ أَسْئِلَةً أَطْلُبُ الْإِجَابَةَ عَلَيْهَا ، كَيْ أَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ التَّفْكِيرِ فِيمَا أَرْصُدُهُ مِنْ أَحْوَالِ هَـٰؤُلَاءِ .

وَلَـٰكِنِّي قَبْلَ طَرْحِ هَـٰذِهِ الْأَسْئِلَةِ .. سَأُحَاوِلُ أَنْ أُمَهِّدَ لِذَٰلِكَ بِكَلِمَةٍ أُضَمِّنُهَا الْمَنْظُومَةَ التَّشْرِيعِيَّةَ الَّتِي حَكَمَتْ أَسْلَافَنَا الْأَوَائِلَ وَهُمْ يَقُومُونَ

بِخِدْمَةِ هَـٰذَا الدِّينِ ، وَخِدْمَةِ هَـٰذِهِ الْأُمَّةِ حِينَ وَصَلُوا اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ فِي تَأَمُّلٍ عَمِيقٍ فِي نُصُوصِ هَـٰذَا الدِّينِ ، لِاسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْأَحْدَاثِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ أَوِ الْمُحْتَمَلَةِ .

وَعُلَمَاؤُنَا الْأَوَائِلُ حِينَ بَدَأُوا عَمَلَهُمُ الْعِلْمِيَّ .. لَمْ يَشَاءُوا أَنْ يَنْطَلِقُوا مِنْ فَرَاغٍ ، وَإِنَّمَا رَأَوْا أَنَّهُمْ مَحْكُومُونَ بِمَذْهَبِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ، يُمْكِنُ أَنْ نُعَرِّفَهَا جَمِيعًا بِـ « الْمَقَاصِدِ الْحَقِيقِيَّةِ لِهَـٰذَا الدِّينِ » ، وَهِيَ مَقَاصِدُ – وَلَا شَكَّ – تَقَعُ مِنَ التَّفْكِيرِ الْإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ مَوَاقِعَ الْبَدَهِيَّاتِ الَّتِي لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهَا اثْنَانِ .

فَالْحِفَاظُ عَلَىٰ النَّفْسِ وَ**الْعَقْلِ** وَالدِّينِ وَالْمَالِ وَالنَّسْلِ .. أَهْدَافٌ كُلُّهَا تَقَعُ فِي حَيِّزِ مُتَطَلَّبَاتِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا تَكَادُ تَعْدُوهَا وَلَا قُلَامَةَ ظُفُرٍ .

غَيْرَ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَهُ مَذْهَبِيَّتُهُ الْخَاصَّةُ الَّتِي تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ فِي تَحْقِيقِ هَـٰذِهِ الْأَغْرَاضِ الْعَامَّةِ ، وَفِي الْمَنْهَجِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَىٰ هَـٰذَا التَّحْقِيقِ ، وَهُوَ مَذْهَبٌ يَخْتَلِفُ – وَلَا شَكَّ – مَعَ جَمِيعِ الْمَذَاهِبِ الْمُنْبَثَّةِ فِي الْفَلْسَفَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ « الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ » عَلَىٰ طَرَفٍ ، وَ« الشُّيُوعِيَّةَ الْمَارْكِسِيَّةَ » عَلَىٰ الطَّرَفِ الْآخَرِ ، وَبَيْنَهُمَا مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّوَجُّهَاتِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ عُلَمَاؤُنَا مَا أَرَادُوهُ مِنْ تَحْقِيقِ الْإِطَارِ الْمَذْهَبِيِّ الْعَامِّ .. رَأَوْا أَنَّهُ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يُحَدِّدُوا لَهُمْ أُصُولًا تُعَدُّ – هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ – الْمَرْجِعِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ ، الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا الْمُفَكِّرُ فِي مَجَالِ التَّشْرِيعِ ، لَا يَكَادُ يَعْدُوهَا .

وَاتَّسَعَتْ أَبْحَاثُهُمْ فِي هَـٰذَا الْمَجَالِ ، لَـٰكِنَّهُمْ قَدِ اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْءَانَ

وَالسُّنَّةَ يُمَثِّلَانِ الْأَصْلَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ إِغْفَالُهُمَا ، وَلَا إِغْفَالُ أَحَدِهِمَا ، إِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَدَّثَ لِلنَّاسِ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ .

ثُمَّ هُمْ قَدْ وَضَعُوا بَعْدَ ذُلِكَ أُمُورًا لِلْبَحْثِ وَالنَّظَرِ فِيهَا ، وَهَلْ يَصْلُحُ بَعْضُهَا أَنْ يَكُونَ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ التَّشْرِيعِ أَمْ لَا ؟ ، وَمِنْهَا الْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ ، وَعَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَقِبَ عَصْرِ النَّبِيِّ ، وَالْمَصَالِحُ الْمُرْسَلَةُ ... إِلَخِ .

وَلِلْعُلَمَاءِ فِي بَحْثِ هَٰذِهِ الْأَشْيَاءِ كَلَامٌ كَثِيرٌ مُمْتِعٌ ، يَسْعَدُ بِالِاطِّلَاعِ عَلَيْهِ كُلُّ إِنْسَانٍ يَكُونُ طَلَبُ الْحَقِيقَةِ مُبْتَغَاهُ .

وَبَعْدَ الِاتِّفَاقِ عَلَىٰ الْإِطَارِ الْعَامِّ الَّذِي سَيَعْمَلُ الْعُلَمَاءُ مِنْ دَاخِلِهِ .

وَبَعْدَ الِاتِّفَاقِ عَلَىٰ الْمَرْجِعِيَّةِ وَالْأُصُولِ التَّشْرِيعِيَّةِ الَّتِي سَيَعْتَمِدُ الْمُفَكِّرُ عَلَيْهَا ، وَيَعُودُ – عِنْدَ الضَّرُورَةِ – إِلَيْهَا .. قَسَّمَ هَٰؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ أَنْفُسَهُمْ إِلَىٰ مَدَارِسَ ، هِيَ – فِي الْحَقِيقَةِ – وِرَشُ عَمَلٍ ، وَخَلَايَا إِنْتَاجٍ مُنَظَّمٍ .

وَمِنْ هَٰذِهِ الْوِرَشِ ، أَوْ تِلْكَ الْمَدَارِسِ .. أُنَاسٌ تَوَفَّرُوا عَلَىٰ وَضْعِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي تُمَكِّنُ الْعَالِمَ مِنَ اسْتِخْرَاجِ الْحُكْمِ مِنَ النَّصِّ ، حَتَّىٰ لَا يَضِلَّ عَالِمٌ ، أَوْ تَزِلَّ أَقْدَامُ مُفَكِّرٍ ، حِينَ يَجْمَحُ بِهِ هَوَاهُ بِغَيْرِ ضَابِطٍ يَضْبِطُهُ ، وَبِغَيْرِ حَكَمَةٍ تَكْبَحُ جِمَاحَهُ .

وَهَٰذِهِ الْوَرْشَةُ ، أَوْ تِلْكَ الْمَدْرَسَةُ .. قَدْ أَطْلَقَتْ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي وَضَعَتْهَا اسْمَ « أُصُولِ الْفِقْهِ » ، وَهِيَ – فِي جُمْلَتِهَا – تُشْبِهُ – إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ – مَجْمُوعَةَ الْقَوَاعِدِ الْمَنْطِقِيَّةِ الَّتِي وَضَعَهَا أَصْحَابُهَا ، بِقَصْدِ مَنْعِ ذِهْنِ

الْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً ، وَالْإِنْسَانِ عَلَىٰ وَجْهِ الْعُمُومِ .. مِنَ الْخَطَإِ فِي التَّفْكِيرِ .

وَعَالِمُ « أُصُولِ الْفِقْهِ » حِينَ يَسْتَخْرِجُ هَـٰذِهِ الْقَوَاعِدَ وَيُقَنِّنُهَا .. تَنْتَقِلُ هَـٰذِهِ الْقَوَاعِدُ مِنْ هَـٰذِهِ الْمَدْرَسَةِ إِلَىٰ يَدِ أُنَاسٍ آخَرِينَ يَسْتَخْرِجُونَ عَلَىٰ أَسَاسٍ مِنْهَا الْحُكْمَ مِنَ الدَّلِيلِ ، مُرْتَبِطًا بِالْمَسْأَلَةِ الَّتِي هِيَ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي وَقَعَتْ بِالْفِعْلِ ، أَوِ الَّتِي يَحْتَمِلُ الْعَالِمُ وُقُوعَهَا ، مِنْ غَيْرِ شَطَطٍ أَوْ إِغْرَاقٍ فِي الْخَيَالِ .

وَهَـٰذِهِ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي تَجْمَعُ الْمَسَائِلَ بِأَحْكَامِهَا الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنَ الدَّلِيلِ .. قَدْ أَطْلَقُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَقَبَ « الْفُقَهَاءَ » .

ثُمَّ تَنْتَقِلُ الْمَسْأَلَةُ بِرُمَّتِهَا إِلَىٰ يَدِ مَجْمُوعَتَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ ، عَمَلُهُمَا أَقْرَبُ إِلَىٰ التَّطْبِيقِ ، وَالتَّطْبِيقُ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَىٰ الْمَلَكَةِ الْمُدَرَّبَةِ الَّتِي تُمَكِّنُ صَاحِبَهَا مِنْ تَطْبِيقِ النَّظَرِيَّاتِ عَلَىٰ الْوَاقِعِ الْمُنَاسِبِ .

وَهَاتَانِ الْمَدْرَسَتَانِ – أَوِ الطَّائِفَتَانِ – مِنَ الْعُلَمَاءِ .. قَدْ تَسَمَّتْ إِحْدَاهُمَا بِـ « الْقُضَاةِ » ، وَالْأُخْرَىٰ بِـ « الْمُفْتِينَ » .

وَالْقَاضِي وَالْمُفْتِي يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا وَظِيفَتُهُ إِسْقَاطُ الْحُكْمِ عَلَىٰ الْوَاقِعِ الْمَعْرُوضِ عَلَيْهِ ، وَهَـٰذَا الْإِسْقَاطُ يَحْتَاجُ مِنَ الْقَاضِي أَوِ الْمُفْتِي إِلَىٰ :

أَوَّلًا : فَهْمِ الْحُكْمِ وَإِدْرَاكِهِ إِدْرَاكًا تَامًّا .

ثَانِيًا : فَهْمِ الْوَاقِعَةِ الْمَعْرُوضَةِ عَلَيْهِ فَهْمًا يُحِيطُ بِجَمِيعِ جَوَانِبِهَا .

ثَالِثًا : الْقُدْرَةِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكَةِ الْمُدَرَّبَةِ عَلَىٰ إِسْقَاطِ الْحُكْمِ عَلَىٰ الْوَاقِعَةِ .

وَهَـٰذَا هُوَ الْأَمْرُ الْـمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْقَاضِي وَالْـمُفْتِي .

غَيْرَ أَنَّ الْقَاضِيَ وَالْـمُفْتِيَ يَـخْتَلِفَانِ فِي أَمْرٍ آخَرَ ، يَـمَثِّلُهُ : أَنَّ الْقَاضِيَ حَاكِمٌ ، وَحُكْمُهُ مُلْزِمٌ ؛ وَأَنَّ الْـمُفْتِيَ مُرْشِدٌ ، وَإِرْشَادُهُ غَيْرُ مُلْزِمٍ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ .

وَلَـمْ تَقِفِ الْـمَدَارِسُ - الَّتِي تَضُمُّ عَلَمَاءَ الشَّرِيعَةِ - عِنْدَ هَـٰذَا الْـحَدِّ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ أَصَرُّوا عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ مَدْرَسَةٌ أُخْرَىٰ ، وَظِيفَتُهَا جَـمْعُ الْـأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ مِنَ الْـمَسَائِلِ وَأَحْكَامِهَا الْـمُرْتَبِطَةِ بِـهَا تَـحْتَ عُنْوَانٍ وَاحِدٍ يَـجْمَعُهَا جَـمِيعًا ، كَمَا يَفْعَلُ أَكْثَرُ الْـمُشَرِّعِينَ حَدَاثَةً الْيَوْمَ ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِهِ .

وَعُلَمَاؤُنَا لَـمْ يَفْعَلُوا ذَٰلِكَ إِلَّا بِقَصْدِ التَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيلِ عَلَىٰ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْـمُفَكِّرِينَ .

وَمِنْ أَمْثِلَةِ مَا أَنْتَـجُوهُ فِي هَـٰذَا الْـمِضْمَارِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ : نَظَرِيَّـةُ الْعَقْدِ فِي الْـإِسْلَامِ .

وَبَعْدَ هَـٰذَا الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ .. أَعُودُ إِلَىٰ تَسَاؤُلَاتِي الَّتِي أَطْرَحُهَا عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُونَ إِلْغَاءَ الْفِقْهِ وَتَغْيِيرَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَإِنِّي لَـأَرْجُو إِجَابَةً مُـحَدَّدَةً عَلَىٰ هَـٰذِهِ التَّسَاؤُلَاتِ ، حَتَّىٰ نَعِيَ عَنْ هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يُطَالِبُونَ بِإِلْغَاءِ الْفِقْهِ وَتَغْيِيرِ الشَّرِيعَةِ مَقَاصِدَهُمْ وَدَوَافِعَهُمْ وَمَنَاهِجَهُمْ .

وَتَسَاؤُلَاتُنَا نُورِدُهَا عَلَىٰ النَّحْوِ التَّالِي :

إِنَّـنَا نُرِيدُ - عَـلَىٰ وَجْـهِ الـدِّقَّـةِ - أَنْ تَـقُولُوا لَنَا : هَلْ أَنْـتُـمْ بِصَدَدِ تَغْيِيرِ

الْـمَنْظُومَةِ الَّتِي ابْتَكَرَهَا الْـأَقْدَمُونَ بِـتَمَامِهَا عَلَىٰ نَـحْوِ مَا عَرَضْنَاهَا ؟ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُغَـيِّرُوا بَـعْضَهَا ؟ . فَإِنْ كَانَتِ الثَّانِيَـةَ .. فَحَـدِّدُوهُ لَـنَا ، وَإِنْ كَانَتِ الْـأُولَىٰ .. فَهِيَ الْكَارِثَةُ ! .

وَمِنَ الْـأَسْئِلَةِ الَّتِي نُرِيدُ طَرْحَهَا هُوَ : أَنَّـهُ مِنْ حَقِّنَا أَنْ نَتَسَاءَلَ عَنِ الْـمَنْظُومَةِ الْـجَدِيدَةِ الْـمُقْتَرَحَةِ ، بَدَلًا مِنْ هَـٰذَا الصِّيَاحِ ، وَضَرْبِ الْـمَنَاضِدِ بِالْـأَيْدِي ، وَتَكْرَارِ الْقَوْلِ الْـمُعَادِ ، إِنَّـنَا فِي زَمَانٍ جَدِيدٍ ، وَظُرُوفٍ جَدِيدَةٍ ، وَمُـجْتَمَعٍ جَدِيدٍ ... إِلَخ ؟ .

وَقَدِ اطَّلَعْنَا عَلَىٰ أَقْوَالِ كُلِّ مَنْ نَادَوْا بِإِلْغَاءِ الْفِقْهِ وَتَغْيِيرِ الشَّرِيعَةِ .. فَلَـمْ نَـجِدْ لِـأَحَدِهِمْ مَنْظُومَةً مُقْتَرَحَةً لِـإِنْشَاءِ فِقْهٍ جَدِيدٍ .

وَمِنَ الْـأَسْئِلَةِ الَّتِي نُـحِبُّ أَنْ نَطْرَحَهَا هِيَ : أَنْ نَقُولَ لِـهَـٰؤُلَـاءِ الْقَوْمِ : هَلْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تُـحَدِّدُوا لَنَا الْـأُصُولَ التَّشْرِيعِيَّةَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَمِدَ عَلَيْهَا بَعْدَ إِلْغَائِكُمْ لِلْقُرْءَانِ الْـمَدَنِيِّ وَحُكْمِكُمِ عَلَيْهِ بِالنَّسْخِ ، وَاسْتِبْعَادِكُمْ لِلسُّـنَّـةِ النَّـبَوِيَّـةِ الْـمُطَهَّرَةِ ؟ .

وَالْـأَسْئِلَةُ كَثِيرَةٌ وَمُزْعِجَةٌ ، لَـا نُطِيلُ الْـحَدِيثَ بِهَا هُنَا ، وَنَأْمُلُ أَنْ يُتِيحَ اللَّـٰهُ لَنَا مِنَ الْوَقْتِ وَالْفَرَاغِ وَالتَّمْكِينِ مَا يَـجْعَلُنَا نُعْطِي هَـٰذَا الْـمَوْضُوعَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الدِّرَاسَةِ وَالنَّظَرِ .

وَمَا دُمْنَا فِي مَـجَالِ الرَّصْدِ وَالتَّأَمُّلِ .. فَإِنَّـهُ لَـا نَـجِدُ مَا يَـحْمِلُنَا عَلَىٰ الِـاسْتِرْسَالِ فِي الْعَرْضِ بِالشَّرْحِ وَالتَّعْلِيقِ ، وَإِنَّـمَا يَكْفِينَا مِنَ الْقِلَادَةِ هُنَا مَا أَحَاطَ بِالْعُنُقِ ، عَلَىٰ مَا يَقُولُ الْـمَثَلُ الْـمَشْهُورُ .

٤- وَمِنَ الْـمَسَالِكِ الشَّاذَّةِ الَّتِي سَلَكَهَا الْقَوْمُ : هَـٰذَا الْـمَسْلَكُ الرَّابِعُ ، وَهُوَ - هَـٰذِهِ الْـمَرَّةُ - فِيهِ تَوَجُّهٌ إِلَـىٰ الْـمَنْهَجِ بِقَصْدِ تَضْلِيلِ الْعُقُولِ وَإِيقَاعِهَا فِي اللَّبْسِ ، أَوْ تَعْمِيَةِ الْـحَقِيقَةِ عَلَيْهَا ، لَـا تَعْرِفُ لَـهَا قَدَمًا مِنْ رَأْسٍ .

وَهَـٰذِهِ الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ مِـمَّنْ سَلَكُوا هَـٰذَا الْـمَسْلَكَ .. جَسَّمُوا أَمَامَنَا فِعْلَةَ النَّبِيِّ أَمَامَ أَصْحَابِهِ ، حِينَ خَطَّ لَـهُمْ خَطًّا مُسْتَقِيمًـا عَلَىٰ الْـأَرْضِ ، وَقَالَ لَـهُمْ : « هَـٰذَا سَبِيلُ اللَّـٰهِ » ، ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَـمِينِ هَـٰذَا الْـخَطِّ خُطُوطًا ، وَعَنْ يَسَارِهِ خُطُوطًا ، وَقَالَ : « هَـٰذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ » (١) .

وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا هَـٰؤُلَـاءِ النَّاسُ .. هِيَ مَا عَابَهُ الْقُرْءَانُ الْكَرِيمُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَانْتَدَبَهُمْ بِقُوَّةٍ أَنْ يَبْتَعِدُوا عَنْهَا : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ٤٢] .

وَأَنْـتَ إِذَا نَـظَـرْتَ إِلَـىٰ فِعْلِ الْقَوْمِ بِالْـمَنَاهِجِ - وَأَنْـتَ وَاعٍ بِـمَـا فَعَلَ النَّبِيُّ ، وَمَـا قَالَ اللَّـٰهُ (عَزَّ وَجَلَّ) عَلَىٰ نَـحْوِ مَـا حَدَّثْتُكَ - لَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الْقَـوْمَ

(١) رَوَاهُ كَثِيرٌ مِنَ الْـمُحَدِّثِينَ ، وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِ [جُ ٧ : صَ ٢٠٧ / حَ ٤١٤٢ / مُسْنَدُ عَبْدِ اللَّـٰهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ] ، وَهَـٰذَا نَصُّ الْـحَدِيثِ بِسَنَدِهِ :

«حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ ، وَحَدَّثَنَا يَزِيدُ ، أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ : خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا ، ثُمَّ قَالَ : " هَذَا سَبِيلُ اللهِ " ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : " هَذِهِ سُبُلٌ - قَالَ يَزِيدُ : مُتَفَرِّقَةٌ - عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ " ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] » .

وَقَالَ الشَّيْخُ شُعَيْبٌ الْـأَرْنَؤُوطُ : « إِسْنَادُهُ حَسَنٌ » اِهـ . نَاصِرٌ .

يَرْتَكِبُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْفِعْلِ ، وَزُورًا مِنَ الْقَوْلِ .

وَهُمْ قَدْ سَلَكُوا فِي تَضْلِيلِ الْأُمَّةِ مَنْهَجِيًّا مَسَالِكَ عِدَّةً :

مِنْهَا : أَنَّهُمْ يَعْمُدُونَ إِلَىٰ الْأَلْفَاظِ الْكُلِّيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ فَيَحْمِلُوهَا عَلَىٰ غَيْرِ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ مِنْهَا ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا قَالُوا فِي السُّنَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُشْبِهُهَا .

وَمِنْهَا : أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ أَنْ يُنْزِلُوا الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ وَالنُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ – عَلَىَ الْعُمُومِ – عَلَىٰ الْمَعَانِي الَّتِي جَاءَ بِهَا مَارْكِسُ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ هَٰذَا هُوَ مُرَادَ اللَّٰهِ مِنْهَا .

وَمِنْهَا : أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ تَسْطِيحَ الْمَعَانِي الْعَمِيقَةِ ، وَالدَّلَالَاتِ ذَاتِ الْبُعْدِ التَّشْخِيصِيِّ لِلْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ ، فَيُحَاوِلُونَ تَسْطِيحَهَا وَتَمْيِيعَهَا ، كَيْ تَظْهَرَ أَمَامَ النَّاسِ بِغَيْرِ هَوِيَّةٍ ، وَبِغَيْرِ تَشْخِيصٍ .

وَكُلُّ مَسْلَكٍ مِنْ هَٰذِهِ الْمَسَالِكِ الَّتِي ذَكَرْتُ لَكَ ، وَمَا لَمْ أَذْكُرْ .. لَهُ أَنْصَارُهُ ، وَلَهُ رِجَالُهُ الْمُتَحَمِّسُونَ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْعَوْا لِدِينِهِمْ أَوْ أَهْلِيهِمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً .

٥- وَلَمْ يَكْتَفِ الْقَوْمُ بِمَا ذَكَرُوهُ ، وَلَٰكِنَّهُمُ ارْتَقَوْا بِهَٰذَا الْمَسْلَكِ الْخَامِسِ مِنْ مَسَالِكِهِمُ الشَّاذَّةِ إِلَىٰ الْعَقِيدَةِ ، يُشَكِّكُونَ النَّاسَ فِيهَا .

فَالْمُسْلِمُونَ يَعْبُدُونَ إِلَٰهًا لَهُ وُجُودُهُ الْمُتَمَيِّزُ عَنْ هَٰذَا الْوُجُودِ ، وَلَهُ صِفَاتُهُ الَّتِي لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الْبَشَرِ ، وَلَهُ أَفْعَالُهُ الصَّادِرَةُ عَنْ طَلَاقَةِ قُدْرَتِهِ ؛ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ أَفْعَالٌ تُشْبِهُهَا .

غَيْرَ أَنَّ الْقَوْمَ مِـمَّنْ يَبْتَغُونَ الشُّهْرَةَ ، وَلَوْ مِنْ طَرِيقِ الْبَوْلِ فِي زَمْزَمَ يَوْمَ الْـحَجِّ الْـأَكْبَرِ ، يَقُولُونَ : إِنَّـهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ ثَـابِتٌ ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ خَاضِعٌ لِلتَّطَوُّرِ وَالتَّغَيُّرِ ، كَيْ يُنَاسِبَ كُلَّ عَصْرٍ ، وَيَنْسَجِمَ مَعَ كُلِّ ظَرْفٍ وَلَـا يُسْتَثْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ شَيْءٌ (١) ، حَتَّىٰ اللَّٰهُ نَفْسُهُ .

وَيَنْتَهِي الْبَعْضُ مِنْهُمْ إِلَـىٰ الْقَوْلِ : إِنَّ اللَّٰهَ وَالْـإِنْسَانَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَـىٰ إِلَـٰهٍ ، يَرْسُمُ لِنَفْسِهِ ، وَيُـخَطِّطُ لِذَاتِهِ .

وَهُم يَتَحَدَّثُونَ عَنْ هَـٰذِهِ الْفِكْرَةِ بِأُسْلُوبٍ يَعِفُّ اللِّسَانُ عَنْ ذِكْرِ صِفَاتِهِ .

وَمِنْ هَـٰؤُلَـاءِ مَنْ يَقُولُونَ : إِنَّـمَا الْعُبَّادُ يَـجِبُ أَنْ يَنْتَقِلُوا فِي تَوَجُّهِهِمْ لِـإِلَـٰهِهِمْ مِنَ السَّمَـاءِ إِلَـىٰ الْـأَرْضِ ، حَيْثُ أَصْبَحَ إِلَـٰهُهُمْ فِي هَـٰذَا الزَّمَانِ هُوَ الْـأُمَّةَ الْـمُلْهِمَةَ فِي الْـحَقِيقَةِ ، وَالَّتِي تُوحِي لِـأَبْنَائِهَا بِـمَا تُرِيدُ فِي نَفْسِ الْـأَمْرِ .

وَهُمْ يُغَلِّفُونَ حَدِيثَهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِعُمُومِيَّاتٍ تُـمَكِّنُهُمْ مِنَ الْـخُرُوجِ مِنْ تَبِعَاتِ الْـمَسْئُولِيَّةِ إِذَا حَاصَرَتْـهُمُ الْـأُمَّةُ وَوَاجَهَتْهُمْ بِـحَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ .

وَالْقَوْمُ حِينَ يَتَحَدَّثُونَ - فِي مَـجَالِ الْعَقِيدَةِ - عَنِ الْـأَنْبِيَاءِ .. لَـا يَرَوْنَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ أَيَّ تَـمَيُّزٍ ، بَلْ هُمْ عِنْدَهُمْ فِي مَرْتَبَةٍ أَدْنَـىٰ مِنَ الرَّجُلِ الْعَادِيِّ ، لَـا تُـمَكِّنُهُمْ مِنْ أَنْ يَـحْتَلُّوا فِي الْـمُجْتَمَعِ مَكَانَةً فَوْقَ مَكَانَةِ رَجُلِ الْبَرِيدِ ، يَأْتِي بِالرِّسَالَةِ وَهُوَ يَـجْهَلُ مَا فِيهَا ، فَإِذَا وَصَلَ بِالرِّسَالَةِ إِلَـىٰ أَصْحَابِهَا .. اِنْتَهَتْ مُهِمَّتُهُ .

ثُمَّ هُمْ يُضِيفُونَ فِـي تَقْيِيمِهِمْ لِلْأَنْبِيَاءِ : أَنَّ الْـأَنْبِيَاءَ كَسَائِرِ الْبَشَرِ فِي اقْـتِرَافِ

(١) فِي الْـأَصْلِ : (شَيْئًا) وَالصَّوَابُ (شَيْءٌ) بِالرَّفْعِ ، لِـأَنَّـهُ نَائِبُ فَاعِلٍ . اِهـ . نَـاصِرٌ .

الْـآثَـامِ ، وَقَدْ يَقْتَرِفُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِثْمًـا وَلَـا يَتُوبُ ، فَيَدْخُلَ النَّارَ ، وَتَدْخُلَ أُمَّتُهُ الْـجَنَّـةَ .

وَكَلَامٌ كَثِيرٌ هَـٰذَا مِثَالُهُ ، وَلَـوْلَـا أَنَّ حَاكِيَ الْكُفْرِ لَيْسَ بِكَافِرٍ .. مَا جَرُؤْنَا عَلَىٰ لَفْتِ النَّظَرِ إِلَيْهِ .

وَأَنْـتَ لَـا يَغِيبُ عَنْكَ أَنَّ هَـٰذِهِ الْـمَسَالِكَ مَبْثُوثَةٌ كُلُّهَا فِي كُتُبِ الْيَهُودِ ، لَـٰكِنْ بِقَصْدٍ مُـخْتَلِفٍ ، إِذِ الْيَهُودُ حِينَ عَبَّرُوا عَنِ الْـأَنْبِيَاءِ بِـهَـٰذِهِ الطَّرِيقَةِ .. كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يُسَهِّلُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مُقَارَفَةَ الْإِثْمِ ، وَارْتِكَابَ الْـجَرِيـمَةِ ، فَإِذَا مَا عَاتَبَهُمْ أَحَدٌ قَالُوا : إِنَّ الْـأَنْبِيَاءَ - وَهُمْ سَادَةُ الْبَشَرِ - أَكْثَرُ مِنَّا إِثْـمًـا وَجُرْأَةً عَلَىٰ الرَّذِيلَةِ . (وَحَاشَاهُمْ) .

أَمَّا هَـٰؤُلَـاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ مِيرَاثُ الْـمَـارْكِسِيَّةِ فِينَا وَأَشْبَاهُهُمْ .. فَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لَـهُمْ إِلَـٰهًا بِغَيْرِ تَكَالِيفَ ، وَلَـا سَبِيلَ إِلَـىٰ ذَٰلِكَ إِلَّـا بِتَفْرِيغِ الْـأُلُـوهِيَّةِ مِنْ مَعَانِيهَا ، وَتَوْجِيهِ الرِّسَالَةِ وَالرُّسُلِ وِجْهَةً غَيْرَ الْوِجْهَةِ الَّتِي جَاءُوا مِنْ أَجْلِهَا .

وَقَدْ حَاوَلُوا هَـٰذَا كُلَّهُ - كَمَـا رَأَيْـتَ - بِغَيْرِ جَدْوَىٰ ، لِـأَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ بِـمُفْرَدِهِ ، وَلِـأَنَّ جَـمَاعَتَهُمْ بِـجُمْلَتِهَا لَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّـهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، إِذِ اللَّـهُ مُتِمٌّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

وَفِي مَجَالِ الْـجَزَاءِ فِي الْيَوْمِ الْـآخِرِ - وَهُوَ قِسْمٌ هَامٌّ مِنْ أَقْسَامِ الْعَقِيدَةِ - حَاوَلَ الْقَوْمُ مُـحَاوَلَـاتٍ عِدَّةً مُتَنَاقِضَةً وَمُتَبَايِنَةً .. التَّهْوِينَ مِنَ الْـجَزَاءِ الْـأُخْرَوِيِّ ، أَوْ إِلْغَائِهِ بِالْـجُمْلَةِ ، أَوِ التَّشْدِيدِ فِيـهِ إِلَـىٰ حَـدِّ الْيَـأْسِ مِـنَ الرَّحْمَةِ ،

وَحَمْلِ أَفْرَادِ الْـمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْقُنُوطِ .

فَأَنْـتَ تَـرَىٰ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَقُولُ لَكَ : إِنَّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ أُمُورٌ كُلُّهَا دُنْيَوِيَّـةٌ ، وَإِنَّ الْفِرْدَوْسَ الْـمَفْقُودَ سَيَتَحَقَّقُ عَلَىٰ الْـأَرْضِ آخِرَ الزَّمَانِ ، عَلَىٰ نَـحْوِ مَا قَالَ الْيَهُودُ فِي أُكْذُوبَةِ (هِيرمَـجِدُّونَ) .

وَأَنْتَ تَـرَىٰ بَعْضَهُمْ يُـحَاوِلُ الِـاسْتِخْفَافَ بِالْـجَنَّـةِ وَالـنَّـارِ اسْتِخْفَافًا مُزْرِيًا ، عَلَىٰ نَـحْوِ مَـا تَـرَاهُ فِي مَسْرَحِيَّةِ (زِيَارَةٌ لِلْـجَنَّةِ وَالنَّارِ) .

وَأَنْـتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَـرَىٰ الْوَاحِدَ مِنْ هَـٰؤُلَـاءِ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَهْلِ الْكَبِيرَةِ ، وَعَنْ أَهْلِ الْـخَطَايَا عَلَىٰ الْعُمُومِ ، الَّذِينَ جَاءُوا رَبَّــهُمْ وَقَدْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِـحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، فَيُكَذِّبُونَ الْقُرْءَانَ فِيهِمْ وَيَقُولُونَ : إِنَّ هَـٰؤُلَـاءِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَىٰ الْـمَعْصِيَةِ ، وَأَتَوْا رَبَّــهُمْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ وَآخَرَ سَيِّءٍ عَلَىٰ غَيْرِ تَوْبَةٍ .. لَـا أَمَلَ فِي خُرُوجِهِمْ مِنَ النَّارِ ، إِنَّـمَا هُمْ سَتُسَعَّرُ بِـهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ ، لَـا يُـخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِـمُـخْرَجِينَ .

فَإِذَا قُلْتَ لِـهَـٰؤُلَـاءِ : إِنَّ رَبَّــنَا يَقُولُ عَنِ الَّذِينَ أَتَــوْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَدْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِـحًا وَآخَرَ سَيِّئًا : ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة : ١٠٢] .. ازْوَرُّوا عَنْكَ ازْوِرَارًا شَدِيدًا ، حَيْثُ وَجَدُوا فِيكَ أَنَّـكَ صَاحِبُ حُجَّةٍ وَسُلْطَانٍ ، قَدْ تَصْرِفُ النَّاسَ عَنْ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ ، لِيُحَقِّقُوا فِيهِمْ أَغْرَاضَهُمْ .

وَأَغْرَاضُ الْقَوْمِ فِي النَّاسِ : أَنْ يُوقِعُوهُمْ **أَوَّلًا** : فِي الْيَأْسِ ، وَهُوَ شُعُورٌ مُدَمِّرٌ لِلْفَرْدِ وَلِلْجَمَـاعَةِ عَلَىٰ الْعُمُومِ ، وَأَنْ يُوقِعُوهُمْ **ثَانِيًا** : فِي اللَّبْسِ ، فَتَضِيعَ الْـحَقِيقَةُ مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ ، لَـا يَهْتَدُونَ إِلَيْهَا ، وَلَـا يَبْلُغُونَ غَايَتَهُمْ مِنْهَـا .

وَهَٰذِهِ الطَّائِفَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ هَٰؤُلَاءِ .. تَرْفَعُ أَمَامَ النَّاسِ شِعَارَ الدِّينِ بِقَصْدِ تَضْلِيلِهِمْ .

فَهُمْ يَقُولُونَ لَهُمْ : إِنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ لَوْ لَمْ يُخَلَّدْ فِي النَّارِ .. لَدَخَلَ الْجَنَّةَ بَعْدَ حِينٍ ، فَيَكُونُ مِثْلُهُ - حِينَ يَدْخُلُهَا - مِثْلَ الطَّائِعِينَ الْمُخْبِتِينَ ، وَهَٰذَا مُخَالِفٌ لِلْعَدَالَةِ .

أَرَأَيْتَ إِلَىٰ الْقَوْمِ كَيْفَ يَسْلُكُونَ إِلَىٰ التَّضْلِيلِ مَسَالِكَهُ ؟! .

وَلَكَ أَنْ تَسْمَحَ لِي أَنْ أَقُولَ لَكَ : إِنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ اللَّٰهِ وَهُمْ أَصْنَافٌ :

أَوَّلُهُمْ : طَائِعٌ لَمْ يُخْطِئْ ، مَعْصُومٌ لَمْ تَزِلَّ بِهِ قَدَمُهُ ؛ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَىٰ .

وَثَانِيهِمْ : كُفَّارٌ ، لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّٰهِ ، وَلَا بِرُسُلِهِ ، وَلَا بِكُتُبِهِ ، وَلَا بِمَلَائِكَتِهِ ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا بِالْقَدَرِ ؛ وَهَٰؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .

وَثَالِثُهُمْ : أُنَاسٌ اتَّبَعُوا اللَّٰهَ عَلَىٰ مَنْهَجِهِ ، وَالْتَزَمُوا طَاعَتَهُ ، لَمْ يَرْتَكِبُوا كَبِيرَةً ، وَإِنْ كَانُوا قَدِ ارْتَكَبُوا بَعْضَ الصَّغَائِرِ ؛ وَهَٰؤُلَاءِ أُنَاسٌ قَدْ حَكَمَ الْقُرْءَانُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، وَلَوْ لَمْ يَتُوبُوا مِنْ مُقَارَفَةِ الصَّغَائِرِ ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء : ٣١] .

وَرَابِعُهُمْ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ارْتَكَبُوا الْكَبِيرَةَ وَلَمْ يَتُوبُوا عَنْهَا ،

جَاءُوا رَبَّهُمْ وَقَدْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، وَهَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ الْعَقْلُ فِيهِمْ دَائِرٌ بَيْنَ احْتِمَالَاتٍ أَرْبَعٍ ، بَعْضُهَا لَا يُنَاسِبُ صِفَاتِ اللَّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَكُلُّ مَا لَا يُنَاسِبُ صِفَاتِ اللَّٰهِ يَجِبُ تَنْحِيَتُهُ :

١- فَالْعَقْلُ يَحْتَمِلُ : أَنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ يُدْخِلُهُمُ اللَّٰهُ - عَزَّ وَجَلَّ - النَّارَ بِعَمَلِهِمُ السَّيِّءِ ، وَيُحْبِطُ عَمَلَهُمُ الصَّالِحَ ؛ وَهَٰذَا وَإِنْ كَانَ احْتِمَالًا عَقْلِيًّا يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ وُجُودُهُ .. إِلَّا أَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَىٰ الظُّلْمِ ، وَالظُّلْمُ قَدْ حَرَّمَهُ اللَّٰهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَجَعَلَهُ بَيْنَ النَّاسِ مُحَرَّمًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠] .

٢- وَالْعَقْلُ يَحْتَمِلُ : أَنَّ اللَّٰهَ يُدْخِلُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ ، يَسْتَوْفُونَ جَزَاءَهُ ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَىٰ النَّارِ تُسَعَّرُ بِهِمْ إِلَىٰ أَبَدِ الْآبَادِ ؛ وَهَٰذَا وَإِنْ كَانَ احْتِمَالًا عَقْلِيًّا .. إِلَّا أَنَّهُ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ صِفَاتِ رَبِّنَا ، إِذِ الْمَرْءُ حِينَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ .. إِنَّمَا يَدْخُلُهَا لِلنَّعِيمِ ، وَتَمَامُ النَّعِيمِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ النُّزُلِ رَاضِيًا [(١)] كُلَّ الرِّضَىٰ عَنِ النَّزِيلِ ، لَا يُهَدِّدُهُ بِاحْتِمَالِ سُخْطٍ قَادِمٍ ، وَلَوْ قَدْ فَعَلَ .. لَذَهَبَتْ مُتْعَةُ النَّعِيمِ الْحَالِي بِاسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابٍ قَادِمٍ .

٣- وَالْعَقْلُ يَحْتَمِلُ : أَنَّ اللَّٰهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَتَجَاوَزُ عَنِ الْخَطَإِ ، وَيَغْفِرُ الْعَمَلَ السَّيِّءَ ، وَيُدْخِلُ مُرْتَكِبَهُ الْجَنَّةَ ، وَيُنَعِّمُ فِيهَا بِغَيْرِ انْتِهَاءٍ ؛ وَهَٰذَا الْاحْتِمَالُ يُخَالِفُ الْعَدْلَ كَمَا يَقُولُ الْقَوْمُ ، وَلَٰكِنَّهُ يُخَالِفُ الْعَدْلَ إِلَىٰ

---

(١) فِي الْأَصْلِ : (رَاضٍ) وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ (رَاضِيًا) ، لَأَنَّهُ خَبَرُ (يَكُونُ) مَنْصُوبًا . **نَاصِرٌ** .

الْفَضْلِ ، وَمُـخَالَفَةُ الْعَدْلِ إِلَـىٰ الْفَضْلِ .. كَرَمٌ يُنَاسِبُ ذَوِي الْفَضْلِ ، وَهُوَ بِاللَّٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَلْيَقُ .

٤- **وَالْعَقْلُ يَـحْتَمِلُ** : أَنَّ يُدْخِلَ اللَّٰهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَهْلَ الْكَبَائِرِ النَّارَ بِكَبِيرَتِهِمْ حُقُبًا أَوْ أَحْقَابًا مُـحَدَّدَةً ، ثُمَّ يُـخْرِجُهُمْ مِنْهَا إِلَـىٰ الْـجَنَّةِ ، وَهَـٰذَا أَمْرٌ يُنَاسِبُ عَدْلَهُ ، وَإِنْ كَانَ لَـا يَـخْلُو مِنْ فَضْلٍ يَسْتَشْعِرُهُ الْعُصَاةُ أَنْـفُسُهُمْ .

تِلْكَ مَسْأَلَةٌ مِنَ الْـمَسَائِلِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا التَّضْلِيلُ عَنْ قَصْدٍ ، وَوَقَعَتْ فِيهَا التَّعْمِيَةُ عَلَىٰ الْـآخَرِينَ ، أَوِ التَّعْتِيمُ عَلَيْهِمْ عَنْ إِرَادَةٍ وَوَعْيٍ .

وَلَوْ قَدْ أَرَادَ اللَّٰهُ بِهَـٰؤُلَـاءِ خَيْرًا .. لَـمَا وَقَعُوا فِي قَصْدِ تَضْلِيلِ أُمَّتِهِمْ ، وَالِـاعْتِدَاءِ عَلَىٰ دِينِهِمْ .

وَهُنَاكَ قَضَايَا كَثِيرَةٌ مِنْ قَضَايَا الْعَقِيدَةِ وَالِـاجْتِمَاعِ وَقَعَ التَّضْلِيلُ فِيهَا بِـمُحَاوَلَـاتِ هَـٰؤُلَـاءِ الْقَوْمِ الْـمُتَكَرِّرَةِ مُقَابِلَ حِفْنَةِ مَالٍ تَـمْلَأُ الْـجُيُوبَ ، أَوْ قَصْعَةِ ثَرِيدٍ يَتَدَاعَوْنَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ قُطْرٍ ، أَوْ حَفْلِ لَـهْوٍ غَيْرِ بَرِيءٍ تُدَغْدَغُ فِيهِ مُثِيرَاتُ الشَّهْوَةِ وَمُسْتَنْفَرَاتُ الْغَرَائِزِ .

* * *

حَصَادُ هَـٰذِهِ الـسِّنِينَ

أَلَـمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّـهَا سَنَوَاتٌ أَضَافَهَا اللَّٰهُ إِلَـىٰ عُمْرِي بَيْنَ ظُهُورِ هَـٰذَا الْكِتَابِ فِي طَبْعَتِهِ الْـأُولَـىٰ ، وَظُهُورِهِ الْيَوْمَ فِي طَبْعَتِهِ الثَّانِيَةِ ؟! ، كَانَ لَـهَا أَثَرٌ شَدِيدٌ فِي فِكْرِ الْكَاتِبِ وَتَـجْرِبَتِهِ ، وَكَانَ مِنْ حَصَادِهَا هَـٰذَا التَّأَمُّلُ وَنَتَائِجُهُ الَّتِي وَضَعْتُهَا بَيْنَ يَدَيْكَ ، مَـخَافَةَ أَنْ لَـا أَتـمَكَّنَ فِي أَيَّامِي الْقَادِمَةِ مِـنْ وَضْعِـهَا

مُفَصَّلَةً أَمَامَ عَقْلِ أُمَّـتِي ، وَأَبْنَاءِ دِينِي .

قُلْتُ : إِنَّ فِي أَمْثَالِنَا الْقَدِيمَـةِ أَنَّـنَا نَكْتَفِي مِنَ الْقِلَادَةِ بِـمَـا أَحَاطَ بِالْعُنُقِ ، إِلَـىٰ أَنْ يَـجْعَلَ اللَّـٰهُ لِـهَـٰذِهِ التَّأَمُّلَاتِ سَبِيلًا لِـخُرُوجِهَا لِلنَّاسِ .

وَإِنَّـا عَلَىٰ اللَّـٰهِ لَـمُتَوَكِّلُونَ .

* * *

قَضِيَّةُ الْكِتَابِ

لَقَدْ كَانَ الْحَدِيثُ إِلَىٰ الْآنَ عَنْ حَصَادِ السَّنَوَاتِ الَّتِي مَرَّتْ بِي وَبِالْكِتَابِ مُنْذُ طَبْعَتِهِ الْأُولَىٰ وَإِلَىٰ أَنْ أَرَادَ اللَّٰهُ أَنْ يَخْرُجَ هَٰذَا الْكِتَابُ فِي طَبْعَتِهِ الثَّانِيَةِ .

غَيْرَ أَنَّنَا الْآنَ مُضْطَرُّونَ بِأَنْ نَطْرَحَ قَضِيَّةَ الْكِتَابِ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَسْطِ ، يُجَلِّيهَا وَيُجَلِّي أُمُورًا تَتَّصِلُ بِهَا .

وَقَضِيَّةُ هَٰذَا الْكِتَابِ هِيَ (الْجَنَّةُ وَالنَّارُ) مِنْ حَيْثُ فَنَاؤُهُمَا أَوْ بَقَاؤُهُمَا .

وَقَدْ يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ طَرْحَ هَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ فِي كِتَابٍ - عَلَىٰ هَٰذَا النَّحْوِ - طَرْحٌ هَزِيلٌ ، لِضِيقِ مَوْضُوعِهَا ، لَا يَسْتَوْجِبُ اهْتِمَامًا ، وَلَا يَلْفِتُ نَظَرًا .

وَهَٰذَا الظَّنُّ نَفْسُهُ يَحْتَاجُ أَصْحَابُهُ إِلَىٰ إِعَادَةِ نَظَرٍ فِيمَا ظَنُّوهُ أَوْ تَوَهَّمُوهُ .

وَهُمْ عِنْدِي مَعْذُورُونَ فِيمَا ظَنُّوهُ أَوْ تَوَهَّمُوهُ ، لِأَنَّ بَصَرَهُمْ لَمْ يَمْتَدَّ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنْ حَقَائِقَ عَقَدِيَّةٍ ، وَآثَارٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَرَتَّبَتْ - أَوْ تَتَرَتَّبُ - عَلَىٰ هَٰذِهِ الْحَقَائِقِ الْعَقَدِيَّةِ سَلْبًا وَإِيجَابًا .

إِنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فِي الْآخِرَةِ لَيُعَبِّرَانِ مَعًا عَنْ فِكْرَةِ الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ بِجَنَاحَيْهَا : الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ .

إِذِ الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ هِيَ دَارُ الثَّوَابِ لِلْمُتَّقِينَ ، وَالنَّارُ الْأُخْرَوِيَّةُ هِيَ دَارُ الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ لِكُلِّ كَافِرٍ أَوْ مُفْتَرٍ أَثِيمٍ .

وَمَسْأَلَةُ الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ ثَوَابًا لِمَنْ أَطَاعَ ، وَعِقَابًا لِمَنْ عَصَىٰ .. لَمْ

تَحْتَلَّ مَكَانَتَهَا فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّرَفِ ، أَوْ بِدَافِعِ السِّيَاحَةِ الذِّهْنِيَّةِ ، وَإِنَّمَا تُطْرَحُ فِكْرَةُ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ وَهِيَ مُرْتَبِطَةٌ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ الْفَرْدِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الدُّنْيَا .

وَيَتَّضِحُ هَٰذَا أَمَامَنَا مِنْ تَصَوُّرِنَا وَتَأَمُّلِنَا فِي حَقِيقَةِ النُّظُمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَمُقَوِّمَاتِ تِلْكَ النُّظُمِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا ، وَلَا تَنْفَكُّ عَنْهَا .

وَإِنَّ مَنْ يَتَأَمَّلِ النُّظُمَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ وَالْأَخْلَاقِيَّةَ جَمِيعًا .. يَجِدْ أَنَّهَا لَا تَقُومُ إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَ لَهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ :

١- الْإِلْزَامُ .

٢- وَالْمَسْئُولِيَّةُ .

٣- وَالْجَزَاءُ .

وَالْإِلْزَامُ فِي تِلْكَ النُّظُمِ يُرَادِفُ التَّشْرِيعَ .

وَإِذَا كُنَّا نَقُولُ : إِنَّ الْإِلْزَامَ يَسْتَلْزِمُ الْمُلْزِمَ .. فَإِنَّ ذَٰلِكَ لَيْسَ لَهُ مِنْ مَعْنًىٰ سِوَىٰ قَوْلِنَا : إِنَّ التَّشْرِيعَ يَسْتَلْزِمُ مُشَرِّعًا .

وَأَنَا - وَأَنْتَ مَعِي - لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَصَوَّرَ نِظَامًا بِغَيْرِ إِلْزَامٍ وَمُلْزِمٍ ، أَوْ بِغَيْرِ تَشْرِيعٍ وَمُشَرِّعٍ ؛ إِذْ إِنَّهُ بِغِيَابِ الْإِلْزَامِ وَالْمُلْزِمِ .. يَغِيبُ النِّظَامُ نَفْسُهُ ، حَيْثُ إِنَّ كَلِمَةَ (الْإِلْزَامِ) تَتَضَمَّنُ - وَلَا شَكَّ - مَجْمُوعَةَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَتَوَجَّهُ بِهَا الْمُلْزِمُ إِلَىٰ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ ، فَيَحْمِلَهُمْ عَلَىٰ اتِّبَاعِهَا حَمْلًا .

وَلَيْسَ هَٰذَا هُوَ الرُّكْنَ الْوَحِيدَ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ النُّظُمُ الْأَخْلَاقِيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَإِنَّمَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ الْمَسْئُولُ وَالْمَسْئُولِيَّةُ .

وَشَرْطُ الْمَسْئُولِ : أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِ مُقَوِّمَاتُ تَحَمُّلِ الْمَسْئُولِيَّةِ ، مِنْ نَحْوِ الْبُلُوغِ ، وَالْعَقْلِ ، وَالْإِقْرَارِ بِتَحَمُّلِهِ تَبِعَةَ هَٰذَا النِّظَامِ أَوْ ذَاكَ .

وَأَنَا وَأَنْتَ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَصَوَّرَ نِظَامًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ الْأَفْرَادُ وَالْجَمَاعَاتُ الَّذِينَ أَخَذُوا عَلَىٰ عَاتِقِهِمْ تَحَمُّلَ تَبِعَاتِ هَٰذَا النِّظَامِ ، مَعَ إِعْلَانِهِمْ أَنَّهُمْ غَيْرُ مَسْئُولِينَ عَنْ مُخَالَفَتِهِ .

وَهُنَاكَ رُكْنٌ ثَالِثٌ يُعَدُّ مِنْ مُقَوِّمَاتِ كُلِّ نِظَامٍ ، بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ إِلَّا إِذَا تَخَلَّىٰ النِّظَامُ عَنْ هَوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ ، وَهَٰذَا الرُّكْنُ الثَّالِثُ هُوَ : الْجَزَاءُ .

وَفِكْرَةُ الْجَزَاءِ تَخْتَلِفُ مِنْ نِظَامٍ إِلَىٰ نِظَامٍ ، فَبَعْضُهَا يَتَهَاوَنُ فِي مَسْأَلَةِ الْجَزَاءِ إِلَىٰ حَدِّ إِغْفَالِهَا تَمَامًا ، وَبَعْضُهَا يُقِرُّ فِكْرَةَ الْجَزَاءِ ، وَلَٰكِنَّهُ يُوَحِّدُ بَيْنَ الْمُؤْلِمِ وَالْمُتَأَلِّمِ ، لِأَنَّهُ يَعْهَدُ بِهَا إِلَىٰ الْأَفْرَادِ وَضَمَائِرِهِمْ ، بِحَيْثُ إِذَا خَالَفَ الْإِنْسَانُ الْمُنْتَمِي إِلَىٰ هَٰذِهِ النُّظُمِ مَبْدَأً مِنْ مَبَادِئِهَا ، أَوْ قَاعِدَةً مِنْ قَوَاعِدِهَا .. يُتْرَكُ لِضَمِيرِهِ الدَّاخِلِيِّ يُحَدِّدُ حَجْمَ الْمُخَالَفَةِ وَالْعُقُوبَةَ الْمُنَاسِبَةَ يُوقِعُهَا بِالْمُخَالِفِ ، أَوْ يَزْوَرُّ عَنِ الْمُخَالَفَةِ وَيَنْصَرِفُ عَنْهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَقَعْ .

وَلِكُلِّ نِظَامٍ – عَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ – طَرَائِقُهُ الَّتِي تَسْتَوْفِي أَرْكَانَ النِّظَامِ عَلَىٰ مَا يُوَافِقُ أَذْوَاقَهَا .

أَمَّا الْإِسْلَامُ .. فَقَدِ اسْتَوْفَىٰ جَمِيعَ هَٰذِهِ الْعَنَاصِرِ ، وَوَازَنَ بَيْنَهَا مُوَازَنَةً دَقِيقَةً ، وَجَعَلَ مِنْ فِكْرَةِ الْجَزَاءِ وَتَحَقُّقِهَا حِمَايَةً لِلنِّظَامِ بِتَمَامِهِ ؛ فَأَنْتَ تَرَاهُ قَدْ قَسَّمَ الْجَزَاءَ **أَوَّلًا** إِلَىٰ قِسْمَيْنِ : ١- **دُنْيَوِيٌّ** ٢- **وَأُخْرَوِيٌّ** .

ثُمَّ هُوَ قَدْ قَسَّمَهُ **ثَانِيًا** - بِاعْتِبَارٍ آخَرَ - إِلَىٰ : **١- تَشْرِيعِيٍّ ٢- وَقَدَرِيٍّ** .

وَلِكُلٍّ مِنْ هَٰذِهِ التَّقْسِيمَاتِ إِيحَاءَاتُهَا فِي نُفُوسِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَآثَارُهَا عَلَىٰ السُّلُوكِ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ .

وَبَيَانُ ذَٰلِكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْبَسْطِ : أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ لَهُ شَرِيعَتُهُ وَعَقِيدَتُهُ ، وَقَدْ أَرَادَ الْإِسْلَامُ مِنْ أَتْبَاعِهِ أَنْ يَلْتَزِمُوا بِهَٰذَا الدِّينِ عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً .

وَمِنْ تَشْرِيعَاتِ هَٰذَا الدِّينِ .. هَٰذَا الْجُزْءُ الَّذِي عَهِدَ اللَّهُ بِهِ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ لِحِفْظِ النِّظَامِ مِنْ عَبَثِ الْعَابِثِينَ ، وَعَرْبَدَةِ الْمَارِقِينَ .

وَالْفُقَهَاءُ يُعَرِّفُونَ هَٰذَا الْجُزْءَ بِاسْمِ (الْعُقُوبَاتِ) ، وَهِيَ مُتَنَوِّعَةٌ ، يُنَاسِبُ كُلٌّ مِنْهَا نَوْعَ الْمُخَالَفَةِ الْمَنُوطَةِ بِهِ .

وَلَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ حَقُّ إِيقَاعِ الْعُقُوبَةِ عَلَىٰ الْمُخَالِفِينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ جُزْءٌ مِنْ عَمَلِ الْقَاضِي الَّذِي يَنْضَمُّ إِلَىٰ وَظِيفَتِهِ الْكُبْرَىٰ ، وَهِيَ رَدُّ الْحُقُوقِ إِلَىٰ أَصْحَابِهَا ، وَتَحْقِيقُ الْعَدَالَةِ وَالْأَمْنِ دَاخِلَ الْجَمَاعَةِ .

وَالْمُشَرِّعُ الْإِسْلَامِيُّ لَمْ يَفُتْهُ الِالْتِفَاتُ إِلَىٰ مَا عَلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ بَرَاعَةِ الْأُسْلُوبِ ، وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الِاحْتِيَالِ ، بِحَيْثُ يَرْتَكِبُونَ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ أُمُورًا تَخْتَلِفُ فِيمَا بَيْنَهَا مِنْ حَيْثُ خُطُورَتُهَا وَآثَارُهَا ، ثُمَّ يَتَمَكَّنُونَ بِمَا لَهُمْ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالْمَقْدِرَةِ عَلَىٰ الِاحْتِيَالِ أَنْ يُفْلِتُوا مِنَ الْعَدَالَةِ ؛ فَبَيَّنَ الْمُشَرِّعُ أَنَّ اللَّهَ الْخَالِقَ لَنْ يَتْرُكَ هَٰذَا الْأَمْرَ يَمُرُّ هَٰكَذَا بِغَيْرِ عُقُوبَةٍ ، وَهُوَ قَدْ يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَيَتَوَلَّاهَا هُوَ مُبَاشَرَةً ، وَيُوقِعُهَا بِالْمُقَصِّرِينَ ، أَفْرَادًا كَانُوا

أَوْ جَمَاعَاتٍ ، وَقَدْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ يُؤَخِّرَهَا إِلَىٰ الْآخِرَةِ فِي دَارِ الْجَزَاءِ الَّتِي لَا تَضِيعُ فِيهَا الْحُقُوقُ ، وَلَا تَغِيبُ فِيهَا الْعَدَالَةُ .

وَهَٰذَا يَنْقُلُنَا مُبَاشَرَةً إِلَىٰ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ الْجَزَاءِ ، وَهُوَ :

٢- الْجَزَاءُ الْأُخْرَوِيُّ .

وَالْجَزَاءُ الْأُخْرَوِيُّ مِنْ مُمَيِّزَاتِ هَٰذَا الدِّينِ وَجَمِيعِ الْأَدْيَانِ الَّتِي صَحَّتْ نِسْبَتُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ .

وَالْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ لَا يَعْنِي مُعَاقَبَةَ الْعُصَاةِ فَحَسْبُ ، وَلَٰكِنَّهُ - قَبْلَ ذَٰلِكَ - يَهْتَمُّ بِإِثَابَةِ الطَّائِعِينَ .

وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ فِي الْآخِرَةِ يَتَحَقَّقَانِ مِنْ خِلَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ .

وَمَسْأَلَةُ الْآخِرَةِ هَٰذِهِ مَسْأَلَةٌ نِسْبِيَّةٌ ، إِذْ هِيَ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَرْدِ تَبْدَأُ مِنْ يَوْمِ مَوْتِهِ وَمُفَارَقَتِهِ لِلدُّنْيَا ، وَلَيْسَ الْمَوْتُ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَفْرَادِ إِلَّا هَٰذِهِ الْبَوَّابَةَ الْحَقِيقِيَّةَ ، وَالْعَتَبَاتِ الْوَاقِعِيَّةَ لِلْآخِرَةِ ؛ وَعَلَيْهِ .. فَإِنَّ مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَفْرَادِ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ .

أَمَّا الْآخِرَةُ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ ، وَانْتِقَالِهِ مِنَ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ إِلَىٰ الْكَوْنِ الدَّائِمِ ، وَتَغَيُّرِ نَوْعِ الْحَيَاةِ فِيهِ ، وَانْضِبَاطِ مَعَايِيرِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ .. فَإِنَّ ذَٰلِكَ سَيَكُونُ فِي وَقْتٍ أَخْفَاهُ اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ ، وَإِنَّ النَّاسَ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَيَرَاهُ اللَّهُ قَرِيبًا .

وَالْجَزَاءُ الْأُخْرَوِيُّ بِجَنَاحَيْهِ - عَلَىٰ هَٰذَا النَّحْوِ - يَضْبِطُ النِّظَامَ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْمَعْمُورَةِ فِي الدّنْيَا ، كَمَا أَنَّهُ يَضْبِطُ مَشَاعِرَ الْإِنْسَانِ ، فَرْدًا كَانَ أَوْ

جَمَاعَةً ؛ فَالْعِقَابُ الْأُخْرَوِيُّ لَيْسَ لَهُ مِنْ أَثَرٍ إِلَّا فِطَامَ النَّفْسِ ، وَالْأَخْذَ بِحُجَزِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ عَنْ أَنْ تَقْتَرِفَ الرَّذِيلَةَ ، أَوْ تُجَانِفَ الْإِثْمَ عَلَىٰ أَيِّ مُسْتَوًىٰ كَانَ مِنَ الْمُسْتَوَيَاتِ .

وَالْعُقُوبَةُ وَالْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا هَـٰذَا الْأَثَرُ ، بِمَا يُحْدِثَانِهِ مِنْ خَوْفٍ يَسْتَقِرُّ فِي نُفُوسِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ ، حِينَ يُؤْمِنُ الْأَفْرَادُ ، وَتُؤْمِنُ الْجَمَاعَاتُ بِصِدْقِ الْقَائِلِ .

وَأَنْتَ خَبِيرٌ – وَلَا شَكَّ – أَنَّ اسْتِشْعَارَ الْخَوْفِ ، وَاسْتِقْرَارَ هَـٰذَا الشُّعُورِ فِي النُّفُوسِ .. رُبَّمَا يُورِثُ الْيَأْسَ وَالْقُنُوطَ ، وَ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ صِفَاتٌ يَمْقُتُهَا الشَّرْعُ ، وَلَا يُحِبُّهَا اللَّهُ فِي عِبَادِهِ ، لِأَنَّهُ ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف : ٨٧] .

وَلَمَّا كَانَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ يَعْلَمُ مِنْ فَسَادِ النَّفْسِ – الَّتِي يَتَسَلَّلُ إِلَيْهَا الْيَأْسُ – أُمُورًا لَا تَلِيقُ بِعَبْدٍ يَنْتَسِبُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ ..

وَلَمَّا كَانَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ يَعْلَمُ أَنَّ شُعُورَ الْيَأْسِ لَنْ يَكُونَ إِلَّا ابْنًا يَتَسَلَّلُ إِلَىٰ النُّفُوسِ مِنَ الْخَوْفِ ..

وَلَمَّا كَانَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ يَعْلَمُ أَنَّ الشُّعُورَ بِالْخَوْفِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِفِطَامِ النَّفْسِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ..

لَمَّا كَانَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ يَعْلَمُ هَـٰذَا كُلَّهُ .. وَضَعَ لِشُعُورِ الْخَوْفِ مَا يُعَادِلُهُ ، بِحَيْثُ يَبْقَىٰ عَلَىٰ مَا لَهُ مِنْ مَنْفَعَةٍ ، وَيَذْهَبُ بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ مَضَارٍّ .

وَلَا تَحْدُثُ هَٰذِهِ الْمُعَادَلَةُ إِلَّا إِذَا وُضِعَ إِلَىٰ جُوَارِ الشُّعُورِ بِالْخَوْفِ مِنَ اللَّٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .. الشُّعُورُ بِالرَّجَاءِ فِي اللَّٰهِ سُبْحَانَهُ .

وَبِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ جَمِيعًا .. يَعْتَدِلُ سُلُوكُ الْإِنْسَانِ ، فَالْخَوْفُ يَفْطِمُهُ عَنِ الْمُخَالَفَاتِ ، وَالرَّجَاءُ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ عَمَلِ الصَّالِحَاتِ .

وَهَٰكَذَا تَجِدُ الْفَرْدَ ، وَتَجِدُ الْجَمَاعَةَ فِي الْإِسْلَامِ - الَّتِي رُبِّيَتْ عَلَىٰ هَٰذَا الدِّينِ - تَتَأَمَّلُ وَعْدَ اللَّٰهِ بِالْجَنَّةِ وَالرِّضَىٰ ، فَتُقْبِلَ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ بِشَوْقٍ وَرِضًىٰ ، وَتَتَأَمَّلَ وَعِيدَ اللَّٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالنَّارِ ، فَتَمْتَنِعَ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُوبِقَاتِ .

وَمَوْضُوعُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَاحِدٌ فِي الْإِسلَامِ : هُوَ اللَّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ ، نَرْجُو رَحْمَتَهُ ، وَنَخَافُ عَذَابَهُ .

وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَقُولَ النَّبِيُّ لَنَا بِتَوْجِيهٍ مِنْ رَبِّهِ فِي الْقُرْءَانِ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾ [الذاريات: ٥٠ - ٥١] .

أَرَأَيْتَ إِلَىٰ هَذَا النَّسَقِ التَّرْبَوِيِّ فِي الْإِسْلَامِ كَيْفَ يَضُمُّ فِكْرَةَ الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ دَاخِلَ إِطَارِهِ الْعَامِّ ؟ .

وَهَٰذَا النَّسَقُ - فِي حَدِّ ذَاتِهِ - وَاحِدٌ مِنْ أَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ الَّتِي تَبْعَثُ فِي نَفْسِ كُلِّ مُؤْمِنٍ الزَّهْوَ بِالنِّظَامِ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ ، مَا دَامَ مُؤْمِنًا عَاقِلًا ، مُنَزَّهًا عَنْ صَغَائِرِ الْأُمُورِ وَسَفْسَافِهَا .

وَمَعَ أَنَّ فِكْرَةَ الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ حِينَ تَدْخُلُ فِي النَّسَقِ التَّرْبَوِيِّ .. تُضْفِي

عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْقِيمَةِ ، بِسَبَبِ مَا أَدْخَلَتْهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكَمَالِ ، فَإِنَّنَا نَرَىٰ بَعْضَ أُنَاسٍ مِنْ بَنِي جِلْدَتِنَا قَدْ وَجَّهُوا سِهَامَهُمْ لِـهَـٰذَا النَّسَقِ يُـحَاوِلُونَ انْتِقَاصَهُ بِسَبَبِ احْتِوَائِهِ عَلَىٰ فِكْرَةِ الْـجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ .

وَكَانَ جُلُّ مَا قَالَهُ النَّاقِدُ : إِنَّ إِدْخَالَ فِكْرَةِ الْـجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ – ثَوَابًا وَعِقَابًا – سَتَدْفَعُ بِالْأَفْرَادِ وَالْـجَمَاعَاتِ حَتْمًا إِلَىٰ فِعْلِ الْـحَسَنَاتِ رَغْبَةً فِي النَّعِيمِ ، وَتَـحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ارْتِكَابِ الْـمُوبِقَاتِ خَوْفًا مِنَ الْـجَحِيمِ .

ثُمَّ يُضِيفُ صَاحِبُنَا مُسْتَنْتِجًا : وَمَعْنَىٰ ذَٰلِكَ : أَنَّ كِفَّةَ الْـحَسَنَاتِ سَتَرْجَحُ فِي الْعَالَـمِ عَلَىٰ كِفَّةِ السَّيِّئَاتِ ، مِـمَّـا يُـحْدِثُ خَلَلًا فِي مِيزَانِ الْأَخْلَاقِ ، وَفِي هَـٰذَا اعْتِدَاءٌ عَلَىٰ السِّيَاسَةِ وَالسَّاسَةِ ، وَضَبْطُ الْـمُـجْتَمَعِ مِنْ خِلَالِ سُلْطَةٍ عُلْيَا هِيَ فَوْقَ السِّيَاسَةِ وَفَوْقَ السَّاسَةِ ! .

وَإِنِّـي لَأَصْدُقُكَ الْقَوْلَ : إِنِّي حِينَ قَرَأْتُ هَـٰذَا الْكَلَامَ .. اِتَّـهَمْتُ نَفْسِي لِأَوَّلِ الْأَمْرِ بِنَقْصِ الِاسْتِيعَابِ ، فَلَـمَّا أَدْرَكْتُ أَنَّـنِي قَدِ اسْتَوْعَبْتُ .. اِتَّـهَمْتُ صَاحِبَ هَـٰذَا الْكَلَامِ بِأَنَّـهُ يَقْصِدُ إِلَىٰ خَلْطِ الْـجِدِّ بِالْـهَزْلِ ، فِي مَوْقِفٍ لَا يَـحْتَمِلُ فِيهِ الْـحَدِيثُ أَنْ نَخْلِطَ الْـجِدَّ بِالْـهَزْلِ .

وَإِنِّـي لَأَعْتَرِفُ أَنِّـي كُنْتُ قَدْ أُنْسِيتُ مَا ذَكَرْتُهُ قَرِيبًا مِنْ أَنَّ النَّاسَ فِيهِمُ النَّهَّازُونَ بِالْأَجْرِ ، وَالنَّهَّازُونَ بِالطَّبْعِ ، الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الشُّهْرَةَ وَالْـمَنْفَعَةَ ، وَلَوْ عَلَىٰ حِسَابِ الْبَوْلِ فِي زَمْزَمَ أَمَامَ النَّاظِرِينَ مِنَ الْـحَجِيجِ فِي أَكْبَرِ التَّجَمُّعَاتِ شَأْنًا عِنْدَ الْـمُسْلِمِينَ .

هَدَأَتْ نَفْسِي ، وَأَرْجُو أَنْ تَهْدَأَ مَعِي صَاحِبِي لِأَقُولَ لَكَ : إِنَّ إِدْخَالَ فِكْرَةِ

الْـجَزَاءِ الْـأُخْرَوِيِّ دَاخِلَ النَّسَقِ التَّرْبَوِيِّ .. هُوَ مِعْيَارٌ مِنْ مَعَايِيرِ الشَّعْرَةِ الدَّقِيقَةِ ، الَّتِي تُقَاسُ إِلَيْهَا النُّظُمُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ وَالْـأَخْلَاقِيَّةُ ، الَّتِي تَتَّخِذُ مِنَ الدِّينِ مَرْجِعًا ، أَوْ مِنَ الْفَلْسَفَةِ إِطَارًا عَلَىٰ السَّوَاءِ .

وَإِنِّي لَـأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ ظَهَرَ أَمَامَنَا مَسْأَلَتَا الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ ، بِاعْتِبَارِهِمَا رَمْزَيْنِ ، بَلْ دَارَيْنِ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي الْـآخِرَةِ .

أَمَّا مَسَأَلَةُ بَقَائِهِمَا أَوْفَنَائِهِمَا : فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ بِوُضُوحٍ أَنَّ مَسْأَلَةَ بَقَاءِ الْـجَنَّةِ - الَّتِي هِيَ دَارُ النَّعِيمِ - يُؤَيِّدُهَا **الْعَقْلُ** وَالنَّقْلُ وَإِجْمَاعُ الْـأُمَّـةِ فِيمَا عَدَا جَهْمَ بْنَ صَفْوَانَ وَأَتْبَاعَهُ الَّذِينَ شَذُّوا بِرَأْيِهِمْ ، مُحْتَجِّينَ بِدَلِيلٍ أَوْهَىٰ مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ، **خُلَاصَتُهُ :** أَنَّ الْبَقَاءَ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلَّٰهِ وَحْدَهُ ، وَكُلُّ مَا عَدَاهُ فَانٍ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَدْنَىٰ اعْتِبَارٍ لِلْفَرْقِ بَيْنَ بَقَاءِ اللَّٰهِ وَبَقَاءِ غَيْرِهِ ، حَيْثُ إِنَّ بَقَاءَ اللَّٰهِ مِنْ ذَاتِهِ ، وَبَقَاءَ غَيْرِهِ بِإِبْقَاءِ اللَّٰهِ لَهُ ؛ وَهُوَ فَرْقٌ لَا يَجُوزُ إِغْفَالُهُ .

وَجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ وَرِفَاقُهُ حِينَ اسْتَنَدُوا إِلَىٰ هَٰذَا الدَّلِيلِ ، أَوْ هَٰذِهِ الشُّبْهَةِ - غَافِلِينَ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ بَقَاءِ اللَّٰهِ ، وَبَقَاءِ مَا أَرَادَهُ مِنَ الْـمَخْلُوقَاتِ - قَدْ خَالَفُوا النُّصُوصَ الْقُرْءَانِيَّةَ الَّتِي هِيَ قَطْعِيَّةُ الدَّلَالَةِ ، وَقَطْعِيَّةُ الثُّبُوتِ ، وَمُخَالَفَتُهَا كُفْرٌ صُرَاحٌ .

أَمَّا بَقَاءُ النَّارِ أَوْ فَنَاؤُهَا : فَهَٰذَا هُوَ مَوْضِعُ الْـخِلَافِ بَيْنَ الْـمُسْلِمِينَ ، وَالَّذِي نَعْتَزِمُ أَنْ نَتَنَاوَلَهُ بِالْبَحْثِ فِي الْفَقْرَةِ التَّالِيَةِ :

آرَاءُ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ فِي بَقَاءِ النَّارِ وَفَنَائِهَا

وَمَا دَامَتِ الْمَسْأَلَةُ قَدْ تَحَدَّدَتْ وَانْحَصَرَتْ فِي النَّارِ بَيْنَ بَقَائِهَا وَفَنَائِهَا .. فَقَدْ أَصْبَحَتْ مُيَسَّرَةً قَرِيبَةَ التَّنَاوُلِ .

وَالْعُلَمَاءُ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ يُحَاوِلُونَ الْإِجَابَةَ بِحَسْمٍ عَنْ هَٰذَا السُّؤَالِ الْمُحَدَّدِ : **هَلِ النَّارُ الَّتِي هِيَ دَارُ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ .. سَتَبْقَىٰ بَقَاءً أَبَدِيًّا ، وَأَهْلُهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ ، أَمْ أَنَّ هَٰذَا الْعَذَابَ سَيَنْقَطِعُ فِي وَقْتٍ مَا بِفَنَاءِ النَّارِ ، أَوْ بِتَحَوُّلِ طَبِيعَةِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَىٰ طَبِيعَةٍ نَارِيَّةٍ تَتَوَافَقُ أَمْزِجَتُهُمْ مَعَ طَبِيعَةِ النَّارِ وَمَزَاجِهَا فَلَا يَأْلَمُونَ ، أَوْ بِزَوَالِ الْإِحْسَاسِ عَنْهُمْ فِيمَا بَعْدَ نُضُوجِ جُلُودِهِمْ ، أَوْ بِطَرِيقَةٍ مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي تُنْهِي الْعَذَابَ ، فَلَا يَصِيرُ مُؤَبَّدًا ؟** .

وَهَٰذِهِ الْمَسْأَلَةُ الْمَطْرُوحَةُ فِي هَٰذَا السُّؤَالِ بِهَٰذَا التَّحْدِيدِ .. قَدْ حَمَلَتِ الطَّوَائِفَ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ إِجَابَاتُهُمْ صَارِمَةً ، لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ .

وَابْنُ الْقَيِّمِ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ - وَأَهَمُّهَا (حَادِي الْأَرْوَاحِ إِلَىٰ بِلَادِ الْأَفْرَاحِ) - قَدِ اسْتَعْرَضَ الْآرَاءَ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَاخْتَارَ مِنْهَا مَا اخْتَارَهُ ، وَنَاقَشَ مَا نَاقَشَهُ ، وَأَعْرَضَ عَمَّا أَعْرَضَ عَنْهُ .

غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ ابْنِ الْقَيِّمِ قَدْ رَأَيْنَا لِبَعْضِهِمُ اسْتِعْرَاضًا لِلْآرَاءِ أَكْثَرَ سَعَةً ، وَرَأَيْنَاهُمْ فِي اخْتِيَارَاتِهِمْ قَدْ مَالُوا إِلَىٰ أَرْجَحِ الْآرَاءِ الَّتِي انْتَشَرَتْ فِي الْأُمَّةِ ، وَاعْتَمَدَهَا جُمْهُورُهَا ، مِنْ غَيْرِ

تَجْرِيحٍ لِأَحَدٍ ، وَمِنْ غَيْرِ غَمْزٍ أَوْ لَمْزٍ لِفِكْرَةٍ مِنَ الْأَفْكَارِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ ظَاهِرَةَ الْبُطْلَانِ .

وَأَنْتَ تَرَىٰ فِي صَاحِبِ كِتَابِ (جَلَاءُ الْعَيْنَيْنِ فِي مُحَاكَمَةِ الْأَحْمَدَيْنِ) السَّيِّدِ نُعْمَانَ خَيْرِ الدِّينِ ، الشَّهِيرِ بِـ (ابْنِ الْآلُوسِيِّ الْبَغْدَادِيِّ) خَيْرَ مِثَالٍ يُلَخِّصُ الْمَسْأَلَةَ ، وَيَسْتَعْرِضُ الْآرَاءَ الْوَارِدَةَ فِيهَا ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ ، وَيُحَاوِلُ رَدَّ الْآرَاءِ الضَّالَّةِ إِذَا مَا نُسِبَتْ زُورًا لِبَعْضِ الْمَشَاهِيرِ .

وَنَحْنُ لَا نَشْغَلُ قَارِئَنَا بِجَمِيعِ هَـٰذِهِ الْآرَاءِ ، لِمَا فِي بَعْضِهَا مِنْ ضَلَالٍ وَشَطَطٍ ، وَلِمَا فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ مِنْ مُجَافَاةٍ لِلنُّصُوصِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ .

وَلَقَدْ أَجْمَعَ الصَّادِقُونَ مِنَ الْبَاحِثِينَ عَلَىٰ أَنَّ الْآرَاءَ الَّتِي يُمْكِنُ الْحَدِيثُ حَوْلَهَا .. تَنْحَصِرُ فِي رَأْيَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا ، هُمَا :

١- الرَّأْيُ الْقَائِلُ بِأَنَّ النَارَ سَتَبْقَىٰ أَبَدًا ، وَيَبْقَىٰ عَذَابُهَا .

وَهَـٰذَا رَأْيُ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ الَّذِي يُقَابِلُ الرَّأْيَ الْآخَرَ الْقَائِلَ بِـ :

٢- أَنَّهَا سَتَفْنَىٰ مَهْمَا طَالَ أَمَدُهَا .

وَالشَّيْخُ (السُّبْكِيُّ) صَاحِبُ هَـٰذَا الْكِتَابِ الَّذِي نُقَدِّمُ لَهُ .. مَعْنِيٌّ بِهَـٰذَيْنِ الرَّأْيَيْنِ ، وَهُمَا اللَّذَانِ سَيَخْتَارُ مِنْ بَيْنِهِمَا رَأْيَهُ الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ ، وَيَعْرِضُ الشَّوَاهِدَ لَهُ ، وَالْأَدِلَّةَ الَّتِي سَتُؤَيِّدُهُ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا سَتَجِدُهُ أَثْنَاءَ مُطَالَعَتِكَ هَـٰذَا الْكِتَابَ ، فَلَا نُطِيلُ بِعَرْضِهِ هُنَا .

* * *

رَأْيُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِي الْمَسْأَلَةِ

وَحِينَ ظَهَرَ هَٰذَا الْكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَىٰ .. كُنْتُ – وَأَنَا أُحَقِّقُهُ وَأُقَدِّمُ لَهُ – أَشْعُرُ بِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي يَطْرَحُهَا الْكِتَابُ .. لَمْ تَكُنْ تَشْغَلُ مِسَاحَةً مُهِمَّةً فِي فِكْرِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ (أَحْمَدَ بْنِ تَيْمِيَّةَ) .

وَأَيَّدَ هَٰذَا الْانْطِبَاعَ عِنْدِي يَوْمَهَا .. أَنَّنِي قَدْ بَذَلْتُ مَا بَذَلْتُ مِنْ جُهْدِ طَاقَتِي فِي الْبَحْثِ عَنْ كَلَامٍ دَاخِلَ أَثَرٍ مُوَثَّقٍ صَحِيحِ النِّسْبَةِ إِلَىٰ شَيْخِ الْإِسْلَامِ يَذْكُرُ مَا ارْتَآهُ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ .. فَلَمْ أَجِدْ مِنْ ذَٰلِكَ شَيْئًا .

وَلَٰكِنِّي – مَعَ ذَٰلِكَ – قَدْ رَأَيْتُ أُمُورًا قَدْ حَمَلَتْنِي عَلَىٰ أَنْ أَظُنَّ أَنَّ الشَّيْخَ قَائِلٌ بِفَنَاءِ النَّارِ :

مِنْهَا : حَمَاسُ تِلْمِيذِهِ ابْنِ الْقَيِّمِ الشَّدِيدُ لِهَٰذَا الرَّأْيِ وَنِسْبَتُهُ لِشَيْخِهِ .

وَمِنْهَا : أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ قَدْ نَسَبُوا هَٰذَا الرَّأْيَ لِـ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) وَنَاقَشُوهُ فِيهِ ، كُلٌّ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ ، وَبَعْضُهُمْ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لِعِلْمِهِ .

وَمِنْهَا : أَنَّ الشَّيْخَ (الْأَلْبَانِيَّ نَاصِرَ الدِّينِ) مَعَ تَحَمُّسِهِ لِآرَاءِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ .. قَدْ خَالَفَهُ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَجَزَمَ بِأَنَّ رَأْيَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ كَرَأْيِ ابْنِ الْقَيِّمِ تِلْمِيذِهِ ، لَا يَخْتَلِفَانِ ؛ وَالَّذِي قَوَّىٰ هَٰذَا الِاعْتِقَادَ عِنْدَ الشَّيْخِ نَاصِرِ الدِّينِ .. مَا وَقَعَ عَلَيْهِ مِنْ وُرَيْقَاتٍ أَثْبَتْنَاهَا آخِرَ هَٰذِهِ النَّشْرَةِ ، رَأَىٰ أَنَّهَا تُؤَيِّدُ مُعْتَقَدَهُ .

وَمِنْهَا : أَنَّ الشَّيْخَ (السُّبْكِيَّ) كَانَ مُعَاصِرًا لِـ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) ، وَيَعْرِفُ

آرَاءَهُ الَّتِي يَنْشُرُهَا عَنْ قُرْبٍ ، وَقَدِ انْتَقَدَ بَعْضَهَا فِي حِينِهَا ، وَمِنْهَا رَأْيَهُ فَي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

وَلِهَٰذِهِ الْاعْتِبَارَاتِ جَمِيعًا .. جَاءَتْ عِبَارَاتِي فِي مُقَدِّمَةِ النَّشْرَةِ الْأُولَىٰ لِهَٰذَا الْكِتَابِ تَنْسُبُ الْقَوْلَ بِـ (فَنَاءِ النَّارِ) لِـ (ابْنِ الْقَيِّمِ) وَ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) جَمِيعًا .

وَأَعْتَرِفُ يَوْمَهَا أَنِّي كُنْتُ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْقَلْقَلِ[1] الْعِلْمِيِّ ، حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَحْتَ يَدَيَّ نَصٌّ صَرِيحٌ يُصَوِّرُ رَأْيَ الشَّيْخِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَمْ أَكُنْ قَدْ وَقَعْتُ عَلَيْهِ بَعْدُ .

وَتَوَالَتْ بَعْضُ السَّنَوَاتِ ، ثُمَّ ظَهَرَتْ نَشْرَةٌ تَتَضَمَّنُ هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةَ مُحَقَّقَةً وَمُعَلَّقًا عَلَيْهَا مَنْسُوبَةً لِـ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) .

وَلَٰكِنَّنِي قَدْ لَاحَظْتُ عَلَىٰ هَٰذِهِ النَّشْرَةِ وَمُحَقِّقِهَا عِدَّةَ مُلَاحَظَاتٍ :

مِنْهَا : أَنَّ مُحَقِّقَ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ - أَوْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ - أَشَارَ إِلَىٰ كِتَابِ الشَّيْخِ (السُّبْكِيِّ) - الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَحْقِيقِهِ - بِعَيْنٍ قَاسِيَةٍ ، وَلَوْمٍ شَدِيدٍ ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَٰلِكَ ، وَلَٰكِنَّهُ غَمَزَ مُحَقِّقَ الْكِتَابِ ، إِذْ هُوَ - كَمُؤَلِّفِهِ - مُخْطِئٌ ، لِأَنَّهُ أَعَادَ إِبْرَازَهُ لِلْوُجُودِ ! .

وَهُوَ - مَعَ مَا وَجَّهَهُ مِنْ لَوْمٍ لِصَاحِبِ كِتَابِ (الِاعْتِبَارِ) وَلِمُحَقِّقِهِ جَمِيعًا - رَأَىٰ أَنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ إِثَارَةُ الْعَامَّةِ بِادِّعَاءِ أَنَّ الْخِلَافَ فِي الرَّأْيِ لَا يَعْنِي إِلَّا الْعَدَاوَةَ ، فَمَنْ يُخَالِفُ (ابْنَ تَيْمِيَّةَ) فِي رَأْيِهِ .. إِنَّمَا يَكُونُ بِمُخَالَفَتِهِ

(١) أَيْ : الِاضْطِرَابِ الْعِلْمِيِّ . اهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ .

هَـٰذِهِ قَدْ رَفَعَ لِوَاءَ الْعَدَاءِ لِـ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) وَ (ابْنِ الْقَيِّمِ) ، وَيَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ مُعَادَاتِـهِـمَـا ! .

وَمُـحَقِّقُ هَـٰذَا الْكِتَابِ (١) يَـعْجَبُ مِنْ هَـٰذَا الْـمَسْلَكِ ، وَيَزْدَادُ عَجَبُهُ أَنَّ الرَّجُلَ بَعْدَ أَنْ شَدَّدَ النَّكِيرَ عَلَىٰ مُـحَقِّقِ (الِاعْتِبَارِ) وَمُـؤَلِّفِهِ جَـمِيعًا .. قَدِ اعْتَنَقَ الرَّأْيَ الَّذِي اعْتَنَقَهُ الْـمُـحَقِّقُ وَالْـمُؤَلِّفُ لِكِتَابِ (الِاعْتِبَارِ) ، مُـخَالِفًا بِذَٰلِكَ رَأْيَ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) وَ (ابْنِ الْقَيِّمِ) ! ، فَيَكُونُ - بِـمَسْلَكِهِ هَـٰذَا ، وَعَلَىٰ قَاعِدَتِهِ الَّتِي ارْتَضَاهَا لِنَفْسِهِ - عَدُوًّا لَدُودًا لِـ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) وَ (ابْنِ الْقَيِّمِ) ! ، فِي حِينَ أَنَّـهُ لَـا يَـمَلُّ مِنَ الْإِعْلَانِ عَنْ أَنَّـهُ مُـحِبٌّ مُـخْلِصٌ لِلرَّجُلَيْنِ وَمَذْهَبِهِمَـا .

وَالْـأَمْرُ - عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ - أَمْرُ مَشَاعِرَ ، لَـا أَمْرُ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ .

فَالْعِلْمُ وَالْـمَعْرِفَةُ لَـهُمَـا مَنَاهِجُهُمَا ، وَآثَـارُهُمَا ، وَضَوَابِطُهُمَـا ، فَأَنَـا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُخَالِفَ غَيْرِي الرَّأْيَ وَأُبْـقِـي عَلَىٰ وُدِّي لَـهُ وَاحْتِرَامِي وَتَقْدِيرِي ، لِـأَنِّـي قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْوَعْيِ مَا يَـجْعَلُنِي أَفْصِلُ بَيْنَ مَنْطِقَتَيْنِ هُمَـا مُنْفَصِلَتَانِ بِالطَّبْعِ : ١- مَنْطِقَةُ الْعَقْلِ وَالتَّعَقُّلِ مِنْ جِهَةٍ ٢- وَمَنْطِقَةُ الْوِجْدَانِ وَالشُّعُورِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ .

وَلَـمَّـا كُنْتُ - كَغَيْرِي - قَادِرًا عَلَىٰ هَـٰذَا الْفَصْلِ بَيْنَ الْـمَنْطِقَتَيْنِ .. أَخَذْتُ نَفْسِي - فِـي حَيَاتِـي كُلِّهَا - بِأَنْ لَـا تَلْتَفِتَ إِلَـىٰ مَنْ تَـخْتَلِطُ عَلَيْهِمُ الْـأُمُورُ ، بِحَيْثُ لَـا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ الـتَّـمْـيِيزِ بَيْنَهَا .

(١) يَقْصِدُ الدُّكْتُورَ طَهَ حِبِيشِي نَفْسَهُ . اِهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ .

وَمِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَاحَظْتُهَا عَلَىٰ هَـٰذِهِ النَّشْرَةِ لِتِلْكَ الرِّسَالَةِ الَّتِي نُسِبَتْ إِلَىٰ ابْنِ تَيْمِيَّةَ : أَنَّ الْمُحَقِّقَ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا فِي مُقَدِّمَتِهِ لَهَا ، سِوَىٰ أَنَّهُ نَقَلَ مَا فِي كِتَابِ (جَلَاءِ الْعَيْنَيْنِ فِي الْمُحَاكَمَةِ بَيْنَ الْأَحْمَدَيْنِ) الْمُشَارِ إِلَيْهِ سَلَفًا .

أَمَّا الرِّسَالَةُ نَفْسُهَا : فَإِنَّهَا - فِي مَصَادِرِهَا - بِغَيْرِ عُنْوَانٍ يُحَدِّدُهَا ، سِوَىٰ مَا أُثْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ أَنَّهَا مَسْأَلَةٌ فِي الْقَوْلِ بِـ (فَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَوْ بَقَائِهِمَا) .

وَهِيَ - فِي نَفْسِ الْوَقْتِ - لَا تَحْمِلُ اسْمَ مُؤَلِّفِهَا أَوْ كَاتِبِهَا ، كَمَا أَنَّهَا لَا تَحْمِلُ اسْمَ نَاسِخِهَا وَكَاتِبِهَا .

وَمِثْلِي لَا يَهْتَمُّ كَثِيرًا بِاسْمِ النَّاسِخِ - وَإِنْ كَانَ ذِكْرُهُ لَا يَخْلُو مِنْ فَائِدَةٍ - لَـٰكِنِّي أَهْتَمُّ - كَمَا يَهْتَمُّ غَيْرِي - بِنِسْبَةِ الْمَخْطُوطِ إِلَىٰ صَاحِبِهِ ، وَهُوَ أَمْرٌ جَوْهَرِيٌّ ، لَا يُمْكِنُ إِغْفَالُهُ .

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ أَنْ يَصْرِفَ الْمُحَقِّقُ جُهْدَهُ إِلَىٰ تَوْجِيهِ اللَّوْمِ لِمَنْ قَدْ يَبْعَثُهُمْ حُبُّ الِاسْتِطْلَاعِ إِلَىٰ التَّسَاؤُلِ عَنِ اسْمِ الْكَاتِبِ أَوِ النَّاسِخِ ! .

وَلَقَدْ لَاحَظْتُ عَلَىٰ الرِّسَالَةِ أَنَّ الْأُسْلُوبَ الَّذِي كُتِبَتْ بِهِ يَسِيرُ فِي اتِّجَاهَيْنِ ، التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ الْحِسِّ :

١- **فَجُزْؤُهُمَا الْأَوَّلُ** يُشْعِرُكَ أَنَّ مُحَدِّثَكَ أَحَدُ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ (الْمُتَخَصِّصُونَ الْمَاهِرُونَ) [1] فِي عِبَارَاتِهِمْ وَأَسَالِيبِهِمُ الَّتِي يُصِيغُونَ بِهَا أَفْكَارَهُمْ ، وَيَجْعَلُونَهَا قَوَالِبَهُمُ الْخَاصَّةَ بِهِمْ .

---

(١) رَفَعَهُمَا عَلَىٰ أَنَّهُمَا صِفَتَانِ لِـ (أَحَدُ) . اهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّهِ .

٢- وَجُزْءُ الرِّسَالَةِ الثَّانِي فِيهِ مَيْزَاتٌ وَخَصَائِصُ الْمَدْرَسَةِ السَّلَفِيَّةِ الْمُتَأَخِّرَةِ ، الَّتِي يُعَدُّ شَيْخُ الْإِسْلَامِ إِمَامًا لَهَا ، وَهِيَ خَصَائِصُ وَسِمَاتٌ لَا تَخْفَىٰ عَلَىٰ أَصْحَابِ الْمَلَكَةِ مِنَ الدَّارِسِينَ وَالْبَاحِثِينَ .

وَهَٰذَا التَّمَيُّزُ الْوَاضِحُ قَدْ جَعَلَنِي أَفْتَرِضُ - وَلَوْ لِلَحْظَةٍ - أَنَّ نَاسِخَ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ كَانَ يَقْصِدُ إِلَىٰ جَمْعِ وَرَقَاتٍ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ مَكَانٍ تُصَوِّرُ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ فِي هَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي هِيَ قَضِيَّتُهُ (فَنَاءُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَوْ بَقَاؤُهُمَا) .

وَقَوَّىٰ هَٰذَا الِاحْتِمَالَ عِنْدِي .. مَا وَقَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ أَجْزَاءِ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ مُنْفَرِدَةً .

وَكُلُّ هَٰذِهِ الْمُلَاحَظَاتِ - وَكَثِيرٌ غَيْرُهَا - قَدْ جَعَلَتِ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَزْهَدُونَ فِي نِسْبَةِ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ لِـ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) ، وَيَسْتَنْكِفُونَ [1] أَنْ يَأْخُذُوا رَأْيَهُ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُسْتَنِدِينَ إِلَىٰ تِلْكِ الرِّسَالَةِ .

أَمَّا أَنَا .. فَلَا أَجِدُ نَفْسِي مُضْطَرًّا إِلَىٰ إِضَافَةٍ جَدِيدٍ فِي الْحَدِيثِ عَنِ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) أَكْثَرَ مِمَّا قُلْتُهُ فِي الطَّبْعَةِ الْأُولَىٰ ، وَهُوَ : أَنَّنِي لَمْ أَجِدْ لِلرَّجُلِ نَصًّا يُعْرِبُ عَنْ رَأْيِهِ ، فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي وَجَدتُّ فِيهِ تِلْمِيذَهُ (ابْنَ الْقَيِّمِ) - وَمَنْ عَاصَرَ (ابْنَ تَيْمِيَّةَ) غَيْرُهُ - يَجْزِمُونَ بِأَنَّ هَٰذَا هُوَ رَأْيُهُ الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ .

* * *

(١) أَيْ : يَأْبَوْنَ وَيَرْفُضُونَ . اهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّهِ .

رَأْيُ ابْنِ الْقَيِّمِ

أَمَّا (ابْنُ الْقَيِّمِ) .. فَإِنَّ الْغُمُوضَ لَا يُحِيطُ بِهِ ، لِأَنَّهُ عَرَضَ رَأْيَهُ بِغَايَةِ الْوُضُوحِ ؛ وَخُلَاصَتُهُ : أَنَّ (النَّارَ) لَا يُمْكِنُ أَنْ تَبْقَىٰ كَبَقَاءِ (الْجَنَّةِ) .

وَلَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يَعْرِضَ فَهْمَهُ فِي آيَاتِ الْقُرْءَانِ ، وَمَا تَوَفَّرَ لَدَيْهِ مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ مَا يُؤَيِّدُ بِهِ رَأْيَهُ ، مَعَ أَنَّهُ رَأْيٌ مَرْجُوحٌ .

وَلِعِلْمِ (ابْنِ الْقَيِّمِ) أَنَّ رَأْيَهُ مَرْجُوحٌ ، تُعَارِضُهُ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ الصَّرِيحَةُ .. لَجَأَ إِلَىٰ الْعَقْلِ ، يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ مِنْهُ نَصِيرًا يُؤَيِّدُهُ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا سَتَرَاهُ دَاخِلَ هَٰذِهِ النَّشْرَةِ ، وَعَلَىٰ نَحْوِ مَا سَتَجِدُهُ مُطَوَّلًا فِي كِتَابِهِ (الْحَادِي) .

وَالشَّيْءُ الْعَجِيبُ ، أَنَّ الشَّيْخَ الْفَاضِلَ (ابْنَ الْقَيِّمِ) حِينَ اسْتَنْصَرَ بِالْعَقْلِ عَلَىٰ النَّصِّ .. قَدْ خَالَفَ غَايَةَ الْمُخَالَفَةِ مَنْهَجَ **السَّلَفِيَّةِ الْمُتَأَخِّرَةِ** ، كَمَا أَنَّهُ - بِاعْتِنَاقِهِ هَٰذَا الرَّأْيَ - قَدْ خَالَفَ بِهِ جُمْهُورَ الْأُمَّةِ ، وَمِنْهُمْ أَنْصَارُ الْمَذْهَبِ أَنْفُسُهُمْ .

* * *

الرَّأْيُ الْمُخْتَارُ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ

وَالرَّأْيُ الْمُخْتَارُ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ : أَنَّ أَهْلَ النَّارِ قِسْمَانِ :

١- قِسْمٌ آمَنُوا بِاللَّهِ ، وَلَٰكِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا .

وَهَٰؤُلَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَدْخَلَهُمُ النَّارَ ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، بَعْدَ أَنْ يَمْكُثُوا فِيهَا مُدَّةً يُقَدِّرُهَا رَبُّهُمْ .

٢- وَقِسمٌ كَفَرَ بِاللَّهِ وَمَاتَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ .

وَهَٰؤُلَاءِ قَدْ حَبَسَهُمُ الْقُرْءَانُ فِي الْعَذَابِ خَالِدِينَ فِيهِ أَبَدًا .

وَهَٰذَا الْقِسْمُ الْأَخِيرُ يَبْقَىٰ فِي النَّارِ ، وَتَبْقَىٰ النَّارُ بِهِ ، ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ، إِذْ هُمْ قَدْ حُكِمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِقَامَةِ فِي جَهَنَّمَ ، وَلَنْ يَزِيدَهُمْ فِيهَا رَبُّهُمْ إِلَّا عَذَابًا .

وَأَنَا لَا أَجِدُ لِي وَلَكَ إِلَّا أَنْ نَتَدَبَّرَ مَعًا هَٰذِهِ الْعِبَارَاتِ الَّتِي كَتَبَهَا صَاحِبُهَا بِحِسٍّ صَادِقٍ ، وَرَغْبَةٍ فِي التَّخَلُّصِ مِنَ التَّبِعَةِ مِنْ أَعْرَاضِ الْعُلَمَاءِ ، حَيْثُ قَالَ الشَّيْخُ (نُعْمَانُ خَيْرُ الدِّينِ بْنُ الْآلُوسِيِّ) بَعْدَ عَرْضِ الْآرَاءِ ، وَأَدِلَّةِ - أَوْ شُبْهَةِ - كُلِّ رَأْيٍ .. مَا هَٰذَا نَصُّهُ :

« ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِمَّا نَقَلْنَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ : أَنَّ الْقَوْلَ الصَّحِيحَ الْحَرِيَّ بِالتَّرْجِيحِ .. هُوَ بَقَاءُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَسَاكِنِيهِمَا مِنَ الْأَخْيَارِ وَالْفُجَّارِ ، وَأَنَّ الشَّيْخَ ابْنَ تَيْمِيَّةَ لَمْ يَتَبَيَّنْ عَنْهُ نَقْلٌ صَحِيحٌ فِيمَا نُسِبَ إِلَيْهِ ، وَلَئِنْ سُلِّمَ أَنَّهُ مَالَ لِذَٰلِكَ .. فَقَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ السَّلَفِ ، وَأَفْرَادٌ مِنَ الْخَلَفِ ، كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، فَلَيْسَ فِي مَيْلِهِ مَا يُوجِبُ تَكْفِيرًا عِنْدَ مَنْ أَنْصَفَ ؛ عَلَىٰ أَنَّا لَا نَعْلَمُ - إِنْ صَحَّ النَّقْلُ - عَدَمَ رُجُوعِهِ عَنْهُ ، وَهُوَ لَا يُعَدُّ - عِنْدَ الْمُنْصِفِينَ - إِلَّا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُجْتَهِدِينَ ؛ وَأَيُّ مُجْتَهِدٍ قُرِنَتْ بِالصَّوَابِ جَمِيعُ أَقْوَالِهِ ، وَصُوِّبَتْ كَافَّةُ أَحْوَالِهِ ؟! ، وَكَمْ قَدْ رَجَعَ مُجْتَهِدٌ عَنِ اجْتِهَادِهِ الْأَوَّلِ ، وَنَصَّ عَلَىٰ خِلَافِهِ وَعَوَّلَ ! ، وَمَعَ هَٰذَا .. فَلَعَلَّهُ اتَّبَعَ فِي ذَٰلِكَ أَقْوَالَ الْفَارُوقِ ، وَبَابِ مَدِينَةِ الْعِلْمِ ، وَتُرْجُمَانِ الْقُرْءَانِ ، وَابْنِ مَسْعُودٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ الْقَائِلِ : (أَخَذْتُ

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وِعَاءَيْنِ ...) الْحَدِيثُ الشَّهِيرُ[١] .

فَتَدَبَّرْ جَمِيعَ مَا حَرَّرْنَاهُ لَكَ مِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ الْأَخْيَارِ ، وَأَسْأَلُهُ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يُنَجِّينَا وَإِيَّاكَ مِنَ النَّارِ ، وَيُسْكِنَنَا الْجَنَّةَ دَارَ الْقَرَارِ . آمِينَ »[٢] .

* * *

الِاصْطِيَادُ فِي الْمَاءِ الْعَكِرِ

هَٰذِهِ - كَمَا رَأَيْتَ - هِيَ الْمَسْأَلَةُ ، أَدَارَهَا الْعُلَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، وَبَحَثُوهَا بَحْثًا عَقَدِيًّا ، كُلُّهُمْ عَلَىٰ نِيَّاتِهِمْ ، وَكُلُّهُمْ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنِ النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ صَاحِبِ الْكَمَالِ فِي الصِّفَاتِ مِنْهُمْ وَاحِدٌ فِيمَا أَعْلَمُ ، وَفِيمَا هُوَ ظَاهِرُ كَلَامِهِمْ .

فَمَنْ شَدَّدَ عَلَىٰ بَقَاءِ النَّارِ كَبَقَاءِ الْجَنَّةِ .. رَأَىٰ أَنَّ مَعَهُ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ كَثِيرَةَ الْعَدَدِ ، قَطْعِيَّةَ الدَّلَالَةِ ، وَقَطْعِيَّةَ الثُّبُوتِ عَلَىٰ السَّوَاءِ .

فَإِذَا مَا أَخْبَرَ الْقُرْءَانُ صَرَاحَةً عَنْ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْءَانِ ، وَعَزَّزَ ذَٰلِكَ بِآيَاتٍ تَزِيدُ عَلَىٰ الثَّلَاثِينَ آيَةً ،

(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ ، (بَابُ حِفْظِ الْعِلْمِ) ، وَهَاكَ نَصَّهُ بِسَنَدِهِ :

« ١٢٠ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَخِي، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ) » . اهـ . نَاصِرٌ .

(٢) (جَلَاءُ الْعَيْنَيْنِ فِي مُحَاكَمَةِ الْأَحْمَدَيْنِ) السَّيِّدُ نُعْمَانُ خَيْرُ الدِّينِ الْآلُوسِيُّ ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ ، بَيْرُوتُ - ص ٤٢٧ ، بِدُونِ تَارِيخٍ . (الْمُحَقِّقُ) .

تَشْتَمِلُ ضِمْنًا عَلَىٰ تَـأْبِـيدِ النَّارِ ، وَخُلُودِ الْـمُعَذَّبِينَ فِيهَا مِنَ الْكَافِرِينَ .

وَإِذَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ تُثْبِتُ هَـٰذَا الْـمَعْنَىٰ وَتُؤَكِّدُهُ .. فَإِنَّـهُ مِنْ غَيْرِ الْـجَائِزِ – مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ أَصْحَابِ هَـٰذَا الرَّأْيِ – أَنْ يَتَأَوَّلَ مُتَأَوِّلٌ فِـي هَـٰذِهِ النُّصُوصِ بِقَصْدِ صَرْفِهَا عَنْ ظَاهِرِهَا .

وَهَـٰذَا الِـاتِّـجَاهُ – كَمَـا رَأَيْـتَ – هُوَ أَظْهَرُ الِـاتِّـجَاهَاتِ ، وَأَسَاسُهُ الْفِكْرِيُّ الَّذِي انْطَلَقَ مِنْهُ وَاضِحٌ لَـا سُتْرَةَ بِهِ .

وَمَنْ قَالَ مِنَ الْـمُسْلِمِينَ إِنَّ النَّارَ سَتَفْنَىٰ ، وَإِنَّـهُ سَيَأْتِي عَلَيْهَا وَقْتٌ تُصَفَّدُ فِيهِ أَبْـوَابُـهَا وَيَنْتَهِي الْعَذَابُ .. قَدِ انْطَلَقُوا هُمُ الْـآخَرُونَ مِنْ مُنْطَلَقٍ عَقَدِيٍّ يَتَّصِلُ بِبَعْضِ صِفَاتِ اللَّـٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَخَصُّهَا صِفَةُ الرَّحْمَةِ .

وَأَصْحَابُ هَـٰذَا الرَّأْيِ يَرَوْنَ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّـٰهِ قَدْ سَبَقَتْ غَضَبَهُ ، وَأَنَّـهَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

وَمِنْ هَـٰذَا الْـمُنْطَلَقِ .. رَأَىٰ أَصْحَابُ هَـٰذَا الرَّأْيِ أَنَّ الْكُفَّارَ أَشْيَاءُ ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَسَعَهُمْ رَحْمَةُ رَبِّكَ فِي الْـآخِرَةِ ، وَتُدْرِكَهُمْ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، تَـمْـتَدُّ أَحْقَابًا بَعْدَهَا أَحْقَابٌ .

ثُمَّ يُضِيفُ أَصْحَابُ هَـٰذَا الرَّأْيِ .. أَنَّـهُ مِنَ الْـحِكْمَةِ الْإِلَـٰهِيَّةِ أَنْ لَـا يَـمْتَدَّ الْعَذَابُ بِالْكَافِرِينَ إِلَـىٰ غَيْرِ نِـهَايَةٍ .

وَسَوَاءٌ وَافَقْنَا هَـٰؤُلَـاءِ أَوْ هَـٰؤُلَـاءِ ، أَوْ كُنَّا مَعَ هَـٰذَا الْفَرِيقِ أَوْ هَـٰذَا الْفَرِيقِ عَلَىٰ رَأْيِـهِ .. فَإِنَّـنَا لَـا نُحَقِّرُ الْفَرِيقَ الَّذِي لَسْنَا مَعَهُ ، وَلَـا يَـجُوزُ أَنْ نُسَفِّهَ أَحْلَامَ أَفْرَادِهِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ نُطْلِقَ أَلْسِنَتَنَا بِتَكْفِيرِهِ .

هَٰذِهِ هِيَ حُدُودُ الْخِلَافِ ، وَتِلْكَ هِيَ مُنْطَلَقَاتُهُ .

غَيْرَ أَنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا - فِي هَٰذَا الزَّمَانِ ، وَقَبْلَ هَٰذَا الزَّمَانِ - أُنَاسًا يُحَاوِلُونَ أَنْ يَصْطَادُوا فِي الْمَاءِ الْعَكِرِ ، وَيَتَّخِذُونَ مِنْ مِثْلِ هَٰذَا الْخِلَافِ وَسِيلَةً لِلتَّشْوِيشِ عَلَىٰ الْأُمَّةِ فِي فِكْرِهَا وَفِي دِينِهَا ، وَطَرِيقَةً لِإِحْدَاثِ الْبَلْبَلَةِ وَالِاضْطِرَابِ وَالرَّجْفَةِ الَّتِي تُؤَثِّرُ عَلَىٰ سُلُوكِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ .

وَسَأَضْرِبُ لَكَ هُنَا مِثَالَيْنِ يُؤَكِّدَانِ مَا ذَهَبْتُ إِلَيْهِ :

١- لَقَدْ رَأَيْنَا - فِي هَٰذَا الزَّمَانِ - جَمَاعَةً ، هُمْ - كَمَا قُلْتُ لَكَ - مِيرَاثُ الشُّيُوعِيَّةِ فِينَا ، وَدُعَاةُ الْعَلْمَانِيَّةِ الرَّافِضَةِ لِكُلِّ دِينٍ ، الْمُتَأَبِّيَةُ عَلَىٰ كُلِّ نِظَامٍ ، وَلَهُمْ سَلَفُهُمُ الْمَعْلُومُ وَالْمَعْرُوفُ لَدَيْنَا ؛ قَدْ خَرَجُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَقُولُونَ لَهُمْ : إِنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ ، لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا ، مَا دَامَ قَدْ عَصَىٰ وَسَبَقَ إِلَيْهِ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ . فَإِذَا سَأَلْتَهُ عَنْ رَأْيِهِ هَٰذَا : مِنْ أَيْنَ اسْتَمَدَّهُ ؟ قَالَ لَكَ : إِنَّ جُمْهُورَ الْأُمَّةِ عَلَىٰ أَنَّ النَّارَ بَاقِيَةٌ لَا تَفْنَىٰ ، وَإِنَّ جُمْهُورَ الْأُمَّةِ كَذَٰلِكَ عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ عَادِلٌ لَا يُخَالِفُ عَدْلَهُ .

وَهَٰذَانِ مَبْدَآنِ يُوَافِقُ عَلَيْهِمَا كُلُّ مُؤْمِنٍ وَلَا شَكَّ .

فَبَقَاءُ النَّارِ وَعَدَمُ فَنَائِهَا رَأْيٌ ارْتَآهُ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ ، وَشَهِدَتْ بِهِ النُّصُوصُ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الصَّيْدَ فِي الْمَاءِ الْعَكِرِ .. لَمْ يَشَاءُوا أَنْ يَقُولُوا أَوْ يُعْلِنُوا بَيْنَ النَّاسِ الْحَقِيقَةَ كَامِلَةً ، إِذْ إِنَّ النَّارَ بَاقِيَةٌ ، وَعَذَابُهَا دَائِمٌ ، غَيْرَ أَنَّ بَقَاءَهَا وَبَقَاءَ الْعَذَابِ فِيهَا .. إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَىٰ

كُفْرِهِمْ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا عَلِمْتَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] .

وَأَمَّا قَضِيَّةُ عَدْلِ اللَّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ .. فَهِيَ عَقِيدَةُ الصِّبْيَانِ مِنْ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ قَبْلَ الْبَالِغِينَ مِنْهَا ، وَجَمِيعُ الْأُمَّةِ مُطْبِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ اللَّٰهَ عَدْلٌ ، وَإِلَّا مَا صَحَّ إِيمَانُ مَنْ فَاتَتْهُ هَٰذِهِ الْعَقِيدَةُ .

غَيْرَ أَنَّ الَّذِينَ يَصْطَادُونَ فِي الْمَاءِ الْعَكِرِ .. لَمْ يَشَاءُوا أَنْ يُخْبِرُوا الْأُمَّةَ بِمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ : أَنَّ مُخَالَفَةَ الْعَدْلِ إِنْ كَانَتْ إِلَىٰ الظُّلْمِ وَضَيَاعِ الْحُقُوقِ .. فَهَٰذِهِ رَذِيلَةٌ ، اللَّٰهُ مُنَزَّهٌ عَنْهَا ؛ وَإِنْ كَانَتْ مُخَالَفَةُ الْعَدْلِ إِلَىٰ الْفَضْلِ .. فَهَٰذِهِ فَضِيلَةٌ ، وَكَرَمُ اللَّٰهِ هُوَ الْأَوْلَىٰ بِهَا .

وَلَكَ أَنْ تَتَسَاءَلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ : لِمَاذَا يُصِرُّ هَٰؤُلَاءِ عَلَىٰ أَنَّ الْعُصَاةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ كَالْكَافِرِينَ ، مَعَ أَنَّ أَصْحَابَ هَٰذَا الرَّأْيِ أَنْفُسَهُمْ لَا يَخْلُو الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مِنْ مَعْصِيَةٍ وَمُخَالَفَةٍ لِدِينِهِ ؟ .

وَدَعْنِي أُحَدِّثْكَ عَنْ غَرَضِهِمْ ، فَقَدْ أَصْبَحَ مَكْشُوفًا ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ١٤﴾ [فاطر : ١٤] .

قُلْتُ : إِنَّ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَٰذَا الْكَلَامَ .. هُمُ الْعَلْمَانِيُّونَ وَبَقَايَا الشُّيُوعِيَّةِ فِينَا ، وَهَٰذِهِ الْأَلْقَابُ لَا تُزْعِجُهُمْ .

وَقُلْتُ لَكَ : إِنَّ هَٰؤُلَاءِ أُنَاسٌ لَا يَحْرِصُونَ عَلَىٰ الِانْتِمَاءِ لَا لِأُمَّتِهِمْ وَلَا لِدِينِهِمْ ، وَإِنَّمَا حِرْصُهُمْ أَنْ يَكُونَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مَوْضُوعًا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنْهُ ، وَلَوْ وَصَفُوهُ بِغَيْرِ الْأَوْصَافِ الَّتِي تُحَقِّقُ الرُّجُولَةَ فِي الرِّجَالِ .

وَأُنَاسٌ هَـٰذَا شَأْنُـهُمْ .. يَـحْرِصُونَ كُلَّ الْـحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يُـحْدِثُوا اضْطِرَابًا فِـي أَفْكَارِ النَّاسِ وَسُلُوكِهِمْ ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّـهُمْ بَالِغُونَ مَا يُرِيدُونَ .

أَمَّا مُـحَاوَلَتُهُمْ إِحْدَاثَ الِـاضْطِرَابِ فِـي الْعُقُولِ وَالْـمَشَاعِرِ .. فَهُوَ ظَاهِرٌ لَـا سُتْرَةَ بِهِ ، ذَٰلِكَ أَنَّـكَ إِذَا أَخْبَرْتَ الْـمُخَالِفَ أَوِ الْعَاصِيَ بِأَنَّـهُ لَـا فَرْقَ بَـيْـنَـهُ وَبَـيْـنَ الْكَافِرِ ، فَالْـجَمِيعُ مُـخَلَّدٌ فِي النَّارِ .. تَكُونُ بِذَٰلِكَ قَدْ أَحْدَثْتَ لَدَيْهِ وَفِيهِ كَـمًّا هَائِلًا مِنَ الْيَأْسِ الَّذِي يُبَاعِدُ بَـيْـنَـهُ وَبَـيْـنَ كُلِّ أَمَلٍ فِـي النَّجَاةِ .

وَاللَّـٰهُ – عَزَّ وَجَلَّ – قَدْ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ الْيَأْسَ وَالْقُنُوطَ مِنْ أَخْلَاقِ الْكَافِرِينَ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَىٰ الْـمُسْلِمِ أَنْ يَتَنَزَّهَ عَنْهَا .

أَضِفْ إِلَـىٰ ذَٰلِكَ : أَنَّ الْعَاصِيَ إِذَا وَقَعَ فِـي الْيَأْسِ ، وَانْقَطَعَ أَمَلُهُ فِـي النَّجَاةِ .. اِخْتَلَّ تَوَازُنُهُ ، وَاضْطَرَبَ وِجْدَانُهُ ، وَأَيْقَنَ أَنَّـهُ مَا دَامَ لَنْ يَنْتَفِعَ بِشَيْءٍ فَوْقَ تَـمَتُّعِهِ فِـي الدُّنْيَا .. فَإِنَّـهُ مِنَ الْـحِكْمَةِ أَنْ يَسْتَمْتِعَ فِـي دُنْيَاهُ بِقَدْرِ مَا تَسَعُهُ الْـمُتْعَةُ ، وَيَنَالَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا يُـمْكِنُهُ النَّوَالُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَهْتَمَّ بِالتَّـمْيِيزِ بَيْنَ الْـحَلَالِ وَالْـحَرَامِ .

وَأَمَلُ هَـٰؤُلَـاءِ الْـمُضَلِّلِينَ أَنْ يَصِلُوا فِـي الْـمُجْتَمَعِ الْـمُسْلِمِ بِقَدْرٍ مِنَ الِـاضْطِرَابِ النَّفْسِيِّ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ آثَارٍ يَتْرُكُ الْـمُجْتَمَعَ الْـمُسْلِمَ كُلَّهُ فِـي حَيْرَةٍ مَا بَعْدَهَا حَيْرَةٌ .

وَأَمَّا مُـحَاوَلَتُهُمْ إِحْدَاثَ الِـاضْطِرَابِ فِي السُّلُوكِ .. فَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ اسْتِغْلَالِـهِمْ هَـٰذَا الْـمَوْقِفَ ، يُؤَسِّسُونَ عَلَيْهِ أَسَاسَهُمْ ، لِلتَّشْكِيكِ فِـي السُّنَّةِ ، وَالْـحَيْلُولَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْـمُسْلِمِينَ ، لَـا يَعْتَبِرُونَـهَا مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ تَشْرِيعِهِ .

وَقَدْ نَشِطَ هَـٰؤُلَـاءِ نَشَاطًا بَالِغًا فِـي هَـٰذَا الْـمَجَالِ ، حَيْثُ قَالُوا : إِنَّ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ الَّتِي تُفِيدُ أَنَّ اللَّـٰهَ قَدْ يَغْفِرُ لِلْعُصَاةِ إِنْ شَاءَ .. كُلُّهَا مِنْ وَضْعِ الْيَهُودِ ، وَكُلُّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، وَرُوَاتُـهَا كَفَرَةٌ فَجَرَةٌ ، مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سَنَدٍ إِلَـىٰ مُنْتَهَاهُ ، وَالَّذِينَ أَثْبَتُوهَا فِـي كُتُبِهِمْ يَـهُودٌ أَوْ عُمَلَاءُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَوَّلُـهُمُ الْـإِمَامُ **الْبُخَارِيُّ** رضي الله عنه !! .

ثُمَّ يُضِيفُ الْقَوْمُ – بَعْدَ هَـٰذَا الصِّيَاحِ – قَوْلَـهُمْ : وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَثَرْنَا عَلَىٰ الْأَحَادِيثِ الْكَاذِبَةِ – كَمَا يَـقُولُـونَ – فِـي هَـٰذِهِ الْـمَسْأَلَـةِ .. فَـإِنَّـهُ بِإِمْكَانِنَا – وَمَا زَالَ الْـحَدِيثُ لَـهُمْ – أَنْ نُعَمِّمَ الْقَوْلَ فِـي الـسُّـنَّـةِ بِـأَسْـرِهَا ، فَنَقُولُ : إِنَّ الـسُّـنَّـةَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

وَلَوْ أَنَّـكَ عُدتَّ إِلَـىٰ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ قَرِيبًا وَتَأَمَّلْتَهُ .. لَعَلِمْتَ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ أَرَادُوا إِقْصَاءَ الـسُّـنَّـةِ ، وَإِقْصَاءَ الْقُرْءَانِ الْـمَدَنِـيِّ ، وَإِلْغَاءَ الْفِقْهِ ، وَتَغْيِيرَ الشَّرِيعَةِ ، وَالتَّعْدِيلَ فِي الْعَقِيدَةِ ؛ ثُمَّ يَقُولُونَ : هَـٰذَا هُوَ الْـإِسْلَامُ !! .

وَأَنَـا إِذْ أَقُولُ لَكَ مَا أَقُولُ .. أُطَالِبُ الْقَوْمَ أَنْ يُعْلِنُوا بَيْنَ النَّاسِ هَدَفًا مِنَ الْأَهْدَافِ الَّتِي حَدَّدتُّهَا لَـهُمْ ، ثُمَّ يَنْفُونَهُ وَيَسْأَلُونَنِي : مِنْ أَيْنَ لَكَ بِالدَّلِيلِ عَلَىٰ مَا نَسَبْتَهُ إِلَيْنَا ؟ وَسَوْفَ أُخْرِجُهُ لَـهُمْ – إِنْ شَاءَ اللَّـٰهُ – مِنْ نُصُوصِهِمْ بِـمِقْدَارِ الْـمَسْأَلَـةِ الَّتِي يَطْلُبُونَ الدَّلِيلَ الَّذِي يُؤَيِّدُ صِدْقَ مَا قُلْتُهُ .

وَأَنْـتَ خَبِيرٌ – وَلَـا شَكَّ – أَنَّـنَا إِذَا رَفَعْنَا الشَّرِيعَةَ وَالْعَقِيدَةَ مِنَ الْـمُجْتَمَعِ الْـمُسْلِمِ .. نَكُونُ قَدْ أَحْدَثْنَا فِيهِ مِنَ الْـاضْطِرَابِ حَدَثًا ضَخْمًـا ، وَهُوَ مُبْتَغَىٰ هَـٰؤُلَـاءِ الْقَوْمِ .

٢- هَـٰذَا ، وَإِنِّـي أُرِيـدُ الْـآنَ أَنْ أَضعَ بَيْنَ يَدَيْكَ هَـٰذَا الْـمِثَالَ الثَّانِـيَ ، الَّذِي تَرَتَّبَ عَلَىٰ قَضِيَّةِ الْـخِلَافِ مَوْضُوعِ الْكِتَابِ ، وَذَكَرَهُ هَـٰؤُلَـاءِ الَّذِينَ يُـحَاوِلُونَ أَنْ يَصْطَادُوا فِـي الْـمَاءِ الْعَكِـرِ .

وَالْـمِثَالُ الَّذِي أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكَ حَوْلَهُ .. يَدُورُ حَوْلَ إِثَارَتِـهِمْ لِقَضِيَّةِ الشَّفَاعَةِ ، وَوُقُوعِها أَوْ عدَمِ وُقُوعِهَا فِـي الْـآخِـرَةِ .

وَأَظُنُّكَ عَلَىٰ وَعْيٍ كَامِلٍ بِـهَـٰذِهِ الضَّجَّةِ الَّتِي أُثِيرَتْ فِـي هَـٰذَا الزَّمَانِ حَوْلَ إِنْكَارِ قَضِيَّةِ الشَّفَاعَةِ ، لِتَأْكِيدِ تَأْبِيدِ عَذَابِ الْعُصَاةِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعَ الْـمِثَالِ السَّابِقِ .

وَالشَّيْءُ الْـمَفْهُومُ لِـي : أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ دَفَعُوا بِرَجُلٍ لَيْسَ لَهُ فِـي مَسْأَلَةِ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ نَاقَةٌ وَلَـا جَـمَلٌ ، إِلَّـا بِـمِقْدَارِ مَا يَقُولُ رَجُلُ الزِّرَاعَةِ : اُنْـظُـرُوا هَـٰذِهِ الْـحَبَّةَ ، وَضَعْنَاهَا فِـي الْـأَرْضِ ، وَسَقَيْنَاهَا الْـمَاءَ فَاخْضَرَّتْ ، فَمَنْ بَعَثَ فِيهَا الْـحَيَاةَ ؟ . وَإِلَّـا بِـمِقْدَارِ مَا يَقُولُ صَائِدُو الْـأَسْمَاكِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَـىٰ الْكَائِنَاتِ الْـحَيَّةِ فِـي الْبَحْرِ : اُنْـظُـرُوا ، مَنْ خَلَقَ هَـٰذِهِ الْكَائِنَاتِ ؟ .

وَأَمْثَالُ هَـٰذَيْـنِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ .

أَقُولُ : إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ دَفَعُوا بِرَجُلٍ لَـا عَلَاقَةَ لَهُ بِالْفِكْرِ الدِّينِيِّ - إِلَّـا بِـمِقْدَارِ مَا ذَكَرْتُ لَكَ - لِيُنْكِرَ الشَّفَاعَةَ فِـي الْـآخِرَةِ ، بِأُسْلُوبٍ صُحُفِيٍّ ، يَـحْسِبُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الْـإِبْدَاعَاتِ الْـأَدَبِيَّـةِ ، وَمَا هُوَ مِنْهَا فِـي شَيْءٍ .

وَلَقَدْ تَابَعْنَا هَـٰذِهِ الْـمُحَاوَلَةَ فِـي حِينِهَا ، وَحَاوَرْنَا صَاحِبَهَا ، وَحَاوَلْنَا أَنْ نُعِيدَ أَفْكَارَهُ عَلَىٰ أَسَاسٍ يُـمْكِنُ مِنْ خِلَالِهِ فَهْمُ مَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهُ .

وَانْتَهَىٰ صَاحِبُ الْمُحَاوَلَةِ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ لَا شَفَاعَةَ فِي الْآخِرَةِ ، فَلَمَّا سُئِلَ عَنِ الشَّفَاعَةِ مَا هِيَ ؟ اِضْطَرَبَ اضْطِرَابًا عَظِيمًا فِي تَحْدِيدِ مَعْنَاهَا ، فَلَمَّا سُئِلَ عَنْ غَرَضِهِ مِنْ إِثَارَةِ هَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ ؟ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُجِيبَ بِشَيْءٍ ، حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ مَنْ دَفَعُوا بِهِ إِلَىٰ مَيْدَانِ الْعِلْمِ بِغَيْرِ أَدَوَاتِهِ ، فَأَمَرُوهُ أَنْ يُنْكِرَ السُّنَّةَ ، وَأَنْ يَنَالَ مِنْ رُوَاتِهَا ، فَفَعَلَ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَىٰ التَّمْيِيزِ بَيْنَ رَجُلَيْنِ : ١- أَحَدُهُمَا يَشْتَغِلُ بِالسُّنَّةِ وَرِوَايَتِهَا ٢- وَثَانِيهِمَا بِالسِّيرَةِ وَالْكِتَابَةِ فِيهَا .

وَكُلُّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ مَا حَدَثَ فِي الْمِثَالِ الْأَوَّلِ .

وَمُحَاوَلَةُ الرَّجُلِ إِنْكَارَ الشَّفَاعَةِ ، وَمُحَاوَرَتُنَا لَهُ .. مَوْجُودَانِ الْآنَ فِي الْأَسْوَاقِ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمَا .

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ : إِنَّهَا مُحَاوَلَاتُ الِاصْطِيَادِ فِي الْمَاءِ الْعَكِرِ ، وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْ خِلَافِ الْأُمَّةِ فِي الرَّأْيِ - وَهُوَ مَشْرُوعٌ - لِإِيقَاعِهَا فِي الْعَدَاوَةِ وَالْحَيْرَةِ وَالِاضْطِرَابِ ، وَهُوَ جِنَايَةٌ عَلَىٰ الْفِكْرِ وَالْوِجْدَانِ وَالسُّلُوكِ ؟ .

دَعْنَا مِنْ هَٰذَا كُلِّهِ ، كَيْ أَعُودَ بِكَ إِلَىٰ مَا بَدَأْتُ بِهِ الْحَدِيثَ مَعَكَ ، وَهُوَ أَنَّ كِتَابَ (الِاعْتِبَارِ) حِينَ نَشَرْتُهُ فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَىٰ .. قَدْ خَرَجَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي الْعَامِ السَّابِعِ وَالثَّمَانِينَ بَعْدَ الْأَلْفِ وَالتِّسْعِمِائَةِ ؛ وَهُوَ فِي طَبْعَتِهِ الثَّانِيَةِ .. خَرَجَ لِيَسْتَقْبِلَ الْأَلْفِيَّةَ الثَّالِثَةَ ، وَمَا بَيْنَ الظُّهُورَيْنِ وَقْتٌ طَوِيلٌ ، طَرَأَتْ فِيهِ

أَحْدَاثٌ ، وَحَدَثَتْ أُمُورٌ ، أَرَدتُّ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ بَعْضِهَا عَلَىٰ عَجَلٍ ، لِأَسْتَثِيرَ هِمَّتَكَ ، وَأَضَعَكَ عَلَىٰ أَوَّلِ الطَّرِيقِ الَّذِي يُنِيرُ لَكَ بَصِيرَتَكَ .

وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ بَلَغْتُ بِكَ مَا أُرِيدُ .

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل : ٩] .

أُ . دُ / طَهَ الدُّسُوقِيُّ حِبِيشِيٌّ

الْجِيزَةُ – عَصْرَ الْأَرْبِعَاءِ ٢٩/ ٩/ ١٩٩٩م

الْمُوَافِقُ ١٩ مِنْ جُمَادَىٰ الثَّانِي ١٤٢٠هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الْمُحَقِّقِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّٰهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّٰهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّٰهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا .

وَأَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتَّسْلِيمَاتِ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ رُسُلِ اللَّٰهِ ، وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَعَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللَّٰهِ الصَّالِحِينَ .

وَبَعْدُ ،

فَلَقَدْ كُنْتُ - بِحُكْمِ تَخَصُّصِي - مَشْغُولًا بِقَضَايَا الْعَقِيدَةِ مُنْذُ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مَضَتْ قَبْلَ هَٰذَا التَّارِيخِ الَّذِي أَجْلِسُ فِيهِ لِتَسْطِيرِ هَٰذِهِ السُّطُورِ ، وَمُنْذُ عَامٍ أَوْ أَكْثَرَ .. وَجَدتُّ نَفْسِي فِي طَرَفٍ أُنَاقِشُ غَيْرِي حَوْلَ فِكْرِ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) وَتِلْمِيذِهِ (ابْنِ الْقَيِّمِ) رَحِمَهُمَا اللَّٰهُ تَعَالَىٰ ، وَيَتَحَدَّثُ الْكَثِيرُونَ حَوْلَ أَنْ يَكُونَ (ابْنُ تَيْمِيَّةَ) مَسْئُولًا عَنْ بَعْضِ الْأَحْكَامِ الَّتِي تُطْلَقُ جُزَافًا الْيَوْمَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْبَعْضِ مِمَّنْ لَا يَهْتَمُّونَ كَثِيرًا بِتَأْصِيلِ الْمَسَائِلِ وَالْبَحْثِ عَنْ جُذُورِهَا ، وَكَذَا أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ أَنْصَحُ لَهُمْ - وَيَنْصَحُ لَهُمْ غَيْرِي - بِمُحَاوَلَةِ اسْتِكْمَالِ أُهْبَةِ التَّفْكِيرِ الْمُسْتَقِلِّ فِي الْإِسْلَامِ وَعُلُومِ الْإِسْلَامِ ، إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَسْتَنْبِطُوا الْأَحْكَامَ بِالْاسْتِقْلَالِ .

وَلَقَدِ اضْطُرِرْتُ - بَعْدَ هَٰذِهِ الْمُنَاقَشَاتِ - إِلَىٰ الْإِحْجَامِ عَنِ الْقَوْلِ فِي

تَقْيِيمِ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) وَ (ابْنِ الْقَيِّمِ) ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْأَوْلَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ الْعُكُوفُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ فِكْرِهِمَا ، وَالتَّعَرُّفُ عَلَىٰ آرَائِهِمَا فِي الْمَسَائِلِ الْخَاصَّةِ بِالْعَقَائِدِ بِالذَّاتِ ، تَارِكًا مَا عَدَا ذَٰلِكَ إِلَىٰ غَيْرِي مِنَ الْمُتَخَصِّصِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْأَدَوَاتِ وَالْمُؤَهِّلَاتِ الْفِكْرِيَّةَ الَّتِي تُؤَهِّلُهُمْ لِلْفَهْمِ فِي الْمَسَائِلِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَالَّتِي ضَمَّتْهَا مُؤَلَّفَاتُ الرَّجُلَيْنِ ، وَتَنَاقَلَهَا الرُّوَاةُ عَنْهُمَا .

وَمِمَّا قَرَأْتُ فِي مَجَالِ الْعَقِيدَةِ ، خَرَجْتُ بِنَتِيجَةٍ ، مُؤَدَّاهَا : أَنَّ (ابْنَ تَيْمِيَّةَ) وَ (ابْنَ الْقَيِّمِ) رَجُلَانِ لَمْ يَدَّعِ أَحَدٌ مِنَ الْخُصُومِ أَوِ الْمُحِبِّينَ لَهُمَا أَنَّهُمَا مَعْصُومَانِ وَمُنَزَّهَانِ عَنِ الْخَطَإِ ، بَلْ هُمَا كَسَائِرِ الرِّجَالِ ، يُخْطِئُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَيُصِيبُ ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُرَدُّ عَلَيْهِ ، إِلَّا مَنْ وَجَبَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّٰهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَفِي إِطَارِ هَٰذِهِ الْقَاعِدَةِ .. رَأَيْتُ أَنَّ لِـ (ابْنِ الْقَيِّمِ) ، وَ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) مِنْ قَبْلِهِ بَعْضَ الْمَسَائِلِ فِي الْعَقِيدَةِ تُؤْخَذُ عَلَيْهِمَا ، فَرَأَيْتُ إِبْرَازَ هَٰذِهِ الْمَسَائِلِ لِأَحِبَّائِهِ قَبْلَ الْغَاضِبِينَ عَلَيْهِ ، قَاصِدًا بِذَٰلِكَ إِحْدَاثَ نَوْعٍ مِنَ التَّوَازُنِ الْفِكْرِيِّ ، لِأَنِّي أَحْسَسْتُ - وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مُخْطِئًا - بِأَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ أَضَرُّوا بِالْفِكْرِ - حَتَّىٰ بِفِكْرِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ نَفْسِهِ - أَرَادُوا أَنْ يُظْهِرُوا أَنَّ (ابْنَ تَيْمِيَّةَ) رَجُلٌ مُنَزَّهٌ عَنِ الْخَطَإِ ، وَأَنَّ مَا يَقُولُهُ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا الصَّوَابَ فَحَسْبَ ؛ فَرَأَيْتُ أَنْ أُقَدِّمَ لِلْقُرَّاءِ بَعْضَ الْمَسَائِلِ الَّتِي جَانَبَ (ابْنُ تَيْمِيَّةَ) وَ (ابْنُ الْقَيِّمِ) فِيهَا الصَّوَابَ ، وَأَخْطَأَ كِلَاهُمَا - أَوْ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الْأَقَلِّ - فِي الْمَنْهَجِ وَالِاسْتِدْلَالِ اللَّذَيْنِ تَرَتَّبَ عَلَيْهِمَا خَطَأٌ فِي النَّتِيجَةِ الَّتِي تَرَتَّبَ عَلَىٰ

الْخَطَإِ فِي الْمَنْهَجِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، وَالْمَسْأَلَةُ الَّتِي نَطْرَحُهَا الْآنَ هِيَ مَسْأَلَةٌ عَقَائِدِيَّةٌ تَتَّصِلُ بِقَضِيَّةِ (بَقَاءِ النَّارِ أَوْ فَنَائِهَا) .

وَأَرَدتُّ أَنْ يَكُونَ عَرْضِي لِهَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ وَلِلْمَذْهَبِ الْحَقِّ فِيهَا .. مِنْ خِلَالِ رِسَالَةٍ كُتِبَتْ فِي عَهْدِ (ابْنِ الْقَيِّمِ) وَ(ابْنِ تَيْمِيَّةَ) مَعَ التَّجَاوُزِ فِي التَّعْبِيرِ قَلِيلًا ، حَيْثُ قَالَ مُؤَلِّفُهَا - وَهُوَ التَّقِيُّ السُّبْكِيُّ رَحِمَهُ اللَّٰهُ - : « صَنَّفْتُهَا فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ » . وَالْجَدِيرُ بِالْقَوْلِ أَنَّ (ابْنَ تَيْمِيَّةَ) - رَحِمَهُ اللَّٰهُ - كَانَ مُعَاصِرًا لِـ (السُّبْكِيِّ) ، لَٰكِنَّهُ تُوُفِّيَ قَبْلَ تَأْلِيفِ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، إِلَّا أَنَّ تِلْمِيذَهُ (ابْنَ الْقَيِّمِ) - رَحِمَهُ اللَّٰهُ - قَدْ تُوُفِّيَ سَنَةَ وَاحِدٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، **أَيْ**: بَعْدَ تَأْلِيفِ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ بِسَنَواتٍ ثَلَاثٍ تَقْرِيبًا .

وَكِتَابُ (ابْنِ الْقَيِّمِ)⟸(حَادِي الْأَرْوَاحِ إِلَىٰ بِلَادِ الْأَفْرَاحِ) هُوَ الْمَعْنِيُّ بِالذَّاتِ لِصَاحِبِ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ .

فَهَٰذَا الْكِتَابُ هُوَ الَّذِي اطَّلَعَ عَلَيْهِ الْمُؤَلِّفُ ، وَرَكَّزَ عَلَيْهِ حِينَ رَأَىٰ أَنَّ صَاحِبَهُ يُؤْمِنُ بِفَنَاءِ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ ، وَجَيَّشَ الْجُيُوشَ الْفِكْرِيَّةَ ، وَجَاءَ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ لِكَيْ يُثْبِتَ هَٰذِهِ الْقَضِيَّةَ ، وَيَرُدَّ عَلَىٰ مُنْكِرِيهَا ، وَيُنَاقِشَ أَدِلَّتَهُمْ بِمَا يَرَىٰ أَنَّ فِيهِ الصَّوَابَ وَالْحَقَّ الصُّرَاحَ الَّذِي يَنْبَغِي الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ ؛ وَقَدْ أَلَّفَ الشَّيْخُ (الصَّنْعَانِيُّ) - الْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ اثْنَيْنِ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ بَعْدَ الْأَلْفِ مِنَ الْهِجْرَةِ - رِسَالَةً فِي الْمَوْضُوعِ نَفْسِهِ ، يَرُدُّ بِهَا عَلَىٰ (ابْنِ الْقَيِّمِ) وَ(ابْنِ

تَيْمِيَّةَ) ، قَرِيبَةً مِنْ هَـٰذِهِ الرِّسَالَةِ فِي أَفْكَارِهَا ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ عِنْدِي أَنَّ (الصَّنْعَانِيَّ) قَرَأَ هَـٰذِهِ الرِّسَالَةَ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا الْآنَ ، وَانْتَفَعَ بِأَفْكَارِهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَشَارَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ .

وَهَـٰذِهِ الرِّسَالَةُ – أَعْنِي رِسَالَةَ الصَّنْعَانِيِّ – قَدِ اخْتَارَ مُؤَلِّفُهَا لَهَا عُنْوَانَ (رَفْعُ الْأَسْتَارِ لِإِبْطَالِ أَدِلَّةِ الْقَائِلِينَ بِفَنَاءِ النَّارِ) ؛ وَقَدْ حَظِيَتْ هَـٰذِهِ الرِّسَالَةُ بِتَحْقِيقٍ وَضَبْطٍ ، وَخَرَجَتْ إِلَىٰ الْوُجُودِ مَطْبُوعَةً ، طَبَعَهَا (الْمَكْتَبُ الْإِسْلَامِيُّ) بِتَحْقِيقِ الشَّيْخِ (مُحَمَّدٍ نَاصِرِ الدِّينِ الْأَلْبَانِيِّ) ، وَالشَّيْخُ (الْأَلْبَانِيُّ) فِي مُقَدِّمَتِهِ وَحَوَاشِيهِ لَا يُوَافِقُ (ابْنَ تَيْمِيَّةَ) وَلَا (ابْنَ الْقَيِّمِ) فِيمَا ذَهَبَا إِلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ بِـ (**فَنَاءِ النَّارِ**) ، وَلَـٰكِنَّهُ اعْتَذَرَ عَنِ (ابْنِ تَيْمِيَّةَ) ، وَوَجَّهَ اللَّوْمَ وَالْعِتَابَ لِـ (ابْنِ الْقَيِّمِ) ، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ (**ابْنُ تَيْمِيَّةَ**) قَدْ رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ احْتِمَالًا لَا يَمْلِكُ الْمَرْءُ لَهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ مَا يُقَوِّيهِ .. إِلَّا أَنَّهُ – عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ – احْتِمَالٌ ؛ أَمَّا (ابْنُ الْقَيِّمِ) .. فَكِتَابُهُ بَيْنَ أَيْدِينَا مَمْلُوءٌ بِالْحَمَاسَةِ وَالدِّفَاعِ الَّذِي لَا يَفْتُرُ عَنْ هَـٰذَا الرَّأْيِ الَّذِي ارْتَآهُ .

وَنَحْنُ نَحْمَدُ لِلشَّيْخِ (الْأَلْبَانِيِّ) مَوْقِفَهُ هَـٰذَا مِنْ إِحْقَاقِ الْحَقِّ ، وَوَضْعِ الْأَمْرِ فِي نِصَابِهِ ، وَلَـٰكِنْ نَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِاللَّوْمِ بِقَدْرِ مَا نَمْلِكُ مِنْ تَوْجِيهِ اللَّوْمِ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ مُصِرٌّ غَايَةَ الْإِصْرَارِ عَلَىٰ النَّيْلِ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ أَمْثَالِ الشَّيْخِ (الْكَوْثَرِيِّ) وَغَيْرِهِ مِمَّنْ يُشَارِكُونَهُ مَرْتَبَتَهُ الْعِلْمِيَّةَ ، وَكَانَ الْعَجَبُ يَأْخُذُنِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَعُودُ فِيهَا لِقِرَاءَةِ مُقَدِّمَةٍ مِنْ مُقَدِّمَاتِ (الْأَلْبَانِيِّ) ، فَلَا أَجِدُ إِلَّا قَلْبًا مُنْطَوِيًا عَلَىٰ مَا لَا نُحِبُّ تِجَاهَ

هَٰؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ ، وَلَقَدْ أَشَرْنَا إِلَىٰ مِثْلِ هَٰذَا فِي نَحْوِ مُقَدِّمَتِنَا لِكِتَابِ (الْحُجَجُ الْجَلِيَّةُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِيمَا وَرَدَ مِنْ كَلَامِهِ فِي الْفَتْوَىٰ الْحَمَوِيَّةِ)[1] لِلشَّيْخِ (شِهَابِ الدِّينِ ابْنِ جَهْبَلٍ) رَحِمَهُ اللَّٰهُ تَعَالَىٰ .

وَلَسْتُ أَسْمَحُ لِنَفْسِي أَنْ أَسْلُكَ هَٰذَا الْمَسْلَكَ الْآنَ ، فَأَتْرُكُ الْعِنَانَ لِلْقَلَمِ لِكَيْ يَنَالَ مِنَ الشَّيْخِ (الْأَلْبَانِيِّ) انْتِصَارًا لِأَعْلَامِ الْإِسْلَامِ ، الَّذِينَ يُحَاوِلُ إِظْهَارَهُمْ دَائِمًا فِي أَعْيُنِ الْعَامَّةِ وَالْبُسَطَاءِ بِمَظْهَرِ أَعْدَاءِ السُّنَّةِ الْمُنَاهِضِينَ لَهَا ، غَفَرَ اللَّٰهُ لَنَا وَلِلشَّيْخِ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاهُ الصَّوَابَ .

وَالرِّسَالَةُ الَّتِي كَتَبَهَا الشَّيْخُ (السُّبْكِيُّ) فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الْقَائِلِينَ بِـ (فَنَاءِ النَّارِ) – عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَوْرَدَهُ صَاحِبُ كِتَابِ (حَادِي الْأَرْوَاحِ) – قَدْ وَرَدَتْ فِي نَحْوِ عِشْرِينَ صَفْحَةً ، قَدْ كَتَبَهَا الْمُؤَلِّفُ مُلْتَزِمًا فِيهَا مَنْهَجَ الِاخْتِصَارِ ، وَبَدَأَهَا بِحَصْرِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ خُلُودِ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ ، وَبَيَّنَ أَنَّ عَدَدَهَا (أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ)[2] آيَةً ، وَاسْتَدْرَكْنَا عَلَيْهِ فِي حِينِهِ بِمَا

---

(١) قُلْتُ : الْكِتَابُ مَطْبُوعٌ بِاسْمِ (الْحَقَائِقُ الْجَلِيَّةُ) ، وَالتَّسْمِيَةُ مِنَ الدُّكْتُورِ طَٰهَٰ حِبِيشِّي ، حَيْثُ إِنَّ الْإِمَامَ ابْنَ جَهْبَلٍ لَمْ يَضَعْ لَهُ اسْمًا ، وَقَدْ قُمْتُ بِإِعَادَةِ كِتَابَةِ هَٰذَا الْكِتَابِ – بِتَحْقِيقِ وَتَعْلِيقِ وَتَقْدِيمِ الدُّكْتُورِ طَٰهَٰ حِبِيشِّي – مَعَ إِضَافَةِ تَعْلِيقَاتِ الدُّكْتُورِ مَحْمُودٍ الطَّنَاحِي عَلَىٰ الْكِتَابِ ، حَيْثُ ذَكَرَ الْإِمَامُ التَّاجُ السُّبْكِيُّ رِسَالَةَ ابْنِ جَهْبَلٍ هَٰذِهِ فِي ضِمْنِ كِتَابِ (طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَّةِ الْكُبْرَىٰ) ، وَمَعَ إِضَافَةِ بَعْضِ التَّعْلِيقَاتِ الْقَلِيلَةِ مِنِّي ، وَتَشْكِيلِ حُرُوفِ الْكِتَابِ بِالْكَامِلِ ، تَمَامًا كَمَا أَفْعَلُ هُنَا فِي هَٰذَا الْكِتَابِ ، وَهُوَ مَوْجُودٌ عَلَىٰ (مَوْقِعِ أَرْشِيفِ) وَ (مَكْتَبَةِ نُورٍ) بِالنِّتِّ . اهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّٰهِ دُسُوقِيٌّ .

(٢) فِي الْأَصْلِ (أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ) بِنَصْبِهِمَا ، وَالصَّوَابُ الرَّفْعُ عَلَى الْخَبَرِيَّةِ لِـ (أَنَّ) . اهـ . نَاصِرٌ .

نَرَاهُ ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ فِي هَـٰذِهِ الْـآيَاتِ عَدَدًا يَقْرِنُ الْـخُلُودَ بِالتَّأْبِيدِ ، ذَكَرَ أَنَّـهُ أَرْبَعٌ ، وَبِاسْتِقْصَائِنَا لِـآيَاتِ الْقُرْءَانِ الْكَرِيـمِ .. وَجَدْنَا أَنَّ الْـإِخْبَارَ عَنْ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ قَدْ وَرَدَ فِيهِ ذِكْرُ الْـخُلُودِ مُقْتَرِنًا بِالتَّأْبِيدِ ثَلَاث مَرَّاتٍ :

١- مَرَّةً فِي النِّسَاءِ

٢- وَأُخْرَىٰ فِي الْـأَحْزَابِ

٣- وَثَالِثَةً فِي الْـجِنِّ .

عَلَىٰ نـحْوِ مَا سَنَعْرِضُ لَهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ .

ثُمَّ بَيَّنَ الشَّيْخُ الْـمُصَنِّفُ الْـآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَىٰ خُلُودِ أَهْلِ الْـجَنَّةِ وَمُكُوثِـهِمْ فِيهَا أَبَدًا ، فِي نَعِيمٍ دَائِمٍ لَـا يَنْقَطِعُ ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ مَوْضُوعَهُ هُوَ إِثْبَاتُ خُلُودِ أَهْلِ الْـجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، وَبَلَغَتِ الْـآيَاتُ الَّتِي اسْتَقْصَاهَا نَـحْوَ الْـمِـاْئَةِ .

ثُمَّ عَقَّبَ الشَّيْخُ بِذِكْرِ الْـأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ خُلُودِ أَهْلِ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَذَكَرَ ثَلَاثَةَ أَحَادِيثَ - كَمَا هُوَ وَاضِحٌ فِي مَوْضِعِهِ - تَتَبَّعْنَاهَا فِي مَظَانِّـهَا ، وَخَرَّجْنَاهَا تَـخْرِيـجًا عِلْمِيًّا يُرِيحُ الْقَارِئَ ، وَيُوَفِّرُ عَلَيْهِ جُهْدَهُ ؛ ثُمَّ صَرَّحَ الشَّيْخُ بِأَنَّ الدَّلِيلَ عَلَىٰ بَقَاءِ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ لَيْسَ ثَـابِتًا فَقَطْ بِالْكِتَابِ وَالـسُّـنَّـةِ ، وَإِنَّـمَـا هُوَ ثَـابِتٌ أَيْضًـا بِالْـإِجْمَاعِ وَبِأَصْلِ الْفِطْرَةِ ؛ وَمَـجْمُوعُ هَـٰذِهِ الْـأَدِلَّـةِ يُـؤَكِّـدُ أَنَّ بَقَاءَ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمْرٌ أَصْبَحَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، مُنْكِرُهُ كَافِرٌ وَلَـا شَكَّ ، إِلَّـا أَنَّ الْـمُصَنِّفَ حَـذَّرَ الْـقَـارِئَ - وَكَرَّرَ التَّحْذِيرَ فِي أَكْـثَـرَ مِنْ مَوْطِنٍ فِي رِسَالَتِهِ - مِنْ تَكْفِيرِ الْـأَعْيَانِ ، فَلِـيَ أَنْ أَقُولَ : إِنَّ الَّذِي يُنْكِرُ كَذَا ، أَوْ كَيْتَ - مِـمَّـا ثَبَتَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ - كَافِرٌ . فَـإِنْ قِـيلَ لِـي : هَـلْ

فُلَانٌ – مِنَ النَّاسِ بِعَيْنِهِ – كَافِرٌ ، لِأَنَّهُ أَنْكَرَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ؟ يَجِبُ عَلَيَّ هُنَا أَنْ أَتَوَقَّفَ ، إِذْ رُبَّمَا يَكُونُ هَـٰذَا الشَّخْصُ بِالذَّاتِ مُتَأَوِّلًا ؛ وَلَا يَجُوزُ لِي وَلَا لِغَيْرِي – عَلَىٰ حَدِّ مَا فَهِمَ السُّبْكِيُّ وَأَعْلَامُ الْمُسْلِمِينَ – أَنْ نُكَفِّرَ إِنْسَانًا مُتَأَوِّلًا .

وَأَيْضًا قَدْ يَكُونُ الَّذِي أَنْكَرَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ جَاهِلًا ، أَوْ مُخْطِئًا ... إِلَىٰ غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُعَدُّ مِنَ الْمَعَاذِيرِ بِالنِّسْبَةِ لَهُ ؛ وَهَـٰكَذَا يُحَذِّرُ السُّبْكِيُّ – فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْطِنٍ – قَارِئِيهِ مِنْ أَنْ يَفْهَمُوا عَنْهُ خَطَأً أَنَّهُ يُكَفِّرُ أَحَدًا بِعَيْنِهِ ، وَهِيَ مِنْهُ بِمَثَابَةِ الْفَتْوَىٰ الَّتِي يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَلْتَزِمَ بِهَا ؛ وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللَّـٰهِ ﷺ ثَابِتٍ فِي الصِّحَاحِ – فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّا نُشِيرُ إِلَيْهِ وَلَا نَسْتَقْصِيهِ – يُؤَكِّدُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُكَفِّرَ أَحَدًا بِعَيْنِهِ ، إِذْ لَوْ وَسَمَ مُسْلِمٌ آخَرَ بِالْكُفْرِ .. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا .

وَنَحْنُ – عَلَىٰ هَـٰذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ – لَا نُكَفِّرُ أَحَدًا بِعَيْنِهِ ، وَنَحْنُ نَنْتَصِحُ بِنَصِيحَةِ السُّبْكِيِّ ، فَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا بِعَيْنِهِ ، وَإِنَّمَا نَقُولُ : مَنْ أَنْكَرَ أَمْرًا مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، وَانْطَوَىٰ قَلْبُهُ عَلَىٰ هَـٰذَا الْإِنْكَارِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مُتَأَوِّلًا ، أَوْ مُخْطِئًا ، أَوْ جَاهِلًا .. فَهُوَ كَافِرٌ .

وَبَعْدَ أَنْ رَكَّزَ الشَّيْخُ السُّبْكِيُّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ مِرَارًا ، وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ لَنَا تَفْصِيلَاتِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ وَالْإِجْمَاعِ وَدَلَالَةَ الْفِطْرَةِ ، بَعْدَ أَنْ فَصَّلَ

الْأَدِلَّةَ جَمِيعَهَا الدَّالَّةَ عَلَىٰ خُلُودِ النَّارِ وَبَقَاءِ أَهْلِهَا فِيهَا ، مِنْ غَيْرِ حَدٍّ أَوْ نِهَايَةٍ لِأَزْمَانٍ .. شَرَعَ فِي نَقْلِ فِكْرَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ مُجْمَلَةً ، وَالرَّدِّ عَلَيْهَا جُزْئِيَّةً جُزْئِيَّةً ، فِي صُورَةِ سُؤَالٍ وَجَوَابٍ ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ مِنْ رِسَالَتِهِ عَلَىٰ هَٰذَا النَّحْوِ الْمُوجَزِ ، وَقَدِ اسْتَشْهَدَ لِكَلَامِهِ ، وَاسْتَنَدَ فِي رَأْيِهِ إِلَىٰ مَا يُعَضِّدُهُ وَيَشْهَدُ لَهُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْءَانِ ، وَدَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ ، وَآرَاءِ الْأَعْلَامِ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا أَمَانَةَ الْعِلْمِ ، وَنَقَلُوهُ إِلَيْنَا ، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

وَالرِّسَالَةُ - عَلَىٰ إِيجَازِهَا - قَوِيَّةٌ فِي بَابِهَا ، سَهْلَةُ الْعِبَارَةِ ، قَرِيبَةُ التَّنَاوُلِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَدَبَّرَ .

وَالَّذِي يَتَأَمَّلُ هَٰذِهِ الرِّسَالَةَ وَمَا كُتِبَ بَعْدَهَا فِي بَابِهَا ، رَدًّا عَلَىٰ شَيْخِ الْإِسْلَامِ وَتِلْمِيذِهِ ابْنِ الْقَيِّمِ .. يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَازِنَ بَيْنَ الْأُمُورِ ، وَيَتَّضِحُ لَهُ الْخَطَأُ وَالصَّوَابُ .

وَأَوْضَحُ آرَاءِ الْمُخَالِفِينَ .. مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي (الْحَادِي) .

وَالَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي (حَادِيـ)ـهِ مِنْ جَوَازِ - بَلْ مِنْ وُجُوبِ - انْتِهَاءِ عَذَابِ النَّارِ إِلَىٰ أَمَدٍ مَحْدُودٍ ، وَخُرُوجِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْعَذَابِ إِلَىٰ النَّعِيمِ .. يُخَالِفُ بِهِ مَنْهَجَهُ الَّذِي أَفْنَىٰ عُمْرَهُ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ ، وَهُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي يُشَابِهُ مَنْهَجَ أُسْتَاذِهِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَىٰ .

وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ - وَمِنْ قَبْلِهِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - يَرْفُضَانِ التَّأْوِيلَ وَإِعْمَالَ الْعَقْلِ فِي النَّصِّ ، حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ .

فَإِذَا قُلْنَا لِلْوَاحِدِ مِنْهُمَا : إِنَّ هُنَاكَ لَفْظٌ وَارِدٌ فِي الْقُرْءَانِ أَوْ فِي السُّنَّةِ

يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ : ١- أَحَدُهُمَا قَرِيبٌ مِنَ الْعَقْلِ ، يَنْصَرِفُ الذِّهْنُ إِلَيْهِ لِأَوَّلِ مَا يَقْرَعُ اللَّفْظُ سَمْعَهُ . ٢- وَالْآخَرُ بَعِيدٌ ، لَا يَنْصَرِفُ الذِّهْنُ إِلَيْهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ . فَمَا الْمَوْقِفُ إِذَا رَأَيْنَا لَفْظًا كَهَٰذَا ، يَدُلُّ السِّيَاقُ ، أَوْ مُقْتَضَىٰ الْعَقْلِ ، أَوِ الْقَرِينَةُ عَلَىٰ أَنَّ الْمَعْنَىٰ الْقَرِيبَ غَيْرُ مُرَادٍ ، وَالْمَعْنَىٰ الْبَعِيدَ هُوَ الْمُرَادُ ؟ . يَجْزِمُ **ابْنُ الْقَيِّمِ** وَابْنُ تَيْمِيَّةَ بِوُجُوبِ رَدِّ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِالْانْصِرَافِ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الثَّانِي ، حَتَّىٰ وَلَوْ دَلَّ عَلَيْهِ أَلْفُ دَلِيلٍ ! .

وَهَٰذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ الشَّائِعُ مِنْ مَذْهَبِهِمَا ، إِلَّا أَنَّهُمَا هُنَا - وَفِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ - يَذْهَبَانِ إِلَىٰ التَّأْوِيلِ وَصَرْفِ النُّصُوصِ عَنْ ظَاهِرِهَا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ دَلِيلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذَا الصَّرْفِ ، إِلَّا مَا يَتَوَهَّمُهُ الْوَهْمُ ، أَوْ يَتَخَيَّلُهُ الْخَيَالُ مِنْ مَوَاقِفَ لَا تَثْبُتُ أَمَامَ النَّقْدِ الْعِلْمِيِّ الصَّحِيحِ .

فَنُصُوصُ الْقُرْءَانِ قَاطِعَةٌ فِي أَنَّ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ مِنَ الْكَافِرِينَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا ، وَحِينَ يَقْرَأُ الْإِمَامَانِ هَٰذِهِ النُّصُوصَ يَقُولَانِ : نَعَمْ ، هَٰذَا حَسَنٌ ، وَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِهِ ، وَلَٰكِنَّ هَٰذَا أَمْرٌ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ ، فَظَاهِرُهُ غَيْرُ مُرَادٍ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ شَيْءٌ آخَرُ ، وَالشَّيْءُ الْآخَرُ هُوَ : أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ مَا دَامَتْ بَاقِيَةً ، وَهِيَ لَنْ تَبْقَىٰ إِلَىٰ أَبَدِ الْآبَادِ ، وَإِنَّمَا سَتَفْنَىٰ . وَهَٰذَا دَرْبٌ (١) مِنَ التَّأْوِيلِ ، لَيْسَ فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ دَلِيلٌ وَاحِدٌ عَلَىٰ وُجُوبِ أَوْ جَوَازِ اصْطِنَاعِهِ ؛ وَالْعَجَبُ مِنْ مَسْلَكِ هَٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ

---

(١) أَظُنُّهَا (ضَرْبٌ) بِالضَّادِ لَا بِالدَّالِ ، أَيْ : نَوْعٌ ، وَبِالدَّالِ لَهَا وَجْهٌ صَحِيحٌ أَيْضًا ، أَيْ : طَرِيقٌ ، وَلَٰكِنَّ الضَّادَ هِيَ الْأَشْهَرُ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ . اهـ . نَاصِرٌ .

هُنَا ! ، فِي حِينَ أَنَّهُمَا - فِي جَمِيعِ الْمَسَائِلِ - يَرْفُضَانِ التَّأْوِيلَ بِغَايَةِ الشِّدَّةِ ، حَتَّىٰ لَوْ دَلَّ عَلَىٰ التَّأْوِيلِ أَلْفُ دَلِيلٍ ! ؛ فَيَالَلَّهِ مِنْ حَيْرَةٍ عَلَىٰ حَيْرَةٍ !

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ : تَجِدُ ابْنَ الْقَيِّمِ وَابْنَ تَيْمِيَّةَ يُخَالِفَانِ أَبْسَطَ قَوَاعِدِ الْمَنْهَجِ الْعَامَّةِ فِي الْإِسْلَامِ ، ذُٰلِكَ : أَنَّ جَمِيعَ الْعُلَمَاءِ يَعْتَبِرُونَ لِلْقُرْءَانِ الصَّدَارَةَ فِي الْأَحْكَامِ ، فَإِذَا دَلَّ الْقُرْءَانُ عَلَىٰ حُكْمٍ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ .. لَا يُمْكِنُ تَأْوِيلُهُ أَوِ الْعُدُولُ عَنْهُ ، إِلَّا إِذَا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ وَرَدَ عَنْهُ مَا يَنْسَخُ هَٰذَا الْحُكْمَ ، أَوْ يُغَيِّرُ فِيهِ ، وَلَا يَكُونُ ذُٰلِكَ إِلَّا فِي إِطَارِ قَوَاعِدِ النَّسْخِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ أُمُورَ الْعَقِيدَةِ لَا يَتَأَتَّىٰ فِيهَا النَّسْخُ بِحَالٍ ، فَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ ، وَلَا مِنَ الْمَفْهُومِ أَنْ يَنْزِلَ نَصٌّ يُؤَكِّدُ خُلُودَ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَأْتِي نَصٌّ آخَرُ يَنْسَخُ هَٰذَا الْخَبَرَ الْعَقَائِدِيَّ ! .

تِلْكَ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ اجْتَزَأْنَا بَعْضَهَا هُنَا بِقَدْرِ كِفَايَةِ الْحَالِ ، وَلَوْ أَنَّنَا نَظَرْنَا إِلَىٰ مَسْلَكِ الرَّجُلَيْنِ هُنَا .. لَوَجَدْنَاهُمَا يَذْهَبَانِ إِلَىٰ تَغْيِيرِ حُكْمٍ عَقَائِدِيٍّ وَرَدَ بِنَصٍّ قَاطِعٍ فِي الْقُرْءَانِ ؛ وَتَكَرَّرَ النَّصُّ حَوَالِيَ أَرْبَعِينَ مَرَّةً ، وَعَزَّزَتْهُ نُصُوصُ السُّنَّةِ ؛ أَقُولُ : نَرَىٰ الرَّجُلَيْنِ يَنْقُضَانِ هَٰذِهِ النُّصُوصَ مُسْتَنِدِينَ : إِمَّا إِلَىٰ قَضَايَا الْوَهْمِ ، أَوْ شُكُوكِ الْخَيَالِ ، أَوْ إِلَىٰ أَقْوَالِ بَعْضِ التَّابِعِينَ الَّتِي يَتَأَتَّىٰ فِيهَا الشَّكُّ ، وَالَّتِي لَمْ تَثْبُتْ أَمَامَ النَّقْدِ الْعِلْمِيِّ ، أَوْ إِلَىٰ أَقْوَالٍ فَرْدِيَّةٍ عَامَّةٍ نُسِبَتْ إِلَىٰ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَفِي سَنَدِهَا مَقَالٌ ؛ اِعْتَمَدُوا عَلَىٰ كُلِّ هَٰذَا - وَمَا يُشَابِهُهُ - فِي إِصْدَارِ أَحْكَامٍ يُعَارِضُهَا النَّصُّ الصَّرِيحُ مِنَ الْقُرْءَانِ وَالسُّنَّةِ .

وَلْنَقْصُرْ حَدِيثَنَا هُنَا عَلَىٰ (الْحَادِي) بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ الْمُسْتَهْدَفُ بِالذَّاتِ لِكَاتِبِ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا ، لِنَنْظُرَ مَا فِيهِ ، وَنَعْرِضَ – بِاخْتِصَارٍ – رَأْيَ صَاحِبِهِ وَأَدِلَّتَهُ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، لِتَكُونَ تَمْهِيدًا وَتَوْطِئَةً ، لِكَيْ يَطْمَئِنَّ الْقَارِئُ لِهَٰذِهِ الرِّسَالَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا ، وَيَثِقَ بِعُمُومِ الْأَحْكَامِ الْوَارِدَةِ فِيهَا ، وَيَطْمَئِنَّ إِلَىٰ صِحَّةِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي أَسْنَدَهَا السُّبْكِيُّ وَعَزَاهَا إِلَىٰ ابْنِ الْقَيِّمِ ، غَفَرَ اللَّٰهُ لَنَا وَلَهُ .

وَقَدْ بَدَأَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي (حَادِيهِ) بِدَعْوَىٰ أَنَّ قَضِيَّةَ بَقَاءِ النَّارِ أَوْ فَنَائِهَا .. كَانَتْ مَوْضِعَ نَظَرِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ ، وَقَدْ رَوَىٰ سَبْعَةَ آرَاءٍ فِي هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؛ أَوَّلُ رَأْيٍ ذَكَرَهُ .. هُوَ الرَّأْيُ الَّذِي أَخَذَ بِهِ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ ، وَهُوَ الْقَوْلُ بِبَقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ دَائِمًا أَبَدًا ؛ وَالشَّيْءُ الْعَجِيبُ أَنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ نَسَبَ هَٰذَا الرَّأْيَ لِفِرْقَتَيْنِ ، رَأَىٰ – مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِهِ – أَنَّهُمَا هُمَا اللَّذَانِ قَالَا بِهَٰذَا الرَّأْيِ دُونَ غَيْرِهِمَا ؛ وَنَرَىٰ أَنَّ اخْتِيَارَهُ لِإِيرَادِ اسْمِ هَاتَيْنِ الْفِرْقَتَيْنِ فِيهِ قَصْدٌ إِلَىٰ تَهْيِيجِ شُعُورِ الدَّهْمَاءِ مِنَ الْعَامَّةِ ، وَإِثَارَةِ حَفِيظَةِ مَنْ لَا صِلَةَ لَهُ بِعُلُومِ الْعَقَائِدِ أَصْلًا ، إِذْ هُوَ يَقُولُ :

أَحَدُهَا [1] : أَنَّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا ، بَلْ مَنْ دَخَلَهَا خُلِّدَ فِيهَا أَبَدَ الْآبَادِ بِإِذْنِ اللَّٰهِ ؛ وَهَٰذَا قَوْلُ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ .

ثُمَّ هُوَ يَذْكُرُ الرَّأْيَ السَّابِعَ مِنْ هَٰذِهِ الْآرَاءِ وَيَتَحَمَّسُ لَهُ ، فَيَقُولُ :

السَّابِعُ : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يُفْنِيهَا رَبُّهَا وَخَالِقُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، فَإِنَّهُ

(١) أَيْ : هَٰذِهِ الْأَقْوَالِ السَّبْعَةِ الْوَارِدَةِ فِي بَقَاءِ النَّارِ . (الْمُحَقِّقُ) .

جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ تَفْنَىٰ وَيَزُولُ عَذَابُهَا .

وَذَكَرَ أَنَّ هَـٰذَا الرَّأْيَ هُوَ رَأْيُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، وَهُوَ رَأْيُ سَلَفِ الْأُمَّةِ ، مِنْ صَحَابَةٍ وَتَابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ ! فَتَأَمَّلْ !! ؛ وَبَيْنَ هَـٰذَيْنِ الرَّأْيَيْنِ - الْأَوَّلِ وَالسَّابِعِ - آرَاءٌ خَمْسَةٌ ذَكَرَهَا فِي (الْحَادِي) ، لَا تُهِمُّ الْقَارِئَ فِي شَيْءٍ ، لِثُبُوتِ فَسَادِهَا عِنْدَ الْجَمِيعِ إِلَّا أَصْحَابَهَا [(١)] .

وَيَسْتَدِلُّ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّـٰهُ تَعَالَىٰ - بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ حَسْبَمَا أَوْرَدَهَا ، وَلَـٰكِنَّهَا - عِنْدَ تَصْنِيفِهَا - يُمْكِنُ حَصْرُهَا فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ .

فَهُوَ يَسْتَدِلُّ أَوَّلًا : بِمَا يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ ، خَاصَّةً كِبَارِ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ .

وَنَحْنُ نَعْرِضُ - أَمَامَ الْقَارِئِ - بَعْضَ مَا نَسَبَهُ إِلَىٰ السَّلَفِ ، وَاعْتَزَّ بِإِسْنَادِهِ ، لِنَرَىٰ مَا فِيهِ ، وَلِنَرَىٰ كَيْفِيَّةَ الِاسْتِدْلَالِ بِهِ : فَهُوَ - مَثَلًا - يَرْوِي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَوْلًا يُسْنِدُهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ إِلَىٰ عُمَرَ ، قَالَ : « رَوَىٰ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ - وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ - فِي تَفْسِيرِهِ الْمَشْهُورِ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : قَالَ عُمَرُ : (لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدْرِ رَمْلٍ عَالِجٍ .. لَكَانَ لَهُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَخْرُجُونَ فِيهِ) .

---

(١) رَاجِع (الْحَادِيَ) لِـ (ابْنِ الْقَيِّمِ) [ص ٣٤٤] وَمَا بَعْدَهَا ، طَ مَكْتَبَةِ الْمَدَنِيِّ وَمَطْبَعَتِهَا ، جُدَّةُ - سُوقُ النَّدَىٰ . (الْمُحَقِّقُ) .

وَقَالَ : حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ الْحَسَنِ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ : (لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ .. لَكَانَ لَهُمْ يَوْمٌ يَخْرُجُونَ فِيهِ) . ذَكَرَ ذَٰلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ : ٢٣] فَقَدْ رَوَاهُ عَبْدٌ - وَهُوَ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْحُفَّاظِ وَعُلَمَاءِ السُّنَّةِ - عَنْ هَٰذَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ : سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَحَجَّاجِ بْنِ مِنْهَالٍ ، كِلَاهُمَا عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ ، وَحَسْبُكَ بِهِ ؛ وَحَمَّادٌ يَرْوِيهِ عَنْ ثَابِتٍ وَحُمَيْدٍ ، وَكِلَاهُمَا يَرْوِيهِ عَنِ الْحَسَنِ ، وَحَسْبُكَ بِهَٰذَا الْإِسْنَادِ جَلَالَةً » (١) .

وَنَحْنُ نَعْجَبُ حِينَ نَرَىٰ أَنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ - مَعَ عُلُوِّ كَعْبِهِ فِي الْعِلْمِ - يُورِدُ هَٰذَا الْإِسْنَادَ لِهَٰذَا النَّصِّ ، ثُمَّ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَىٰ قَضِيَّةٍ مِنْ أَخْطَرِ الْقَضَايَا وَأَجَلِّهَا ، حَيْثُ إِنَّهَا قَضِيَّةٌ عَقَائِدِيَّةٌ ، وَهَٰذَا الْإِسْنَادُ مَعَ هَٰذَا النَّصِّ .. تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِيهِمَا .

أَمَّا الْإِسْنَادُ : فَفِيهِ انْقِطَاعٌ ، ذَٰلِكَ أَنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ وَلَمْ يُدْرِكْهُ ؛ قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي تَرْجَمَتِهِ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : « ... قَالَ ابْنُ سَعْدٍ : وُلِدَ لِسَنَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ ، وَنَشَأَ بِوَادِي الْقُرَىٰ ... رَوَىٰ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَلَمْ يُدْرِكْهُمْ » (٢) .

---

(١) « الْحَادِي / صـ ٣٤٦ » وَمَا بَعْدَهَا . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) « تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ » لِابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ [٢ / ٢٦٣ ، ٢٦٤] طَ مَجْلِسِ دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ النِّظَامِيَّةِ ، الْكَائِنَةِ فِي الْهِنْدِ . (الْمُحَقِّقُ) .

وَإِذَا كَانَ الْحَسَنُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُمَرَ ، ثُمَّ رَوَىٰ عَنْهُ مُبَاشَرَةً .. يَكُونُ السَّنَدُ - بِهَٰذَا الشَّكْلِ - مُنْقَطِعًا ، وَالِانْقِطَاعُ عِلَّةٌ يُرَدُّ بِهَا الْحَدِيثُ فِي الْفُرُوعِ ، فَمَا بَالُكَ فِي الْعَقَائِدِ ؟! (١) .

وَابْنُ الْقَيِّمِ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ هَٰذَا الْقَوْلَ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ عُمَرَ مِنْ طَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِيهِمَا هَٰذَا الِانْقِطَاعُ .. اِسْتَشْعَرَ الضَّعْفَ مِنْ هَٰذِهِ النَّاحِيَةِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْبُرَهُ بِقَوْلٍ خَطَابِيٍّ (٢) لَا يَنْفَعُهُ فِي مَجَالِ الْعِلْمِ ، إِذِ الِانْقِطَاعُ لَا يَجْبُرُهُ إِلَّا إِزَالَةُ الْعِلَّةِ نَفْسِهَا مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ ، قَالَ : « وَالْحَسَنُ - وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُمَرَ - فَإِنَّمَا رَوَاهُ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ ، وَلَوْ لَمْ يَصِحَّ عِنْدَهُ ذَٰلِكَ عَنْ عُمَرَ .. لَمَا جَزَمَ بِهِ وَقَالَ : (وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ...) ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ لَمْ يُحْفَظْ عَنْ عُمَرَ .. فَتَدَاوُلُ هَٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ لَهُ غَيْرَ مُقَابِلِينَ لَهُ بِالْإِنْكَارِ وَالرَّدِّ ، مَعَ أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ بِدُونِ هَٰذَا ؛ فَلَوْ كَانَ هَٰذَا الْقَوْلُ - عِنْدَ هَٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ - مِنَ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِكِتَابِ اللَّٰهِ ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَإِجْمَاعِ الْأَئِمَّةِ .. لَكَانُوا أَوَّلَ مُنْكِرٍ لَهُ » (٣) .

وَابْنُ الْقَيِّمِ - بِهَٰذَا الْقَوْلِ - يَلْمَسُ عِلَّةَ الضَّعْفِ فِي الْخَبَرِ ، وَلَا يَنْفَعُ بَعْدَهَا مَا حَاوَلَهُ مِنْ إِزَالَةِ هَٰذَا الضَّعْفِ بِهَٰذَا الْأُسْلُوبِ الْفَضْفَاضِ ، الَّذِي

(١) رَاجِعْ « تَدْرِيبَ الرَّاوِي » لِلسُّيُوطِيِّ ، تَحْقِيقُ وَمُرَاجَعَةُ عَبْدِ الْوَهَّابِ عَبْدِ اللَّطِيفِ ، طَ دَارِ إِحْيَاءِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، جـ ١ / صَ ٢٠٧ ، ٢٠٨ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) أَيْ : عَاطِفِيٍّ حَمَاسِيٍّ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ فِي الْعِلْمِ الْمَبْنِيِّ عَلَىٰ الدَّلِيلِ الصَّحِيحِ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّٰهِ .

(٣) « الْحَادِي / صَ ٣٤٧ » . (الْمُحَقِّقُ) .

لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالطَّرَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُعْتَرَفِ بِهَا عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ .

ثُمَّ لَا يَنْفَعُ أَيْضًا – فِي إِزَالَةِ هَـٰذَا الْخَلَلِ الْكَائِنِ فِي الْإِسْنَادِ – هَـٰذَا الْإِطْرَاءُ وَالْمَدِيحُ اللَّذَانِ يَكِيلُهُمَا ابْنُ الْقَيِّمِ – بِغَيْرِ مُبَرِّرٍ – عَلَىٰ هَـٰذَا الْإِسْنَادِ الْمُنْقَطِعِ ، فَالْإِسْنَادُ إِلَىٰ الْحَسَنِ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ ، وَالْعِلَّةُ هِيَ مَا بَعْدَ الْحَسَنِ إِلَىٰ عُمَرَ ؛ فَهُوَ يَمْدَحُ الرِّجَالَ الَّذِينَ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ فِي الْإِسْنَادِ إِلَىٰ الْحَسَنِ ، وَلَيْسَ هَـٰذَا مَحَلَّ نِزَاعٍ ، وَهُوَ يَعْلَمُ ذَٰلِكَ ! ، وَالنِّزَاعُ هُوَ فِي مَا بَعْدَ الْحَسَنِ إِلَىٰ عُمَرَ ؛ فَمَا الدَّاعِي – إِذَنْ – أَنْ يَقُولَ ابْنُ الْقَيِّمِ : « عَنْ حَمَّادِ ابْنِ سَلَمَةَ ، وَحَسْبُكَ بِهِ » ؟! ، وَمَا الدَّاعِي أَنْ يَقُولَ عَنِ الْإِسْنَادِ إِلَىٰ الْحَسَنِ : « وَحَسْبُكَ بِهَـٰذَا الْإِسْنَادِ جَلَالَةً » ؟! ؛ إِنْ كَانَ يَقْصِدُ الْإِسْنَادَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ – وَلَا أَظُنُّ ذَٰلِكَ – .. فَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْعَةَ [1] ، وَقَالَ مَا لَيْسَ لَهُ ؛ وَإِنْ كَانَ يَقْصِدُ الْإِسْنَادَ إِلَىٰ الْحَسَنِ .. فَقَدْ حَكَمَ عَلَىٰ جُزْءِ الْإِسْنَادِ ، وَهَـٰذَا أَمْرٌ لَمْ نَرَهُ عِنْدَ غَيْرِهِ ! .

وَقَدِ اسْتَنْبَطَ مِنَ النَّصِّ نَتِيجَةً لَمْ يُوَافِقْهُ أَحَدٌ عَلَيْهَا ، وَنَسَبَ هَـٰذَا الِاسْتِنْبَاطَ إِلَىٰ سَلَفِ الْأُمَّةِ ، قَالَ : « وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ قَالَ هَـٰذَا الْقَوْلَ عَنْ عُمَرَ وَنَقَلَهُ عَنْهُ .. إِنَّمَا أَرَادَ بِذَٰلِكَ جِنْسَ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ؛ فَأَمَّا قَوْمٌ أُصِيبُوا بِذُنُوبِهِمْ .. فَقَدْ عَلِمَ هَـٰؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَأَنَّهُمْ لَا

---

(١) قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْخَوَارِزْمِيُّ فِي [الْمُغْرِبُ فِي تَرْتِيبِ الْمُعْرِبِ : ج ١/ ص ٤٥٧ – بَابُ النُّونِ مَعَ الْجِيمِ] مَا نَصُّهُ :

«(ن ج ع) : (النُّجْعَةُ) اسْمٌ مِنْ الْانْتِجَاعِ ، وَهُوَ طَلَبُ الْكَلَأِ ، وَمِنْهُ : أَبْعَدتَّ فِي النُّجْعَةِ ، وَمَنْ أَجْدَبَ جَنَابُهُ انْتَجَعَ » . اهـ . نَاصِرٌ .

يَلْبَثُونَ قَدْرَ رَمْلِ عَالِجٍ ، وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَلَفْظُ ﴿ أَهْلُ النَّارِ ﴾ لَا يَخْتَصُّ بِالْمُوَحِّدِينَ ، بَلْ يَخْتَصُّ بِمَنْ عَدَاهُمْ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ أَمَّا أَهْلُ النَّارِ - الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا - فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ﴾ »(١) .

وَهَٰذِهِ النَّتِيجَةُ الَّتِي اسْتَنْتَجَهَا ابْنُ الْقَيِّمِ عَلَىٰ حَسَبِ هَوَاهُ ، وَأَمْلَاهَا عَلَيْهِ خَيَالُهُ .. لَمْ يَقُلْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَهُ !! .

وَالْقَارِئُ إِذَا وَضَعَ هَٰذِهِ النَّتِيجَةَ بِجُوَارِ النَّصِّ .. لَأَمْكَنَهُ أَنْ يُلَاحِظَ عَلَيْهَا وَعَلَيْهِ عِدَّةَ مُلَاحَظَاتٍ فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ :

١- الْأُولَىٰ : أَنَّ هَٰذِهِ نَتِيجَةٌ لَهَا صِلَةٌ بِالْعَقِيدَةِ ، اِسْتَنْبَطَهَا صَاحِبُهَا مِنْ نَصٍّ لَمْ يُسَلِّمْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِصِحَّتِهِ .

٢- ثَانِيًا : أَنَّ هَٰذِهِ النَّتِيجَةَ - عَلَىٰ فَرْضِ صِحَّةِ النَّصِّ - لَيْسَتْ هِيَ أَقْرَبَ النَّتَائِجِ الَّتِي يُمْكِنُ اسْتِنْبَاطُهَا مِنَ النَّصِّ ، إِذْ بِالْإِمْكَانِ أَنْ نَقُولَ مَثَلًا :

---

(١) الْـ« حَادِي / صَ ٣٤٧ » . (الْمُحَقِّقُ) .

قُلْتُ : وَأَمَّا الْحَدِيثُ .. فَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ : ٨٢ - بَابُ إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ وَإِخْرَاجِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ ، وَهَٰذَا نَصُّ الْحَدِيثِ بِسَنَدِهِ :

« ٣٠٦- (١٨٥) وَحَدَّثَنِي نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيُّ، حَدَّثَنَا بِشْرٌ يَعْنِي ابْنَ الْمُفَضَّلِ، عَنْ أَبِي مَسْلَمَةَ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَلَٰكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا فَحْمًا ، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَىٰ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ﴾ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ ! » . اِهـ . نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّهِ .

(أَ) إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ هَـٰذَا الْقَوْلَ قَاصِدًا بِهِ عُصَاةَ الْأُمَّةِ ، وَإِنَّ هَـٰؤُلَاءِ مَهْمَا بَقَوْا فِي النَّارِ .. فَإِنَّ آمَالَهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْيَوْمِ الَّذِي سَيَخْرُجُونَ فِيهِ ؛ وَقَدِ اسْتَشْعَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ نَفْسُهُ هَـٰذَا الِاحْتِمَالَ ، وَأَرَادَ أَنْ يُشَاغِبَ فِي رَدِّهِ بِأُسْلُوبٍ خَطَابِيٍّ لَا يَنْفَعُ .

(بَ) إِنَّ هَـٰذَا النَّصَّ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا - عَلَىٰ فَرْضِ صِحَّتِهِ كَذَٰلِكَ - يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ : إِنَّ عُمَرَ يَقُولُ : إِنَّ أَهْلَ النَّارِ سَيَبْقَوْنَ فِي النَّارِ إِلَىٰ أَبَدِ الْآبَادِ ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ لَهُمْ مُدَّةً مَحْدُودَةً يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ عِنْدَهَا .. لَكَانَ لَهُمْ أَمَلٌ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ ، وَلَـٰكِنْ لَمَا كَانَ بَقَاؤُهُمْ مُدَّةً مَحْدُودَةً غَيْرَ وَارِدٍ .. يَئِسَ أَهْلُ الْكُفْرِ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ ، لِقَضَاءِ اللَّٰهِ عَلَيْهِمْ بِالْبَقَاءِ فِيهَا أَبَدًا .

إِنَّ النَّصَّ فِيهِ احْتِمَالَاتٌ ، لَيْسَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنْهَا هُوَ أَوْلَىٰ مِنْ غَيْرِهِ لِلْأَخْذِ بِهِ ؛ عَلَىٰ أَنَّ ضَعْفَ السَّنَدِ وَانْقِطَاعَهُ يَكْفِي وَحْدَهُ لِرَدِّهِ ، وَلَـٰكِنَّا ذَهَبْنَا إِلَىٰ الْحَدِيثِ عَنِ الِاحْتِمَالَاتِ وَالْبَدَائِلِ الَّتِي يُمْكِنُ فَهْمُهَا مِنَ النَّصِّ مُجَارَاةً لِابْنِ الْقَيِّمِ فِي حَدِيثِهِ فَقَطْ .

وَابْنُ الْقَيِّمِ قَدِ اسْتَشْعَرَ أَنَّ هُنَاكَ إِشْكَالَاتٍ سَتَرِدُ عَلَيْهِ ، فَحَاوَلَ أَنْ يُورِدَ بَعْضَهَا وَيَرُدَّ عَلَيْهَا ، وَالْإِشْكَالَاتُ قَوِيَّةٌ ، لِأَنَّ فِيهَا مُعَارَضَةً بِنَصٍّ لَا تَصِحُّ نِسْبَتُهُ إِلَىٰ صَحَابِيٍّ .. لِآيَاتِ الْقُرْءَانِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَالْقَطْعِيَّةِ فِي دَلَالَتِهَا [1] .

وَهَـٰكَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا مَدَىٰ الضَّعْفِ وَالْوَهَنِ فِي اعْتِمَادِ ابْنِ الْقَيِّمِ عَلَىٰ هَـٰذَا النَّوْعِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ الَّذِي عَزَاهُ إِلَىٰ سَلَفِ الْأُمَّةِ ، مِنْ صَحَابَةٍ وَتَابِعِينَ

(١) أُنْظُرِ الـ(حَادِيَ / ص ٣٤٧) . (الْمُحَقِّقُ) .

وَتَابِعِيهِمْ .

وَأَنْتَ حِينَ تَرَىٰ اسْتِهْلَالَهُ لِهَٰذَا الدَّلِيلِ .. تَجِدُ عِبَارَاتٍ تَتَخَيَّلُ مَعَهَا - لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ - أَنَّكَ أَمَامَ **نَوْعٍ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ** لَا يَقْبَلُ النِّقَاشَ فَضْلًا عَنِ الرَّدِّ ، فَهُوَ يَقُولُ بَعْدَ أَنْ يَذْكُرَ الرَّأْيَ فِي فَنَاءِ النَّارِ وَعَدَمِ بَقَائِهَا :

« قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ : وَقَدْ نُقِلَ هَٰذَا الْقَوْلُ عَنْ عُمَرَ ، وَابْنِ مَسْعُودٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَأَبِي سَعِيدٍ ، وَغَيْرِهِمْ »[١] .

وَنَحْنُ حِينَ نَقْرَأُ هَٰذَا الِاسْتِدْلَالَ الْمُشْتَمِلَ عَلَىٰ أَسْمَاءِ أَعْلَامٍ صَرَّحَ ابْنُ الْقَيِّمِ بِبَعْضِهَا ، وَلَوَّحَ بِالْبَعْضِ الْآخَرِ .. نَجِدُ أَنْفُسَنَا أَمَامَ أَمْرٍ ضَخْمٍ لَا نَمْلِكُ رَدَّهُ أَوِ التَّحَدُّثَ فِيهِ ، إِلَّا أَنَّنَا بِفَحْصِ هَٰذَا الْقَوْلِ .. نَجِدُهُ هَشًّا ، لَا يَسْتَنِدُ إِلَىٰ عِلْمٍ ، وَلَا يَرْتَكِزُ عَلَىٰ مَنْطِقٍ .

وَابْنُ كَثِيرٍ - وَهُوَ غَيْرُ مُتَّهَمٍ فِي عَدَائِهِ[٢] لِابْنِ تَيْمِيَّةَ أَوِ ابْنِ الْقَيِّمِ - لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَحْكِيَ هَٰذِهِ الْأَقْوَالَ عَلَىٰ الْجُمْلَةِ ، وَيَرُدَّهَا عَلَىٰ الْجُمْلَةِ كَذَٰلِكَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ التَّفْصِيلِ أَوِ التَّحْلِيلِ ، لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ - مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِهِ - لَا تَحْتَمِلُ تَفْصِيلًا وَلَا تَحْلِيلًا ؛ **قَالَ** - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِآيَةِ هُودٍ الَّتِي سَنُشِيرُ إِلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا

(١) الْـ« حَادِي : ص ٣٤٦ » . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) لِعَلَّهَا كُتِبَ خَطأً سَهْوًا ، وَالصَّوَابُ : (فِي حُبِّهِ) ، لِأَنَّهُ كَانَ تِلْمِيذَهُ الْمُحِبَّ لَهُ . نَاصِرٌ .

يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ [هود : ١٠٦ – ١٠٧] : « فَقَدْ رُوِيَ فِي تَفْسِيرِهَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَابْنِ مَسْعُودٍ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَجَابِرٍ ، وَأَبِي سَعِيدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ...وَعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ ، وَالشَّعْبِيِّ ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ التَّابِعِينَ ... وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَإِسْحَٰقَ بْنِ رَاهُويَهْ ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ ، فِي أَقْوَالٍ غَرِيبَةٍ ؛ وَوَرَدَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ فِي مُعْجَمِ الطَّبَرَانِيِّ الْكَبِيرِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ صُدَيِّ بْنِ عَجْلَانَ الْبَاهِلِيِّ ، وَلَٰكِنَّ سَنَدَهُ ضَعِيفٌ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ »(١) .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الِاسْتِدْلَالِ – أَوْ تَوَهُّمِ الِاسْتِدْلَالِ – عِنْدَ ابْنِ الْقَيِّمِ .. يَعُودُ إِلَىٰ مَا تَمَسَّكَ بِهِ مِنْ بَعْضِ آيِ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ .

وَهُوَ قَدَّ قَلَّبَ صَفَحَاتِ الْمُصْحَفِ الْمُبَارَكِ ، وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ آيَاتٍ ظَنَّ أَنَّهَا تُسَاعِدُهُ فِي مَا ارْتَآهُ مِنْ آرَاءٍ هَيَّأَهَا الْوَهْمُ ، وَسَاعَدَهُ عَلَيْهَا الْخَيَالُ .

وَنَحْنُ نَذْكُرُ أَقْوَىٰ مَا تَمَسَّكَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ ، وَنُشِيرُ إِلَىٰ مَا ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ مَوَاطِنِ الْحَقِّ فِي فَهْمِهِ .

وَأَوَّلُ مَا تَمَسَّكَ بِهِ مِنْ آيِ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ .. تِلْكَ الْآيَاتُ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ عَذَابِ النَّارِ ، ثُمَّ تُتْبِعُهُ بِـ ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود : ١٠٧] ، وَقَدْ وَرَدَ هَٰذَا الِاسْتِثْنَاءُ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنَ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ :

أَوَّلُهُمَا : فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

---

(١) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ [جـ٢ / صـ ٤٦٠] طَ عِيسَىٰ الْحَلَبِيِّ . (الْمُحَقِّقُ) .

يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨] .

وَثَانِيَتُهُمَا : فِي سُورَةِ هُودٍ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٦ - ١٠٧] .

وَابْنُ الْقَيِّمِ يَفْهَمُ مِنْ هَـٰذَا الْـاسْتِثْنَاءِ فِي الْـآيَةِ الْـأُولَىٰ - وَنَحْوُهَا فِي الْـآيَةِ الثَّانِيَةِ - شَيْئًا وَاحِدًا لَـا يُرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ سِوَاهُ .. **وَهُوَ** : أَنَّ النَّارَ لَـا تَبْقَىٰ عَلَىٰ التَّأْبِيدِ بِمَشِيئَةِ اللَّٰهِ بِغَيْرِ انْتِهَاءٍ ، وَإِنَّمَا سَتَبْقَىٰ زَمَنًا - طَالَ هَـٰذَا الزَّمَنُ أَوْ قَصُرَ - ثُمَّ تَفْنَىٰ بَعْدَهُ ، وَيَخْرُجُ أَهْلُهَا مِنَ الْعَذَابِ .

وَهَـٰذَا الرَّأْيُ قَدْ خَالَفَ بِهِ جُمْهُورَ الْـأُمَّةِ ، وَلَـمْ يَقْبَلْ فَهْمًا وَاحِدًا فِي الْـآيَةِ فَهِمَهُ غَيْرُهُ مِنَ السَّابِقِينَ عَلَيْهِ ، أَوِ الْـمُعَاصِرِينَ لَهُ .

وَالشَّيْءُ الْعَجِيبُ أَنَّهُ عَمَدَ إِلَىٰ بَعْضِ التَّصَوُّرَاتِ فِي الْـآيَةِ وَالْـآرَاءِ الَّتِي سُبِقَ بِهَا ، وَالَّتِي رَأَىٰ فِيهَا ضَعْفًا لُغَوِيًّا أَوْ مَنْطِقِيًّا .. وَانْقَضَّ عَلَيْهَا بِالرَّدِّ وَالْـمُنَاقَشَةِ ، وَلَـمْ يُجَدِّدْ فِي رَدِّهِ ، وَلَـا فِي نِقَاشِهِ ، إِذْ إِنَّ مَا أَوْرَدَهُ مِنْ حُجَجٍ يَدْفَعُ بِهَا هَـٰذِهِ الْـأَقْوَالَ .. قَدْ ذُكِرَتْ قَبْلَهُ ! .

وَأَيًّا مَا كَانَ الْـأَمْرُ .. فَإِنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ رَأَىٰ أَنَّهُ بِمِثْلِ هَـٰذَا الِـاسْتِثْنَاءِ - أَوْ عَلَىٰ الْـأَصَحِّ - بِمِثْلِ فَهْمِهِ فِي هَـٰذَا الِـاسْتِثْنَاءِ .. قَدْ ظَفِرَ بِالْـحُجَجِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي تَنْصُرُ مَذْهَبَهُ ، وَتُوقِفُهُ عَلَىٰ أَرْضٍ ثَابِتَةٍ ، وَتَمْنَحُهُ يَدًا قَوِيَّةً لِلضَّرْبِ فِي

صُدُورِ خُصُومِهِ [١] .

وَنَحْنُ لَا نَسْتَقْصِي آرَاءَ الْعُلَمَاءِ فِي فَهْمِهِمْ هَٰذَا الْاسْتِثْنَاءَ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ تَبْلُغُ (نَيِّفًا وَثَلَاثِينَ) [٢] رَأْيًا – كَمَا سَيَذْكُرُهُ السُّبْكِيُّ فِيمَا بَعْدُ – وَلَيْسَ فِيهَا مِثْلُ رَأْيِ ابْنِ الْقَيِّمِ ، أَوْ شَيْخِهِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ .

لَسْنَا نُرِيدُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ هَٰذِهِ الْآرَاءَ ، وَإِنَّمَا نَذْكُرُ رَأْيًا وَاحِدًا ، نَظُنُّ ظَنًّا غَالِبًا أَنَّهُ هُوَ الصَّوَابُ ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْقُرْءَانِ نَفْسُهُ يَحْتَمِلُ كُلَّ رَأْيٍ صَوَابٍ يُضَافُ إِلَىٰ هَٰذَا الرَّأْيِ الَّذِي ارْتَأَيْنَاهُ .

إِنَّ هَٰذَا الِاسْتِثْنَاءَ الْوَارِدَ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ وَالثَّانِيَةِ .. قَدْ أَتَىٰ بَعْدَ مَا يُفِيدُ الْخُلُودَ وَالدَّوَامَ ، وَالْخُلُودُ وَالدَّوَامُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ [٣] مَحَلَّ جَدَلٍ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ ، **فَيَقُولُ قَائِلٌ** : إِنَّ الْبَقَاءَ لِلَّٰهِ وَحْدَهُ ، وَلَا يَجُوزُ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يُشَارِكَهُ هَٰذِهِ الصِّفَةَ مَهْمَا كَانَ هَٰذَا الْمَخْلُوقُ ، وَمَهْمَا كَانَ التَّبْرِيرُ الَّذِي يُسَوِّغُ لَهُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالْبَقَاءِ .

وَهَٰذَا الْمُنْزَلَقُ هُوَ الَّذِي انْحَدَرَ إِلَيْهِ مِثْلُ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ ، فَهُوَ حِينَ قَالَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ .. لَمْ يَقُلْ بِهِ إِلَّا مَخَافَةَ أَنْ يُلْزِمَهُ خُصُومُهُ بِأَنَّ

(١) رَاجِعِ الْـ(حَادِيَ : صَ ٣٤٧) وَمَا بَعْدَهَا . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) « النَّيِّفُ » يُكَنَّىٰ بِهِ عَدَدٌ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَىٰ الثَّلَاثَةِ ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا بَعْدَ الْعُقُودِ ، وَبَعْدَ الْمِائَةِ وَالْأَلْفِ : (عَشَرَةٌ وَنَيِّفٌ) ، (عِشْرُونَ وَنَيِّفٌ) ، (مِائَةٌ وَنَيِّفٌ) ، (أَلْفٌ وَنَيِّفٌ) ؛ أَيْ : أَكْثَرَ مِنْ ... وَزِيَادَةً عَلَىٰ ... إِلَخِ . اهـ . نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّٰهِ .

(٣) وَحَّدَ الضَّمِيرَ فَلَمْ يَقُلْ (يَكُونَا) بِالتَّثْنِيَةِ .. لِأَنَّ (الْخُلُودَ وَالدَّوَامَ) وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَىٰ . اهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّٰهِ دُسُوقِيٌّ .

صِفَةَ الْبَقَاءِ عِنْدَهُ قَدْ أَصْبَحَتْ وَصْفًا مُشْتَرَكًا يُطْلَقُ عَلَىٰ اللَّٰهِ وَعَلَىٰ بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ ! فَفَرَّ مِنْ هَـٰذَا إِلَىٰ الْقَوْلِ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، ظَنًّا مِنْهُ بِأَنَّ فِكْرَهُ قَدْ خَلُصَ لَهُ مِنْ شَوَائِبِ الِاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ ، أَوِ الْإِلْزَامِ لِمَذْهَبِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي انْخَدَعَ بِهَـٰذِهِ الْمَقُولَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، وَلَـٰكِنَّ بَعْضَ جَهَابِذَةِ الْمُعْتَزِلَةِ قَدِ انْخَدَعُوا أَيْضًا بِمَقُولَةٍ مُمَاثِلَةٍ ، فَذَهَبُوا إِلَىٰ نَحْوِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جَهْمٌ .

وَمِنْ أَجْلِ هَـٰذَا – وَكَثِيرٍ غَيْرِهِ – يَتَّضِحُ لَنَا إِعْجَازُ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ – بِأَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ – فِي مِثْلِ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ .

فَرَبُّ الْعِزَّةِ – جَلَّ شَأْنُهُ – قَدْ بَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ أَمْرَيْنِ : ١– بَيْنَ بَقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ دَارَيْنِ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَ٢– بَيْنَ بَقَاءِ اللَّٰهِ – عَزَّ وَجَلَّ – إِلَـٰهًا خَالِقًا قَيُّومًا ، لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وَالْكُلُّ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ؛ فَبَقَاءُ دَارِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ .. إِنَّمَا هُوَ بِمَشِيئَةِ اللَّٰهِ لِهَـٰذَا الْبَقَاءِ ، فَبَقَاؤُهُمَا لِغَيْرِهِمَا ، أَيْ : لِإِبْقَاءِ اللَّٰهِ لَهُمَا وَمَشِيئَتِهِ لِهَـٰذَا الْبَقَاءِ ، وَلَوْ شَاءَ لَأَبْطَلَ هَـٰذَا الْبَقَاءَ وَحَوَّلَ الْكُلَّ إِلَىٰ فَنَاءٍ ؛ وَهَـٰذِهِ قَضِيَّةٌ وَاضِحَةٌ بِذَاتِهَا ، فَالَّذِي يَبْقَىٰ بِمَشِيئَةِ غَيْرِهِ .. يُمْكِنُ أَنْ يَفْنَىٰ بِهَـٰذِهِ الْمَشِيئَةِ كَذَٰلِكَ ، إِلَّا أَنَّ الَّذِي أَبْقَاهُ بِمَشِيئَتِهِ رُبَّمَا لَا يَشَاءُ إِفْنَاءَهُ ، فَيَسْتَمِرَّ لَهُ الْبَقَاءُ ، لَـٰكِنَّهُ بَقَاءٌ خَارِجِيٌّ ، وَلَيْسَ بَقَاءً ذَاتِيًّا .

وَمِثْلُ هَـٰذَا الْبَقَاءِ يُخَالِفُ بَقَاءَ اللَّٰهِ – عَزَّ وَجَلَّ – مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ ، فَبَقَاءُ اللَّٰهِ – عَزَّ وَجَلَّ – لِذَاتِهِ ، لَا يَسْتَمِدُّهُ لِغَيْرِهِ ، وَحَاشَاهُ ، تَمَامًا كَمَا

نَقُولُ : « اللَّهُ مَوْجُودٌ ، وَمُحَمَّدٌ مَوْجُودٌ » ، فَنَحْنُ نُطْلِقُ لَفْظَ الْوُجُودِ عَلَىٰ « اللَّهِ » وَعَلَىٰ « مُحَمَّدٍ » ، فَهَلْ وُجُودُ مُحَمَّدٍ – فِي حَقِيقَتِهِ – مُسَاوٍ لِوُجُودِ اللَّهِ فِي حَقِيقَتِهِ ؟ ؛ لَمْ يَقُلْ بِهَٰذَا أَحَدٌ ، وَإِنَّمَا الْجَمِيعُ قَائِلٌ بِأَنَّ الْاشْتِرَاكَ فِي الِاسْمِ لَا يَعْنِي الِاشْتِرَاكَ فِي الْمُسَمَّىٰ .

وَمِنْ هُنَا نَجِدُ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ الْأَفَاضِلِ قَدْ ذَهَبَ إِلَىٰ هَٰذَا الرَّأْيِ ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ بِعِزَّةٍ تُضْفِي عَلَيْهِ نَوْعًا مِنَ الْمَكَانَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالتَّمَكُّنِ مِنَ الْقُلُوبِ .

يَقُولُ الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ الْآلُوسِيُّ رضي الله عنه : « وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ هَٰذَا الِاسْتِثْنَاءَ مَعْذُوقٌ [1] بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ رَفْعَ الْعَذَابِ ، أَيْ : يُخَلَّدُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَوْ شَاءَ .

وَفَائِدَتُهُ : إِظْهَارُ الْقُدْرَةِ وَالْإِعْلَانُ بِأَنَّ خُلُودَهُمْ إِنَّمَا كَانَ .. لِأَنَّ اللَّهَ – تَعَالَىٰ شَأْنُهُ – قَدْ شَاءَهُ ، وَكَانَ مِنَ الْجَائِزِ الْعَقْلِيِّ فِي مَشِيئَتِهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ ، وَلَوْ عَذَّبَهُمْ لَا يُخَلِّدُهُمْ ، وَأَنَّ ذَٰلِكَ لَيْسَ بِأَمْرٍ وَاجِبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُقْتَضَىٰ مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ » [2] .

وَهَٰذَا الْفَهْمُ يَدْفَعُ فِي وَجْهِ الْمُعْتَزِلَةِ الْقَائِلِينَ بِوُجُوبِ اسْتِمْرَارِ هَٰذَا الْعَذَابِ ، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ إِنْهَائُهُ ، حَتَّىٰ وَلَوْ تَدَخَّلَتِ الْإِرَادَةُ الْإِلَٰهِيَّةُ ! .

وَفِي هَٰذَا الْفَهْمِ كَذَٰلِكَ دَفْعٌ فِي وَجْهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَتِّمُونَ إِنْهَاءَ النَّارِ وَفَنَائَهَا فِي وَقْتٍ مَا ، مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ فِي بَقَائِهَا مُشَارَكَةٌ لِلَّهِ فِي بَعْضِ

---

(١) أَيْ : (مَوْسُومٌ وَمَخْصُوصٌ) ، كَمَا فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ . اهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّهِ .

(٢) تَفْسِيرُ (رُوحُ الْمَعَانِي : جـ ٨ / ص ٢٧) . (الْمُحَقِّقُ) .

صِفَاتِهِ .

وَالشَّيْءُ الَّذِي يَلْفِتُ النَّظَرَ حَقًّا .. أَنَّ الْقُرْءَانَ يُورِدُ مِثْلَ هَـٰذَا الِاسْتِثْنَاءِ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ يَتَوَهَّمُ الْمَرْءُ مِنْهَا أَنَّ حَمْلَ الْجَائِزِ عَلَىٰ أَمْرٍ وَاحِدٍ ، دُونَ الْأَمْرِ الَّذِي يُقَابِلُهُ إِذَا شَاءَ اللَّهُ ذَٰلِكَ .. يَجْعَلُ هَـٰذَا الشَّيْءَ يُشَارِكُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بَعْضَ صِفَاتِهِ ! .

وَنَجِدُ ذَٰلِكَ ظَاهِرًا فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٖ ١٠٨ ﴾ [هود : ١٠٨] .

وَهَـٰذِهِ الْآيَةُ - كَمَا نَرَىٰ - تُشْبِهُ غَايَةَ الْمُشَابَهَةِ - مِنْ حَيْثُ الِاسْتِثْنَاءُ وَمَا قَبْلَهُ - الْآيَاتِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ .

فَفِيهَا أَوَّلًا : التَّصْرِيحُ بِالْخُلُودِ .

وَفِيهَا ثَانِيًا : ذِكْرُ الِاسْتِثْنَاءِ .

وَبِرُغْمِ هَـٰذَا .. فَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ (قَطْعًا لِدَابِرِ النِّقَاشِ وَالْجِدَالِ) - أَنَّ هَـٰذَا الْعَطَاءَ غَيْرُ مَجْذُوذٍ [١] .

وَالْمُفَسِّرُونَ مُجْمِعُونَ - فِيمَا نَعْلَمُ - عَلَىٰ فَهْمِ هَـٰذِهِ الْكَلِمَةِ : ﴿ مَجْذُوذٖ ﴾ عَلَىٰ مَعْنَاهَا الْوَضْعِيِّ اللُّغَوِيِّ ؛ وَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ : إِنَّ عَطَاءَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَاقٍ لَا نِهَايَةَ لَهُ ، بِإِبْقَاءِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُ .

---

(١) تَدُورُ هَـٰذِهِ الْمَادَّةُ (جَذَّ) أَوْ (جَذَذَ) عَلَىٰ الْقَطْعِ وَالِاسْتِئْصَالِ ، كَمَا هُوَ مُوَضَّحٌ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ . رَاجِعْ [ابْنَ مَنْظُورٍ : ١ / ٥٧٤] . (الْمُحَقِّقُ) .

وَهَٰذَا الْمَعْنَىٰ قَدْ فَهِمَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَأَظْهَرَ مَيْلًا إِلَيْهِ فِيمَا يَبْدُو ، قَالَ : « ... مَعْنَىٰ الِاسْتِثْنَاءِ هَٰهُنَا : أَنَّ دَوَامَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ .. لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مَوْكُولٌ إِلَىٰ مَشِيئَةِ اللَّٰهِ تَعَالَىٰ ، فَلَهُ الْمِنَّةُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا ، وَلِهَٰذَا يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ »(١) .

وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَفْهَمَ ابْنُ الْقَيِّمِ هُنَا مَا فَهِمَهُ فِي النَّارِ وَالْحَدِيثِ عَنْهَا ، أَوْ يَفْهَمَ الِاسْتِثْنَاءَ فِي النَّارِ عَلَىٰ نَحْوِ مَا فَهِمَهُ هُنَا ، إِلَّا أَنَّنَا لَا نَعْلَمُ السِّرَّ الْحَقِيقِيَّ وَرَاءَ تَمْيِيزِهِ بَيْنَ الْمَوْقِفَيْنِ !(٢) .

وَنَحْنُ حِينَ نَتَأَمَّلُ الْقُرْءَانَ الْكَرِيمَ فِي مَوْقِفٍ آخَرَ غَيْرِ الْمَوْقِفِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ فِيهِ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ .. نَجِدُ أَنَّ الْقُرْءَانَ مَا زَالَ يُؤَكِّدُ عَلَىٰ أَنَّ الْمَوْقِفَ إِذَا كَانَ فِيهِ شُبْهَةُ الْمُشَارَكَةِ لِلَّٰهِ فِي بَعْضِ صِفَاتِهِ .. يُتْبِعُهُ اللَّٰهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ ، لِكَيْ يُؤَكِّدَ الْحَقِيقَةَ الْقُرْءَانِيَّةَ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا ، وَهِيَ : أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْبَاقِيَةَ بِإِبْقَاءِ اللَّٰهِ لَهَا ، أَوِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تُشَارِكُ اللَّٰهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالِاسْمِ .. لَا يَلْزَمُ أَنْ تُشَارِكَهُ فِي حَقِيقَةِ هَٰذِهِ الصِّفَاتِ ، إِذْ مَا لَهَا مِنْ حَقِيقَةِ مُسَمَّىٰ الِاسْمِ .. إِنَّمَا هُوَ بِمَشِيئَةِ اللَّٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَإِرَادَتِهِ ؛ وَيَظْهَرُ ذَٰلِكَ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى : ٦ - ٧] .

وَهَٰذَا الِاسْتِثْنَاءُ فِي هَٰذِهِ الْآيَةِ .. تَكَلَّمَ فِيهِ الْكَثِيرُونَ ، وَوَرَدَتْ أَقْوَالٌ

---

(١) [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ : ٢ / ٤٦٠] .

(٢) **قُلْتُ** : السِّرُّ فِي هَٰذَا - وَاللَّٰهُ أَعْلَمُ - هُوَ تَقْلِيدُهُ لِشَيْخِهِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، فَلَوْلَا أَنَّ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَالَ .. مَا قَالَ هُوَ . اهـ . قَالَهُ نَاصِرُ عَبْدُ اللَّٰهِ دُسُوقِيٌّ .

لَا نَسْتَقْصِيهَا ، فَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي مَحَلِّهَا ، إِلَّا أَنَّنَا نَرَىٰ - كَمَا رَأَيْنَا قَبْلُ - أَنَّ هَٰذِهِ الْآيَةَ بِمَا فِيهَا مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ .. تَأْكِيدٌ لِقُدْرَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمَشِيئَتِهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَبَيَانٌ بِأَنَّ مَا لِلنَّبِيِّ مِنْ دَوَامِ التَّذَكُّرِ وَعَدَمِ النِّسْيَانِ .. لَيْسَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللَّٰهِ عَلَيْهِ ، لَوْ شَاءَ قَطَعَهُ عَنْهُ ، وَلَٰكِنَّهُ - عَلَىٰ حَسَبِ الظَّاهِرِ لَنَا - لَمْ يَشَأْ ذَٰلِكَ .

وَالشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ الْآلُوسِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَلْمَحُ هَٰذَا الْمَعْنَىٰ وَيَحْكِيهِ ، فَيَقُولُ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَٰذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْلَىٰ ، بَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ الْآرَاءِ وَالرَّدِّ عَلَيْهَا :

« ... وَقَدْ يُقَالُ : الِاسْتِثْنَاءُ مِنْ أَعَمِّ الْأَوْقَاتِ ، ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى : ٦] فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ، إِلَّا وَقْتَ مَشِيئَةِ اللَّٰهِ تَعَالَىٰ نِسْيَانَكَ ، لَٰكِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَا يَشَاءُ ، وَهَٰذَا كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ : ﴿* خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۝١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ، وَقَدْ قَدَّمْنَا ذَٰلِكَ .

وَإِلَىٰ هَٰذَا ذَهَبَ الْفَرَّاءُ ، فَقَالَ : إِنَّهُ تَعَالَىٰ مَا شَاءَ أَنْ يَنْسَىٰ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا ، إِلَّا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ .. بَيَانُ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُصَيِّرَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - نَاسِيًا لِذَٰلِكَ .. لَقَدَرَ عَلَيْهِ ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء : ٨٦] ، ثُمَّ إِنَّا نَقْطَعُ بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ مَا شَاءَ ذَٰلِكَ ؛ وَقَالَ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ

لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] ، مَعَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمْ يُشْرِكْ أَلْبَتَّةَ بِالْجُمْلَةِ .

فَفَائِدَةُ هَٰذَا الِاسْتِثْنَاءِ : أَنْ يُعَرِّفَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ قُدْرَتَهُ ، حَتَّىٰ يَعْلَمَ ﷺ أَنَّ عَدَمَ النِّسْيَانِ مِنْ فَضْلِهِ تَعَالَىٰ وَإِحْسَانِهِ ، لَا مِنْ قُوَّتِهِ ، أَيْ : حَتَّىٰ يَتَقَوَّىٰ ذَٰلِكَ جِدًّا ، أَوْ لِيَعْرِفَ غَيْرُهُ ذَٰلِكَ ؛ وَكَأَنَّ نَفْيَ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ نِسْيَانَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَعْلُومٌ مِنْ خَارِجٍ » [١] .

وَهَٰذَا النَّوْعُ مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ - عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ التَّخْرِيجِ لَهُ - لَوْ سُلِّمَ لَنَا .. لَأَعْفَانَا مِنْ تَكَلُّفِ اعْتِمَادِ آرَاءٍ كَثِيرَةٍ قَدْ وَرَدَ عَلَيْهَا مِنَ الْإِشْكَالَاتِ مَا وَرَدَ .

وَالشَّيْخُ الصَّنْعَانِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ جَهَابِذَةِ الْأُمَّةِ .. قَدِ اعْتَمَدُوا فِي الِاسْتِثْنَاءِ الِاتِّجَاهَ الْقَائِلَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ : إِخْرَاجُ عُصَاةِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ .

وَوَجْهُ اخْتِيَارِهِ لِهَٰذَا الْوَجْهِ فِي فَهْمِ الْآيَةِ : أَنَّهُ لَمْ يَرْتَكِزْ عَلَىٰ إِعْمَالِ الْفِكْرِ بِقَدْرِ مَا يَعْتَمِدُ عَلَىٰ النَّصِّ الْوَارِدِ فِيهِ ؛ وَالنَّصُّ الْوَارِدُ هُنَا .. مَا نُسِبَ إِلَىٰ حَبْرِ الْأُمَّةِ وَعَالِمِهَا ، الَّذِي دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ يُفَقِّهَهُ اللَّهُ فِي الدِّينِ وَيُعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ ، هُوَ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه .

أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي [**الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ**] [٢] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

(١) تَفْسِيرُ [رُوحُ الْمَعَانِي : ٣٠ / ١٣٥] وَمَا بَعْدَهَا . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي الْحَاشِيَةِ : « لَمْ يُطْبَعْ فِيمَا عَلِمْتُ ، وَالْمَخْطُوطُ مِنْهُ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ الْآنَ ، فَإِنَّ فِي الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَدِينَةِ نُسْخَةً مُصَوَّرَةً مِنْهُ ؛ فَلْيُرَاجِعْ إِسْنَادَهُ مَنْ تَيَسَّرَ لَهُ ذَٰلِكَ » .

« قَدْ شَاءَ رَبُّكَ أَنْ يَجْعَلَ هَٰؤُلَاءِ فِي النَّارِ ، وَ هَٰؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ » .

وَعَلَىٰ الْجُمْلَةِ : فَإِنَّ الشَّيْخَ الصَّنْعَانِيَّ يَتَعَجَّبُ مِنْ صَنِيعِ ابْنِ الْقَيِّمِ فِي الْـ(حَادِي) ، إِذْ إِنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكِيلَ بِكَيْلٍ وَاحِدٍ فِي فَهْمِهِ لِلْآيَاتِ ، وَلَمْ يَعْتَمِدْ مِعْيَارًا وَاحِدًا فِي مُوَاجَهَتِهِ لِلنُّصُوصِ ! .

يَقُولُ الشَّيْخُ الصَّنْعَانِيُّ : « وَقَدْ سَبَقَ قَوْلُ ابْنِ الْقَيِّمِ فِي آيَةِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ : إِنَّهُ - عَلَىٰ كُلِّ تَقْدِيرٍ - إِنَّ الِاسْتِثْنَاءَ فِيهِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ، وَإِنَّ الْمُحْكَمَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود : ١٠٨] ، وَ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ ﴾ [الرعد : ٣٥] ، وَآيَاتُ الْخُلُودِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ .

فَلَكَ أَنْ تَقُولَ بِعَيْنِ هَٰذَا الْقَوْلِ فِي آيَةِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي أَهْلِ النَّارِ : إِنَّهُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ، وَإِنَّ الْمُحْكَمَ : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ، ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر : ٤٨] .

وَالْآيَاتُ الْمُصَرِّحَةُ بِخُلُودِ أَهْلِ النَّارِ فِي الْقُرْءَانِ كَثِيرَةٌ جِدًّا - وَسَيَأْتِي عَدُّ بَعْضِهَا - فَيُرَدُّ الْمُتَشَابِهُ - وَهِيَ آيَةُ الِاسْتِثْنَاءِ - إِلَىٰ الْمُحْكَمِ »(١) .

وَبَعْدَ هَٰذَا كُلِّهِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ بِغَايَةِ الِارْتِيَاحِ : إِنَّهُ لَا مُتَمَسَّكَ لِابْنِ الْقَيِّمِ وَلَا ابْنِ تَيْمِيَّةَ بِالْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَقَعَ فِيهِمَا الِاسْتِثْنَاءُ مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ ، إِذْ مِنَ الْمُمْكِنِ تَخْرِيجُهُ فِيهِمَا عَلَىٰ أَيِّ قَوْلٍ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي ذَكَرَهَا

---

(١) رَاجِعْ [رَفْعُ الْأَسْتَارِ لِإِبْطَالِ أَدِلَّةِ الْقَائِلِينَ بِفَنَاءِ النَّارِ] لِلصَّنْعَانِيِّ ؛ تَحْقِيقُ الْأَلْبَانِيِّ ، طَ الْمَكْتَبِ الْإِسْلَامِيِّ . (الْمُحَقِّقُ) .

الْعُلَمَاءُ ، بِحَيْثُ يَرْتَضِيهِ الْعَقْلُ ، وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ الْوِجْدَانُ ؛ أَوْ عَلَىٰ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَقْوَالِ تُحْدِثُ هَٰذِهِ النَّتِيجَةَ فِي الْعَقْلِ وَالشُّعُورِ .

وَهُنَاكَ آيَةٌ أُخْرَىٰ يَتَمَسَّكُ بِهَا ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ الْقَيِّمِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النبأ : ٢١ - ٣٠] .

وَوَجْهُ اسْتِدْلَالِ ابْنِ الْقَيِّمِ مِنْ هَٰذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ مَذْهَبِهِ أُمُورٌ ، مِنْهَا :

١- **أَوَّلًا** : إِنَّ هَٰذِهِ الْآيَةَ - بِحُكْمِ سِيَاقِهَا - وَارِدَةٌ فِي الْكَافِرِينَ الَّذِينَ ﴿ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّٰهِ كِذَّابًا .

٢- **وَثَانِيًا** : إِنَّ التَّعْبِيرَ بِـ (**الْأَحْقَابِ**) يُفِيدُ عَدَّ الزَّمَانِ الْمَحْدُودِ ، إِذْ إِنَّهَا جَمْعُ (**حُقْبٍ**) ، وَالْـ(**حُقْبُ**) لَهُ مُدَّةٌ مَحْدُودَةٌ مَهْمَا وَقَعَ الْخِلَافُ حَوْلَهَا بِالزِّيَادَةِ أَوِ النُّقْصَانِ ؛ وَهُوَ - أَيِ الْـ(**حُقْبُ**) - لَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْأَبَدِ ، كَمَا قَالَ .

٣- **وَثَالِثًا** : إِنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ رِوَايَاتٌ يَنْسُبُهَا ابْنُ الْقَيِّمِ وَابْنُ تَيْمِيَّةَ إِلَىٰ عَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، تُؤَكِّدُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ - الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا - سَيَخْرُجُونَ مِنْهَا وَتَبْقَى النَّارُ خَرَابًا .

وَيَسْتَنْتِجُ ابْنُ الْقَيِّمِ - كَمَا اسْتَنْتَجَ أُسْتَاذُهُ مِنْ قَبْلُ - أَنَّ أَهْلَ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا .. لَا يَبْقُونَ فِيهَا إِلَّا مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ ،ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَتَفْنَىٰ النَّارُ.

وَتَمسُّكُهُ بِالْآيَةِ عَلَىٰ هَـٰذَا النَّحْوِ .. مَرْدُودٌ عَلَيْهِ ، رَدَّهُ جَهَابِذَةُ الْأُمَّةِ ، وَالْمُتَخَصِّصُونَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ وَالِاشْتِغَالِ بِفَهْمِ نُصُوصِهِ .

وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ أَنْ نَلْفِتَ النَّظَرَ إِلَيْهِ هُوَ : أَنَّ الدَّلَالَةَ اللَّفْظِيَّةَ لِكَلِمَةِ (أَحْقَابٍ) تَرْفُضُ مَا ادَّعَاهُ كُلٌّ مِنَ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَابْنِ الْقَيِّمِ ، إِذْ إِنَّ اسْتِعْمَالَ اللَّفْظِ فِي الْقُرْءَانِ يَكُونُ مَقْصُودًا إِلَيْهِ قَصْدًا ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ مَعْنًىٰ مِنَ الْمَعَانِي لَا يُؤَدِّيهَا غَيْرُهُ إِنْ وُضِعَ فِي مَحَلِّهِ ؛ وَلَنَا أَنْ نَتَأَمَّلَ كَلِمَةَ (أَحْقَابٍ) ، فَهِيَ إِنْ كَانَتْ جَمْعَ (حُقُبٍ) - بِضَمَّتَيْنِ ، أَوْ ضَمَّةٍ فَسُكُونٍ - لَا تَكُونُ دَالَّةً عَلَىٰ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّةٍ فَحَسْبَ ، يُمْكِنُ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهَا بِالْعَدَدِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ مَلْحُوظًا مَعَهَا التَّتَابُعُ ، ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّ الْـ (حُقُبَ) مَأْخُوذٌ مِنْ وَضْعِ الشَّيْءِ خَلْفَ الشَّيْءِ ، وَهُوَ أَصْلُ التَّتَابُعِ فِي الْمَادَّةِ .

وَعَلَىٰ هَـٰذَا يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ رَأْيَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] وَإِنْ كَانَتْ تُفِيدُ أَزْمِنَةً مَحْدُودَةً ، إِلَّا أَنَّهَا تُفِيدُ - مَعَ ذَٰلِكَ - التَّتَابُعَ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ ، وَعَلَيْهِ .. فَمَا مِنْ (حُقُبٍ) يَنْقَضِي إِلَّا وَيُعْقِبُهُ (حُقُبٌ) آخَرُ بِغَيْرِ انْتِهَاءٍ .

وَقَرِيبًا مِنْ هَـٰذَا الْمَعْنَىٰ .. قَوْلُ مَنْ حَمَلَ (الْأَحْقَابَ) أَوِ الْـ(حُقُبَ) عَلَىٰ الدَّهْرِ ، إِذْ لَا يَخْلُصُ لَهُ رَأْيُهُ إِلَّا مِنْ هَـٰذَا الْوَجْهِ .

وَلَوْ حَمَلْنَا مَعْنَىٰ (الْأَحْقَابِ) عَلَىٰ أَنَّهَا جَمْعُ (حِقَبٍ) بِالْكَسْرِ .. فَإِنَّهَا أَيْضًا لَا تُفِيدُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنْ فَنَاءِ النَّارِ ، لِأَنَّ (الْحِقَبَ) لَا يُسْتَعْمَلُ فِي عَدِّ الزَّمَانِ ، وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي مُطْلَقِ الْفَوَاتِ .

قَالَ الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ الْآلُوسِيُّ : « وَجُوِّزَ أَنْ يَكُونَ (أَحْقَابًا) جَمْعُ (حَقِبٍ) – كَـ(حَذِرٍ) – ، مِنْ : حَقِبَ الرَّجُلُ : إِذَا أَخْطَأَهُ الرِّزْقُ ؛ وَحَقِبَ الْعَامُ : إِذَا قَلَّ مَطَرُهُ وَخَيْرُهُ ؛ وَالْمُرَادُ : مَحْرُومِينَ مِنَ النَّعِيمِ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ كَوْنِهِمْ مُعَاقَبِينَ ، فَيَكُونُ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ [النبأ : ٢٣] »[1] .

وَهَٰكَذَا تَجِدُ الْمَادَّةَ اللُّغَوِيَّةَ لِكَلِمَةِ (أَحْقَابٍ) لَا تُسَاعِدُ ابْنَ الْقَيِّمِ وَلَا ابْنَ تَيْمِيَّةَ عَلَىٰ مَا ذَهَبَا إِلَيْهِ فِي مَا ارْتَأَيَاهُ .

وَهَبْ أَنَّ هَٰذِهِ الْمَادَّةَ تُسَاعِدُهُمَا .. فَكَيْفَ يَصْنَعَانِ بِهَٰذَا التَّعَارُضِ الْكَائِنِ مِنْ فَهْمِهِمَا مِنْ هَٰذِهِ الْآيَةِ وَنُصُوصِ آيَاتِ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ بَقَاءِ أَهْلِ النَّارِ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا ؟! .

وَحِينَ نَتَنَزَّلُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ فِي هَٰذَا النِّقَاشِ ، وَنُسَلِّمُ لَهُمَا فَهْمَهُمَا .. فَإِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ مَعَ الشَّيْخِ الصَّنْعَانِيِّ وَغَيْرِهِ : إِنَّ هَٰذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَىٰ مُدَّةٍ مَحْدُودَةٍ بِمَفْهُومِ الْعَدَدِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النبأ : ٢٣] ، إِذْ يُفْهَمُ مِنْهُ – عَلَىٰ افْتِرَاضِ صِحَّةِ كَلَامِهِمَا – أَنَّ النَّارَ لَا تَبْقَىٰ إِلَّا زَمَنًا مُعَيَّنًا ، وَالْعَذَابُ لَا اسْتِمْرَارَ فِيهِ ؛ وَمَفْهُومُ الْعَدَدِ الَّذِي أَكَّدَ مَذْهَبَهُمَا أَمْرٌ سَلْبِيٌّ ، وَنَحْنُ لَمْ نَرَ أَحَدًا مِنَ الْعُلَمَاءِ قَالَ إِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُعَارَضَا بِمَفْهُومِ الْعَدَدِ وَهُوَ أَمْرٌ سَلْبِيٌّ ، نُصُوصُ الْقُرْءَانِ الْقَطْعِيَّةُ الَّتِي تَدُلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَىٰ قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ .. خَالَفَهَا مَفْهُومُ الْعَدَدِ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ .

وَهَٰذِهِ قَضِيَّةٌ – كَمَا قَالَ الشَّيْخُ الصَّنْعَانِيُّ – كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَفُوتَ

(١) تَفْسِيرُ [رُوحُ الْمَعَانِي : ٣٠ / ١٩] . (الْمُحَقِّقُ) .

تَقِيَّ الدِّينِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ أَوْ تِلْمِيذَهُ ابْنَ الْقَيِّمِ ، مَعَ عُلُوِّ كَعْبِهِمَا فِي الْعِلْمِ ، وَرُسُوخِ قَدَمِهِمَا فِي الْمَعْرِفَةِ ، وَتَدْقِيقِهِمَا فِي الْمَنَاهِجِ ، وَالْحَيْطَةِ فِي الْأَحْكَامِ (١).

وَبَعْدَ هَٰذَا الْإِيضَاحِ .. فَإِنَّنَا لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَىٰ الِاسْتِرْسَالِ مَعَ ابْنِ الْقَيِّمِ لِبَيَانِ أَنَّ هَٰذِهِ الْآيَةَ قَدْ وَرَدَتْ فِي الْكَافِرِينَ ، أَوْ فِيهِمْ مَعَ غَيْرِهِمْ ، وَلَوْ أَنَّ التَّعْمِيمَ فِي الْآيَةِ هُوَ الْأَظْهَرُ ، لِأَنَّ فِيهِ مُقَابَلَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي السُّورَةِ نَفْسِهَا : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ ﴾ [النبأ : ٣١] ، فَالسُّورَةُ لَمْ تَتَحَدَّثْ إِلَّا عَنْ طَائِفَتَيْنِ :

١- طَائِفَةِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ سَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا .

٢- وَالطَّائِفَةِ الْمُقَابِلَةِ الَّتِي تَشْمَلُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ النَّارِ ، وَالَّذِينَ يَحْبِسُهُمُ الْقُرْءَانُ وَمَعَهُمْ عُصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَيَخْرُجُونَ بِمُقْتَضَىٰ أَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .

وَهَٰذَا التَّعْمِيمُ - عَلَىٰ هَٰذَا النَّحْوِ - قَدْ جَعَلَهُ الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ وَغَيْرُهُ نُقْطَةَ ارْتِكَازٍ لِأَصْحَابِ الرَّأْيِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ ﴾ [النبأ : ٢٣] - عَلَىٰ فَرْضِ أَنَّهَا تُحَدِّدُ مُدَّةً زَمَنِيَّةً - إِنَّمَا تَكُونُ فِي عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَيُخْرِجُهُمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ النَّارِ .

وَلَسْنَا الْآنَ بِصَدَدِ عَرْضِ الْآرَاءِ وَنَقْدِهَا ، لِأَنَّنَا لَمْ نَعُدْ نَشُكُّ - بَعْدَ

(١) رَاجِعُ [رَفْعُ الْأَسْتَارِ لِإِبْطَالِ أَدِلَّةِ الْقَائِلِينَ بِفَنَاءِ النَّارِ] لِلصَّنْعَانِيِّ . (الْمُحَقِّقُ) .

تَحْلِيلِ الدَّلَالَةِ اللَّفْظِيَّةِ لِلَّفْظِ الْمُسْتَعْمَلِ فِي هَٰذِهِ الْآيَةِ - فِي قِيمَةِ الرَّأْيِ الْقَائِلِ : إِنَّ الْآيَةَ لَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْمُدَّةِ .

وَلَمْ يَبْقَ لِابْنِ الْقَيِّمِ أَوِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ سِوَىٰ الِاسْتِشْهَادِ بِبَعْضِ الْأَخْبَارِ الَّتِي فَهِمَ أَصْحَابُهَا مِنَ الْآيَةِ تَحْدِيدَ مُدَّةٍ بِعَيْنِهَا ، **وَمِنْ هَٰذِهِ الْأَخْبَارِ** : حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، **مُؤَدَّاهُ** : أَنَّ (الْأَحْقَابَ) جَمْعُ **(حُقُبٍ)** ، وَالْـ**(حُقُبُ)** : « [أَلْفُ] [1] شَهْرٍ، وَالشَّهْرُ ثَلَاثُونَ يَوْمًا، وَالسَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، وَالسَّنَةُ ثَلَاثُمِائَةٌ وَسِتُّونَ يَوْمًا ، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا أَلْفُ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ، فَـ (**الْحُقْبُ**) ثَلَاثُونَ أَلْفَ أَلْفِ سَنَةٍ » .

وَهَٰذَا الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ بِالسَّنَدِ إِلَىٰ أَبِي أُمَامَةَ ، ثُمَّ قَالَ عَنْهُ : « وَهَذَا حديثٌ مُنْكَرٌ جِدًّا، وَالْقَاسِمُ هُوَ وَالرَّاوِي عَنْهُ - وَهُوَ جَعْفَرُ بْنُ الزُّبَيْرِ- كِلَاهُمَا مَتْرُوكٌ » [2] .

عَلَىٰ أَنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ قَدْ ذَكَرَ جَمْعًا مِنَ الصَّحَابَةِ .. تَوَهَّمَ أَنَّ كُلَّهُمْ يَفْهَمُونَ مِنَ النَّصِّ أَنْ **(الْأَحْقَابَ)** تَدُلُّ عَلَىٰ مُدَّةٍ بِعَيْنِهَا ، يَخْرُجُ أَهْلُ النَّارِ بَعْدَهَا ، وَتَفْنَىٰ النَّارُ .

وَمَا ذَكَرَهُ مِنَ النُّصُوصِ .. تَعَقَّبَهُ السُّبْكِيُّ هُنَا ، وَتَعَقَّبَهُ الصَّنْعَانِيُّ فِي كِتَابِهِ [3] الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِيمَا نَسَبَهُ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ

---

(١) قَالَ مُحَقِّقُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ صَبْرِي سَلَامَةُ : «زِيَادَةٌ مِنْ إِتْحَافِ الْبُوصِيرِيِّ» . اهـ . نَاصِرٌ .

(٢) [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ : جـ ٤ / ص ٤٦٣] . (الْمُحَقِّقُ) .

(٣) [رَفْعُ الْأَسْتَارِ لِإِبْطَالِ أَدِلَّةِ الْقَائِلِينَ بِفَنَاءِ النَّارِ] لِلصَّنْعَانِيِّ ، تَحْقِيقُ الْأَلْبَانِيِّ (الْمُحَقِّقُ) .

سَنَدُ رِوَايَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّا ذَكَرَهُ ، وَعَلَىٰ فَرْضِ صِحَّةِ هَـٰذِهِ الْأَسَانِيدِ – وَهُوَ بَعِيدٌ – فَإِنَّ الْأَلْفَاظَ الْوَارِدَةَ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ نَفْسُهُ .. لَيْسَ فِيهَا لَفْظٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَىٰ فَنَاءِ النَّارِ ؛ وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْنَا : إِنَّ الْحَافِظَ ابْنَ كَثِيرٍ قَدْ عَقَّبَ عَلَيْهَا جَمِيعًا بِأَنَّهَا أَقْوَالٌ غَرِيبَةٌ لَا تَصِحُّ .

وَيَذْكُرُ ابْنُ الْقَيِّمِ – فِي مَجَالِ إِثْبَاتِ رَأْيِهِ الَّذِي يَذْهَبُ فِيهِ إِلَىٰ فَنَاءِ النَّارِ – حَشْدًا مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي حَاوَلَ أَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْهَا نَتِيجَةً لَا يَتَحَمَّلُهَا مَتْنُهَا ، كَأَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ خُرُوجِ آخِرِ وَاحِدٍ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِهِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، وَكُلُّهَا فِي غَيْرِ مَوْضُوعِ النِّزَاعِ ، فَلَا حَاجَةَ بِنَا وَلَا بِالْقَارِئِ إِلَىٰ الْإِشَارَةِ إِلَيْهَا .

وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمَسْأَلَةِ سِوَىٰ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ يَذْكُرُهُ أَصْحَابُ هَـٰذَا الِاتِّجَاهِ ، وَيَعْتَبِرُونَهُ مِنْ أَقْوَىٰ مَا يَتَمَسَّكُونَ بِهِ ، وَهُوَ عَجِيبٌ ! ، لِأَنَّهُ يَرْتَكِزُ عَلَىٰ قِيَاسِ الطَّبَائِعِ فِي الْإِنْسَانِ وَفِطْرَةِ النَّوْعِ الْبَشَرِيِّ عَلَىٰ مَا نُشَاهِدُهُ فِي الطَّبِيعَةِ ، مِنْ نَحْوِ أَنْوَاعِ الْمَعَادِنِ الْمُخْتَلِفَةِ .

فَنَحْنُ نَسْتَخْرِجُ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ مَعَادِنَ يَخْتَلِطُ بِهَا غَيْرُهَا مِنَ الشَّوَائِبِ ، وَنَجِدُ عَلَىٰ ظَاهِرِ الْأَرْضِ مَعَادِنَ قَدْ تَأَيَّنَتْ وَخَالَطَهَا غَيْرُهَا مِنَ الْعَنَاصِرِ الْغَرِيبَةِ عَنْهَا ، فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُصَفِّيَ الْمَعَادِنَ مِنَ الْأَخْلَاطِ وَالشَّوَائِبِ .. أَدْخَلْنَاهَا إِلَىٰ النَّارِ ، فَيَزُولُ عَنْهَا كُلُّ غَرِيبٍ ، وَيَبْقَىٰ لَهَا صَفَاءُ مَعْدَنِهَا .

وَيَرَىٰ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنَّ هَـٰذِهِ الْعَمَلِيَّةَ نَفْسَهَا يُمْكِنُ أَنْ نُطَبِّقَهَا عَلَىٰ فِطْرَةِ

الْإِنْسَانِ وَطَبِيعَتِهِ ، فَالْإِنْسَانُ حِينَ خُلِقَ .. خُلِقَ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ النَّقِيَّةِ ، ثُمَّ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ، وَأَثَّرَتْ فِيهِ الْبِيئَةُ ، فَانْحَرَفَ بَعْضُ أَنْوَاعِ الْإِنْسَانِ ، فَكَفَرَ بَعْضُهَا بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، وَكَفَرَ الْبَعْضُ الْآخَرُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَآمَنَ بِاللَّهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ .

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ .. فَقَدْ سَلِمَتْ لَهُمْ فِطَرُهُمْ ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ .. فَقَدْ تَدَنَّسَتِ الْفِطَرُ بِدَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، أَعْلَاهَا : أُولَئِكَ الَّذِينَ انْحَرَفُوا بِالْفِطْرَةِ إِلَىٰ حَدِّ الْكُفْرِ أَوِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ .

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ .. لَمْ يَكُنْ لِلْفِطَرِ هَٰذِهِ مِنْ مُخَلِّصٍ لَهَا مِنَ الشَّوَائِبِ ، أَوْ مُطَهِّرٍ لَهَا مِنَ الدَّنَسِ إِلَّا النَّارُ ، فَهِيَ تَبْقَىٰ فِي النَّارِ فَتْرَةً رَيْثَمَا تَطْهُرُ مِنَ الدَّنَسِ ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنَ النَّارِ سَلِيمَةَ الْفِطْرَةِ ، فَيَتَجَدَّدُ لَهَا إِيمَانُهَا ، فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ .

هَٰكَذَا يَفْعَلُ ابْنُ الْقَيِّمِ ، وَكَأَنِّي بِغَيْرِهِ مِنْ أَسَاتِذَتِهِ (١) قَدْ فَعَلَ ذَٰلِكَ ، وَإِنْ لَمْ أَعْثُرْ لَهُ عَلَىٰ نَصٍّ ؛ وَالنَّصُّ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا هُوَ لِابْنِ الْقَيِّمِ ، وَهَٰذَا التَّحْلِيلُ غَرِيبٌ فِي بَابِهِ :

١- **أَوَّلًا** : لِأَنَّهُ يُصَادِمُ النَّصَّ الْقَائِلَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦] .

وَهَٰذَا النَّصُّ قَدْ تَكَرَّرَ فِي سُورَةٍ وَاحِدَةٍ – هِيَ سُورَةُ النِّسَاءِ – مَرَّتَيْنِ :

(١) الدُّكْتُورُ طَهَ حِبِيشِي يَقْصِدُ ابْنَ تَيْمِيَّةَ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَٰلِكَ فِي مُقَدِّمَةِ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ لِهَٰذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ . اهـ . قَالَهُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّهِ .

الْآيَةَ [٤٨ ، ١١٦] ، وَيَدُلُّ النَّصُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَىٰ أَنَّهُ لَا مَجَالَ لِغُفْرَانِ ذُنُوبِ الْكَافِرِينَ ، فَالْكُفْرُ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ : فَإِنَّ فِي تَحْلِيلِ ابْنِ الْقَيِّمِ مُصَادَمَةً لِنَصٍّ آخَرَ ، **مُؤَدَّاهُ** : أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ فِي الدُّنْيَا .. لَا يَنْفَعُهُ أَنْ يُؤْمِنَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْآخِرَةِ ، فَفِي سُورَةِ [الْأَنْعَامِ : ١٥٨] : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٥٨﴾ .

عَلَىٰ أَنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ .. يَجِدُ أَنَّهُ - عَلَىٰ الْجُمْلَةِ - مُصَادِمٌ لِلْآيَاتِ الَّتِي تَنُصُّ عَلَىٰ الْخُلُودِ فِي النَّارِ ، وَالْأُخْرَىٰ الَّتِي تَعْرِضُ إِلَىٰ اسْتِصْرَاخِ أَهْلِ النَّارِ وَخِطَابِهِمُ اللَّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ ، أَوْ خِطَابِهِمْ لِمَالِكٍ خَازِنِ النَّارِ ، ثُمَّ إِيآسِ اللَّٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ : ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون : ١٠٨] .

٢- **ثَانِيًا** : إِنَّ هَٰذَا قِيَاسٌ لِأَمْرٍ لَا نَعْرِفُ خَصَائِصَهُ ، وَهُوَ الْفِكْرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ عَلَىٰ أَمْرٍ مُشَاهَدٍ فِي الدُّنْيَا نَعْرِفُ خَصَائِصَهُ ؛ وَهَٰذَا النَّوْعُ مِنَ الْقِيَاسِ .. لَا يَسْلَمُ لِصَاحِبِهِ ، إِذْ شَرْطُ الْقِيَاسِ .. أَنْ يَظْهَرَ لَنَا نُقْطَةُ اشْتِرَاكٍ جَوْهَرِيَّةٌ بَيْنَ الْمَقِيسِ وَالْمَقِيسِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ هُنَا أَمْرٌ غَيْرُ مَفْهُومٍ ، فَالْقِيَاسُ بَاطِلٌ .

وَيَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ أَنَّهُ اسْتَوْحَىٰ فِكْرَتَهُ هَٰذِهِ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ

تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ [الْأَعْرَافِ : ١٧٢] : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ١٧٢ ﴾ .

وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي تُشِيرُ إِلَىٰ مَا يُعَرِّفُهُ الْعُلَمَاءُ بِـ (مِيثَاقِ الْفِطْرَةِ) ، وَقَدْ عَزَّزَ فِكْرَتَهُ بِالْأَحَادِيثِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي هَـٰذَا الْبَابِ .

وَالشَّيْخُ الصَّنْعَانِيُّ قَدْ شَكَّكَ فِي نُقْطَةِ الِارْتِكَازِ هَـٰذِهِ ، حَيْثُ قَالَ أَوَّلًا : إِنَّ هَـٰذِهِ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ بِالْقَطْعِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ أُخِذَ الْمِيثَاقُ عَلَيْهِمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا بَعْضُهُمْ شَهِدَ مُؤْمِنًا ، وَبَعْضُهُمْ أُلْجِئَ إِلَىٰ الِاعْتِرَافِ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّـٰهِ حَيْثُ لَا بَدِيلَ ؛ وَيُؤَكِّدُ هَـٰذَا الِاحْتِمَالَ عِنْدَ الصَّنْعَانِيِّ .. مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْآثَارِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ اللَّـٰهَ مَسَحَ عَلَىٰ ظَهْرِ آدَمَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ طَائِفَةً وَقَالَ : هَـٰؤُلَاءِ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ مَسَحَ عَلَيْهِ أُخْرَىٰ فَاسْتَخْرَجَ طَائِفَةً وَقَالَ : هَـٰؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ النَّارِ .

ثُمَّ يَقُولُ الصَّنْعَانِيُّ مَا خُلَاصَتُهُ : وَهَبْ أَنَّنَا سَلَّمْنَا لَهُ مَا اسْتَنْبَطَهُ مِنْ (مِيثَاقِ الْفِطْرَةِ) .. فَإِنَّ مَا تَمَسَّكَ بِهِ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ فِي بَنِي الْبَشَرِ ، حَيْثُ إِنَّ بَعْضَهُمْ قَدِ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ وَدَنَّسَتْ فِطْرَتَهُ ، فَإِنَّ لَنَا أَنْ نَسْأَلَ بَعْدَ ذَٰلِكَ : وَمَا مَصِيرُ الشَّيَاطِينِ ؟ هَلْ سَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ بَعْدَ أَنْ تُطَهِّرَهُمُ النَّارُ مِنْ دَنَسِ الْفِطْرَةِ ، وَيَدْخُلُ إِبْلِيسُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ كَمَا يَدْخُلُ

الْمُتَّقُونَ إِلَيْهَا ؟ إِنَّ هَـٰذَا لَأَمْرٌ عُجَابٌ !! [1].

وَهَـٰكَذَا قَدْ أُصِيبَ هَـٰذَا الرَّأْيُ فِي مَقْتَلِهِ ، وَلَمْ يَعُدْ لِلْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ مِنْ دَلِيلٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ ، سِوَىٰ أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ – بِغَيْرِ جَدْوَىٰ – تَتَبُّعَ أَدِلَّةِ الْخُصُومِ لَهُمْ فِي هَـٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَمُحَاوَلَةَ إِبْطَالِهَا .

وَأَنْتَ حِينَ تَتَصَفَّحُ هَـٰذِهِ الرِّسَالَةَ – الَّتِي سَنُخَلِّي بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَعْدَ قَلِيلٍ – سَتَجِدُ فِيهَا مَعَ وُضُوحِ عِبَارَتِهَا .. تَرْكِيزًا شَدِيدًا ، وَحُجَجًا نَاصِعَةً ، وَإِشَارَةً إِلَىٰ كَثْرَةٍ مِنَ الْمَرَاجِعِ ، بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ اصْطِنَاعِ أُسْلُوبِ الْإِحْصَاءِ لِآيَاتِ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ فِي مَسْأَلَةٍ بِعَيْنِهَا ، وَهُوَ مَنْهَجٌ رَشِيدٌ ، إِذْ إِنَّهُ يُوَصِّلُ إِلَىٰ نَتِيجَتِهِ مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ ، وَبِأَقَلِّ مَجْهُودٍ مُمْكِنٍ ، وَلَيْسَ هَـٰذَا بِغَرِيبٍ عَلَىٰ مِثْلِ الشَّيْخِ السُّبْكِيِّ رَحْمَةُ اللَّـهِ عَلَيْهِ .

وَمُؤَلِّفُ هَـٰذِهِ الرِّسَالَةِ هُوَ : « عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْكَافِي بْنِ عَلِيِّ بْنِ تَمَّامٍ ، السُّبْكِيُّ ، الْأَنْصَارِيُّ ، الْخَزْرَجِيُّ ، أَبُو الْحَسَنِ ، تَقِيُّ الدِّينِ ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي عَصْرِهِ ، وَأَحَدُ الْحُفَّاظِ الْمُفَسِّرِينَ الْمُنَاظِرِينَ ؛ وَهُوَ وَالِدُ التَّاجِ السُّبْكِيِّ صَاحِبِ (الطَّبَقَاتِ) .

وُلِدَ فِي (سُبْكٍ) مِنْ أَعْمَالِ (الْمُنُوفِيَّةِ) بِمِصْرَ ، وَانْتَقَلَ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ ثُمَّ إِلَىٰ الشَّامِ ، وَوُلِّيَ قَضَاءَ الشَّامِ سَنَةَ ٧٣٩هـ ، وَاعْتَلَّ ، فَعَادَ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ فَتُوُفِّيَ فِيهَا سَنَةَ ٧٥٦هـ ، الْمُوَافِقَةَ ١٣٥٥مِيلَادِيَّةً ، وَكَانَ عُمُرُهُ نَحْوَ ٧٠ عَامًا ، حَيْثُ وُلِدَ فِي سَنَةِ ٦٨٣هـ ، الْمُوَافِقَةِ ١٢٨٤م .

(١) رَاجِعْ [رَفْعُ الْأَسْتَارِ لِإِبْطَالِ أَدِلَّةِ الْقَائِلِينَ بِفَنَاءِ النَّارِ] لِلصَّنْعَانِيِّ . (الْمُحَقِّقُ) .

وَقَدْ تَرَكَ لَنَا كُتُبًا وَمُؤَلَّفَاتٍ كَثِيرَةً ، مِنْهَا مَا هُوَ مَطْبُوعٌ ، وَمِنْهَا مَا يَزَالُ مَخْطُوطًا ، وَمِنْ بَيْنِ كُتُبِهِ .. هَـٰذِهِ الرِّسَالَةُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا » .

* * *

وَبَعْدُ :

فَإِنَّنَا إِذْ نُقَدِّمُ إِلَىٰ الْقَارِئِ هَـٰذِهِ الرِّسَالَةَ الْيَوْمَ .. نَتَمَنَّىٰ أَنْ نَعُودَ إِلَىٰ صَفَاءِ الْفِطْرَةِ جَمِيعًا ، وَأَنْ نَأْخُذَ عَقِيدَتَنَا الصَّحِيحَةَ مِنَ النُّصُوصِ الْمُعْتَمَدَةِ ، وَلَا نُحَمِّلَ النَّصَّ مَا لَا يَحْتَمِلُ ، وَأَنْ نَبْرَأَ جَمِيعًا مِنَ التَّعَصُّبِ لِلْمَذَاهِبِ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ ، وَأَنْ نَرْتَفِعَ فَوْقَ الْأَهْوَاءِ ، دَاعِينَ اللَّـٰهَ كَمَا دَعَاهُ نَبِيُّهُ مِنْ قَبْلُ : « اللَّـٰهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ .. ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ دِينِكِ » آمِينَ .

الْجِيزَةُ – ٢٢ رَجَبَ سَنَةَ ١٤٠٧هـ

٢٢ مَارِسُ سَنَةَ ١٩٨٧م

دُكْتُورُ

طَهَ الدُّسُوقِي حِبِيشِي

الِاعْتِبَارُ

بِبَقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ

لِلْإِمَامِ الْحَافِظِ الْفَقِيهِ الْمُجْتَهِدِ

أَبِي الْحَسَنِ تَقِيِّ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْكَافِي

السُّبْكِيِّ الْكَبِيرِ

الْمَوْلُودِ سَنَةَ ٦٨٣هـ - ١٢٨٤م

الْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٧٥٦هـ - ١٣٥٥م

فِي الرَّدِّ عَلَىٰ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَابْنِ الْقَيِّمِ الْقَائِلَيْنِ بِفَنَاءِ النَّارِ

تَحْقِيقُ وَتَقْدِيمُ وَتَعْلِيقُ فَضِيلَةِ الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ

طَهَ الدُّسُوقِيِّ حِبِيشِيٍّ رضي الله عنه

رَاجَعَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ قَلِيلًا الشَّيْخُ

نَاصِرُ عَبْدِ اللَّهِ دُسُوقِيُّ

٢٠٢٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

وَبَعْدُ

فَإِنَّ اعْتِقَادَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ لَا تَفْنَيَانِ ، وَقَدْ نَقَلَ أَبُو مُحَمَّدِ ابْنِ حَزْمٍ [1] **الْإِجْمَاعَ** عَلَىٰ ذَٰلِكَ ، وَأَنَّ مَنْ **خَالَفَهُ** كَافِرٌ **بِإِجْمَاعٍ** [2] .

(١) [٣٨٤ - ٤٥٦هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤م] عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ حَزْمٍ ، الظَّاهِرِيُّ ، أَبُو مُحَمَّدٍ : عَالِمُ الْأَنْدَلُسِ فِي عَصْرِهِ ، وَأَحَدُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ ، كَانَ فِي الْأَنْدَلُسِ خَلْقٌ كَثِيرُونَ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ مَذْهَبِهِ ، يُقَالُ لَهُمُ (الْحَزْمِيَّةُ) ؛ وُلِدَ بِـ (قُرْطُبَةَ) ، وَكَانَتْ لَهُ - وَلِأَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ - رِيَاسَةُ الْوَزَارَةِ ، وَتَدْبِيرُ الْمَمْلَكَةِ ، فَزَهِدَ فِيهَا ، وَانْصَرَفَ إِلَىٰ الْعِلْمِ وَالتَّأْلِيفِ ، فَكَانَ مِنْ صُدُورِ الْبَاحِثِينَ ، فَقِيهًا حَافِظًا ، يَسْتَنْبِطُ الْأَحْكَامَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، بَعِيدًا عَنِ الْمُصَانَعَةِ ، وَانْتَقَدَ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ ، فَتَمَالَؤُوا عَلَىٰ بُغْضِهِ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ تَضْلِيلِهِ ، وَحَذَّرُوا سَلَاطِينَهُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ ، وَنَهَوْا عَوَامَّهُمْ عَنِ الدُّنُوِّ مِنْهُ ، فَأَقْصَتْهُ الْمُلُوكُ وَطَارَدَتْهُ ، فَرَحَلَ إِلَىٰ بَادِيَةِ (لَبْلَةَ) مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، فَتُوُفِّيَ فِيهَا .

وَذَهَبَ الْبَعْضُ الْآخَرُ إِلَىٰ الِاعْتِنَاءِ بِكُتُبِهِ وَنَفَاسَتِهَا ، وَغَضِّ الطَّرْفِ عَنْ سَلَاطَةِ لِسَانِهِ ، فَنَقَلُوا إِلَيْنَا مُعْظَمَهَا .

لَهُ تَرَاجِمُ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا الْقَدِيمُ وَالْحَدِيثُ ، وَأَفْرَدَ الذَّهَبِيُّ لَهُ تَرْجَمَةً فِي كِتَابِهِ (سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ) مُطَوَّلَةً جِدًّا ، أَوْفَاهُ فِيهَا حَقَّهُ ، وَإِنْ كَانَ كَلَامُهُ لَا يَخْلُو مِنْ غَمْزِهِ .

رَاجِعِ الْجُزْءَ [الثَّامِنَ عَشَرَ : صَ ١٨٤] وَمَا بَعْدَهَا . رَحِمَهُ اللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) تَنَاوَلَ ابْنُ حَزْمٍ هَٰذِهِ الْقَضِيَّةَ فِي كِتَابِ [الْفِصَلُ فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ] ، فَقَالَ فِي [جـ٤ / صَ٨٣] وَمَا بَعْدَهَا :

« اتَّفَقَتْ فِرَقُ الْأُمَّةِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا فَنَاءَ لِلْجَنَّةِ وَلَا لِنَعِيمِهَا ، وَلَا لِلنَّارِ وَلَا لِعَذَابِهَا .. إِلَّا =

وَلَـا شَكَّ فِـي ذٰلِكَ ، فَـإِنَّـهُ مَعْـلُـومٌ مِـنَ الـدِّيـنِ بِـالـضَّـرُورَةِ (١) ، وَتَـوَارَدَتِ

=جَهْمَ بْنَ صَفْوَانَ ، وَأَبَا الْـهُذَيْلِ الْعَلَّافَ ، وَقَوْمًا مِنَ الرَّوَافِضِ » . اِهـ .

ثُمَّ أَخَذَ يَسْتَعْرِضُ رَأْيَ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنَ الْفِرَقِ الثَّلَاثِ ، وَأَدِلَّتَهَا ، وَالرَّدَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْـأَدِلَّةِ ؛ وَاسْتَدَلَّ عَلَىٰ رَأْيِ الْـجُمْهُورِ بِـمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالـسُّـنَّةِ . اُنْظُرِ الْكِتَابَ الْـمَذْكُورَ أَعْلَاهُ / طَ الْـمُثَنَّىٰ بِبَغْدَادَ ، وَالْـخَانِـجِيِّ بِالْقَاهِرَةِ .

وَمِـمَّـا يَـجِبُ أَنْ نُشِيرَ إِلَيْهِ هُنَا .. أَنَّ لَفْظَ (الْإِجْـمَـاعِ) الَّذِي نَسَبَهُ السُّبْكِيُّ إِلَـىٰ ابْنِ حَزْمٍ لَيْسَ هُوَ الْإِجْـمَـاعَ الْـمَعْرُوفَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ ، وَالَّذِي هُوَ مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ التَّشْرِيعِ عِنْدَ الْبَعْضِ ، وَإِنَّـمَا الْـمُرَادُ بِـ (الْإِجْـمَـاعِ) هُوَ : تَطَابُـقُ الْـآرَاءِ عَلَىٰ مَسْأَلَةٍ بِعَيْنِهَا . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) « الضَّـرُورَةُ » اسْمٌ جَامِعٌ يُطْلَقُ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ :

١- أَحَدُهُـمَا : « الضَّرُورَةُ الْـمُطْلَقَةُ » ، وَهِيَ الَّتِي نُسَلِّمُ بِأَنَّ مَدْلُولَـهَا ضَرُورِيٌّ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَـا قَيْدٍ ؛ وَمِنْ أَمْثِلَةِ هَـٰذَا الْقِسْمِ : جَـمِيعُ الْـمَسَائِلِ الْـإِيـمَـانِيـَّةِ ، كَأَنْ نَقُولَ : إِنَّ صَانِعَ الْعَالَـمِ وَاحِدٌ . وَالْـمَسَائِلُ الرِّيَاضِيَّةُ الْبَحْتَةُ ، كَأَنْ نَقُولَ : إِنَّ الْـجُزْءَ أَصْغَرُ مِنَ الْكُلِّ ، وَإِنَّ الْكُلَّ أَكْبَرُ مِنْ جَـمِيعِ أَجْزَائِهِ ؛ أَوْ نَقُولَ : (١ + ١ = ٢) . هَـٰذِهِ جَـمِيعُهَا ضَرُورَاتٌ مُطْلَقَةٌ ، لَـا تَـحْتَاجُ إِلَـىٰ شَرْطٍ أَوْ حَالٍ لِكَيْ تَكُونَ ضَرُورِيـَّةً .

٢- وَهُنَاكَ قِسْمٌ آخَرُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّـرُورَةِ ، وَهُوَ : الَّذِي يَـحْتَوِي أُمُورًا نَـحْكُمُ بِضَرُورَتِـهَا ، لِشَرْطٍ أَوْ حَالٍ يُوجِبُ هَـٰذِهِ الضَّرُورَةَ .

وَيَنْدَرِجُ تَـحْتَ هَـٰذَا النَّوْعِ مِنَ الضَّـرُورَةِ أَنْوَاعٌ مُـخْتَلِفَةٌ :

(أَ) مِنْهَا الضَّـرُورَةُ الْـمَنْطِقِيَّةُ ، كَأَنْ نَقُولَ : إِذَا كَانَ [أ = جـ] ، وَ[جـ = د] إِذَنْ [أ = د] .

وَهَـٰذَا أَمْرٌ ضَـرُورِيٌّ ، كَانَ شَـرْطُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ هُوَ الَّذِي أَوْصَلَهُ إِلَـىٰ الضَّـرُورَةِ .

(ب) وَهُنَاكَ نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الضَّـرُورَةِ الشَّـرْطِيَّةِ ، وَهُوَ : الضَّـرُورَةُ الطَّبِيعِيَّةُ ، كَأَنْ نَقُولَ : إِنَّ الْـمَعْدَنَ الْفُلَانِـيَّ يَتَمَدَّدُ بِالْـحَرَارَةِ . فَالَّذِي أَوْصَلَنَا إِلَـىٰ هَـٰذِهِ النَّتِيجَةِ هُوَ اخْتِبَارُ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ تَـجْرِيبِيًّا فِـي الْوَاقِعِ الْـمَحْسُوسِ .

(جـ) وَهُنَاكَ ضَـرُورَةٌ مِثَالِيَّةٌ وَأَخْلَاقِيَّةٌ ، وَهِيَ الَّتِي تُقَاسُ إِلَـىٰ ذِرْوَةِ أَيِّ نِظَامٍ كَانَ ، فَزِيَارَةُ الْـمَرِيضِ وَعِيَادَتُهُ ضَـرُورَةٌ ، وَحِرْصُ الْـإِنْسَانِ عَلَىٰ الْعَمَلِ لِتَحْصِيلِ قُوتِهِ - كَيْ لَـا يَكُونَ عَالَةً عَلَىٰ غَيْرِهِ - =

الْأَدِلَّةُ عَلَيْهِ ، قَالَ :

١ - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة : ٣٩] .

٢- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [البقرة : ٨١] .

٣- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة : ١٦١ - ١٦٢] .

٤- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة : ٢١٧] .

= ضَرُورَةٌ . وَهَٰذِهِ الضَّرُورَاتُ وَأَمْثَالُهَا تُقَاسُ إِلَىٰ ذِرْوَةِ مِثَالٍ عَامٍّ .

(دَ) وَهُنَاكَ نَوْعٌ أَخِيرٌ مِنَ الضَّرُورَةِ الْمَشْرُوطَةِ ، وَهِيَ : تِلْكَ الضَّرُورَةُ الَّتِي يُحْدِثُهَا **الدَّلِيلُ الْقَطْعِيُّ** ، بِمَعْنَىٰ : أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ قَضِيَّةٌ مَا شَرْعِيَّةٌ ، قَامَ الدَّلِيلُ الْقَطْعِيُّ عَلَىٰ ثُبُوتِهَا ، وَنِسْبَةِ الْإِلْزَامِ بِهَا مِنَ الشَّارِعِ إِلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ .. كَانَ الْعِلْمُ بِمُقْتَضَىٰ هَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ وَالتَّصْدِيقُ بِهَا أَمْرًا ضَرُورِيًّا ؛ وَمَعْنَىٰ أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ الْمُؤَدِّي إِلَىٰ الْعِلْمِ بِهَا قَطْعِيًّا : أَنْ يَكُونَ **قَطْعِيَّ الثُّبُوتِ** ، أَيْ : مُتَوَاتِرًا ، تَنْقُلُهُ جَمَاعَةٌ عَنْ جَمَاعَةٍ ، يُحِيلُ الْعَقْلُ تَوَاطُؤَهُمْ عَلَىٰ الْكَذِبِ ، مِنْ أَوَّلِ السَّنَدِ إِلَىٰ مُنْتَهَاهُ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ .. أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ الْمُؤَدِّي إِلَىٰ الْعِلْمِ بِهَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ وَالتَّصْدِيقِ بِهَا **قَطْعِيَّ الدَّلَالَةِ** ، أَيْ أَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ تَأْوِيلًا ، وَلَا يَقْبَلُ احْتِمَالًا . (الْمُحَقِّقُ) .

٥- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

٦- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

٧- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [آل عمران : ٨٨ – ٨٩] .

٨- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران : ١١٦] .

٩- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء : ١٤] .

١٠- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء : ٩٣] .

١١- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ ...﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ [النساء : ١٦٨ – ١٦٩] .

١٢- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

١٣- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: ٣٦] .

١٤- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ﴾ [التوبة: ٦٣] .

١٥- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾ [التوبة: ٦٨] .

١٦- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس: ٢٧] .

١٧- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧] .

١٨- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾ [الرعد: ٥] .

١٩- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ [النحل: ٢٩] .

٢٠- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٩] .

٢١- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون : ١٠٣] .

٢٢- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة : ١٤] .

٢٣- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٩] .

٢٤- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٥] .

٢٥- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧٢] .

٢٦- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت : ٢٨] .

٢٧- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥] .

٢٨- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ [محمد : ١٥] .

٢٩- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: ١٧] .

٣٠- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ﴾ [الحشر: ١٧]

٣١-وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٠﴾ [التغابن: ١٠] .

٣٢- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن: ٢٣] .

٣٣- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ [البينة: ٦] .

فَهَٰذِهِ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ[1] آيَةً فِيهَا لَفْظُ

(١) يُشِيرُ الْمُؤَلِّفُ هُنَا إِلَىٰ أَنَّ مَا أَحْصَاهُ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً وَرَدَ فِيهَا لَفْظُ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أَوْ مَادَّتُهُ ، وَالْمُتَأَمِّلُ فِيمَا ذَكَرَهُ .. يَجِدُ أَنَّ مَا ذَكَرَ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً فَقَطْ ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ هُنَاكَ سَهْوٌ قَدْ وَقَعَ مِنَ النَّاسِخِ ، فَأَسْقَطَ بَعْضَ الْآيَاتِ .

وَلَسْنَا نَدْرِي .. هَلْ يَعْتَقِدُ الشَّيْخُ السُّبْكِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا لَفْظُ (الْخُلُودِ) أَوْ مَادَّتُهُ مُضَافًا إِلَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ هُوَ مَا ذَكَرَهُ فَقَطْ ؟ .

إِنْ كَانَ كَذَٰلِكَ .. فَإِنَّنَا نَسْتَدْرِكُ عَلَيْهِ بِذِكْرِ بَعْضِ الْآيَاتِ الَّتِي لَمْ يَذْكُرْهَا ، وَمِنْهَا :

٣٤- أَوَّلًا : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ٨٠﴾ [المائدة: ٨٠] .

٣٥- ثَانِيًا : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ١٧﴾ [التوبة: ١٧] .

٣٦- ثَالِثًا : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا =

(الْخُلُـودِ)(١) وَمَـا اشْتُـقَّ مِـنْهُ، [وَمِنْهَا](٢) أَرْبَعٌ مَعَ (التَّأْبِيدِ)(٣).

= كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس: ٥٢].

٣٧- رَابِعًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر: ٧٦]. (الْمُحَقِّقُ).

(١) فِيمَا تَحْتَ أَيْدِينَا مِنَ الْمَرَاجِعِ نَجِدُ كَلِمَةَ ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا بِمَعْنَىٰ (التَّأْبِيدِ)، وَلَٰكِنَّهَا - فِي غَيْرِ الْغَالِبِ - تُسْتَعْمَلُ وَيُرَادُ مِنْهَا (الْمُكْثُ الطَّوِيلُ)، وَاسْتِعْمَالُهَا فِي الْمَعْنَىٰ الْأَخِيرِ .. يَكُونُ فِي الْجُمْلَةِ مَا يَصْرِفُهَا إِلَيْهِ. رَاجِع [ابْنَ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (خ-ل-د) جـ٢ / ص١٢٢٥] وَمَا بَعْدَهَا؛ وَ[الْمُعْجَمَ الْفَلْسَفِيَّ] جَمِيلٌ صَلِيبَةُ [جـ١ / ص٥٤٤- مَادَّةُ (خُلُودٌ)] وَغَيْرَهُمَا. (الْمُحَقِّقُ).

(٢) مَا بَيْنَ الْمَعْكُوفَتَيْنِ سَاقِطٌ مِنَ الْمَخْطُوطَةِ. (الْمُحَقِّقُ).

(٣) قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي [لِسَانُ الْعَرَبِ: جـ١١ / ص٤] مَادَّةُ (أَبَدَ): «**الْأَبَدُ: الدَّائِمُ. وَالتَّأْبِيدُ: التَّخْلِيدُ. وَأَبَدَ بِالْمَكَانِ، يَأْبِدُ - بِالْكَسْرِ - أُبُودًا: أَقَامَ بِهِ وَلَمْ يَبْرَحْهُ**». اهـ.

وَالْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ فِي (الْأَبَدِ) إِنَّهُ: (الزَّمَانُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَلَا انْتِهَاءٌ، أَوِ الْمُدَّةُ الَّتِي لَا يُتَوَهَّمُ انْتِهَاؤُهَا بِالْفِكْرِ وَالتَّأَمُّلِ، أَوِ الشَّيْءُ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ).

وَالْآيَاتُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي النَّارِ وَفِيهَا لَفْظُ (التَّأْبِيدِ) مُقْتَرِنًا بِـ (الْخُلُودِ) هِيَ:

١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ [النساء: ١٦٨ - ١٦٩].

٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٥].

٣- ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٢٣].

هَٰذَا مَا وَرَدَ ذِكْرُهُ عِنْدَهُ مِنْ آيَاتٍ وَرَدَ فِيهَا ذِكْرُ (التَّأْبِيدِ) بَعْدَ (الْخُلُودِ) مُضَافًا إِلَىٰ أَهْلِ =

وَالْآيَاتُ الَّتِي فِي مَعْنَاهُ كَثِيرَةٌ أَيْضًا :

١- كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦] .

٢- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة : ١٦٢] .

٣- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة : ١٦٧] .

٤- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ٢٠٠﴾ [البقرة: ٢٠٠][1] .

= النَّارِ ، وَمَجْمُوعُهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ كَمَا تَرَىٰ ؛ وَقَدْ صَرَّحَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِأَنَّهُ (أَيْ : لَفْظُ التَّأْبِيدِ) قَدْ وَرَدَ مُضَافًا إِلَىٰ أَهْلِ النَّارِ وَإِقَامَتِهِمْ فِيهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ ؛ وَبِالِاسْتِقْرَاءِ فِيمَا كَتَبَ .. لَمْ نَجِدْ إِلَّا هَٰذِهِ الثَّلَاثَةَ ، وَكَذَا بِالِاسْتِقْرَاءِ لِآيِ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ .. مَا وَجَدْنَا غَيْرَ هَٰذِهِ الثَّلَاثَةِ ، وَنَظُنُّ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ غَيْرُهَا ، فَإِنْ وَجَدَهُ الْقَارِئُ الْكَرِيمُ فَلْيُثْبِتْهُ . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) مَا قَبْلَ هَٰذِهِ الْآيَةِ مِمَّا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ لِيَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَىٰ (التَّأْبِيدِ) ضِمْنًا .. وَاضِحٌ فِيمَا ذَكَرَهُ ؛ أَمَّا هَٰذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ٢٠٠ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] .. لَا يَخْلُصُ لَهُ الْمُرَادُ مِنْهَا إِلَّا إِذَا وَقَفْنَا عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَعْنَاهَا .

وَ (الْخَلَٰقُ) كَلِمَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ مِنْهَا : (الْأَلْيَقُ) وَ (الْأَحَقُّ) ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ مِنْهَا : الْأَمْرُ الْمَخْلُوقُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ ؛ وَيُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ الْآيَةَ - عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ- هَٰكَذَا : ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ٢٠٠ ﴾ أَيْ : مِنْ نَصِيبٍ أَلْيَقَ بِهِ وَأَوْلَىٰ ؛ وَيُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَهَا - عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الثَّانِي- هَٰكَذَا : ﴿ وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ٢٠٠ ﴾ أَيْ : شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهُ . وَعَلَىٰ كِلَا الْمَعْنَيَيْنِ .. فَكَلِمَةُ ﴿خَلَٰقٍ﴾ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ نَفْيٍ قَدْ سَبَقَهَا وَتَقَدَّمَ عَلَيْهَا هُوَ ﴿مَا ﴾ ، وَالنَّكِرَةُ إِذَا جَاءَتْ بَعْدَ النَّفْيِ وَوَقَعَتْ فِي سِيَاقِهِ .. تَعُمُّ . فَلَيْسَ لَهُ مِنْ خَيْرٍ يَلِيقُ بِهِ قَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، أَوْ يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ .

وَهَٰذَا كُلُّهُ إِذَا قُلْنَا إِنَّ جُمْلَةَ : ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ٢٠٠ ﴾ هِيَ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَنْ حَالِ الْكَافِرِينَ فِي الْآخِرَةِ ، وَهَٰذَا هُوَ الرَّاجِحُ فِي الْآيَةِ . =

٥- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران : ٢٢] (١) .

= عَلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ فَهْمًا آخَرَ فِيهَا ، يُؤَكِّدُ أَنَّ هَـٰذِهِ الْـجُمْلَةَ : ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾﴾ حِكَايَةٌ يَـحْكِيهَا اللَّـٰهُ لِيَعِيبَ بِـهَا دُعَاءَ الْكَافِرِينَ وَالنَّفْعِيِّينَ قِصَارِ النَّظَرِ ، الَّذِينَ إِذَا سَأَلُوهُ اقْتَصَرُوا عَلَىٰ طَلَبِ الْـمَنْفَعَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ؛ أَمَّا خَيْرُ الِآخِرَةِ فَلَيْسَ بِوَارِدٍ فِي دُعَائِهِمْ ، وَلَـا يَـخْطُرُ طَلَبُهُ عَلَىٰ أَفْئِدَتِـهِمْ ، فَيُـحَذِّرُ اللَّـٰهُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِـهِمْ ، وَيَـأْمُرُ الْـمُؤْمِنِينَ بِهِ إِذَا دَعَوْهُ أَنْ يَقُولُوا : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة : ٢٠١] .

وَعَلَىٰ هَـٰذَا الْفَهْمِ الْأَخِيرِ فِي الْـآيَةِ .. فَإِنَّـهُ لَـا يَكُونُ هُنَاكَ وَجْهٌ لِإِيـرَادِ السُّبْكِيِّ لَـهَا هُنَا ، لِتَكُونَ بَيْنَ الْـآيَـاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ الْعَذَابِ الْـمُؤَبَّدِ فِي الْـآخِرَةِ ضِمْنًا .

وَالشَّيْخُ ابْنُ كَثِيرٍ شَرَحَ هَـٰذِهِ الْـآيَةَ بِعِبَارَةٍ ضَيِّقَةٍ لَـا تَـحْتَمِلُ هَـٰذَا كُلَّهُ ، وَأَفَاضَ غَيْرُهُ فِي شَرْحِهَا ، لِيَتَنَاوَلَ وُجُوهَ الدَّلَـالَةِ مِنْهَا عَلَىٰ نَـحْوِ مَا فَعَلَ صَاحِبُ كِتَابِ (رُوحِ الْـمَعَانِي) شِهَابُ الدِّينِ الْـآلُوسِيُّ الْبَغْدَادِيُّ .

رَاجِعْ [تَفْسِيرَ ابْنِ كَثِيرٍ : جـ١ / صـ٢٤٣] وَمَا بَعْدَهَا ، طَ عِيسَىٰ الْبَابِيِّ الْـحَلَبِيِّ . وَ[تَفْسِيرَ رُوحِ الْـمَعَانِي : [جـ٢/ صـ٩٠] وَمَا بَعْدَهَا ، دَارُ الْفِكْرِ بَيْرُوتُ ، وَمَا بَعْدَهَا . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) وهَـٰذِهِ الْـآيَةُ هِيَ الْـأُخْرَىٰ قَدْ أَوْرَدَهَا الشَّيْخُ لِتَدُلَّ عَلَىٰ (التَّأْبِيدِ) ضِمْنًا .

وَيُـمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مَعْنَىٰ (التَّأْبِيدِ) الْـمُتَضَمَّنَ فِي هَـٰذِهِ الْـآيَةِ إِذَا عَلِمْنَا :

أَوَّلًـا : إِنَّ الْـ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ الْـمَنْفِيَّةَ فِي الْـآيَةِ نَكِرَةٌ وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ، فَتَعُمَّ ، عَلَىٰ نَـحْوِ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ سَلَفًا .

ثَانِيًا : إِنَّ هَـٰذِهِ الْـآيَـةَ وَإِنْ كَانَتْ عَامَّةً بِـمَعْنَاهَا لِتَشْمَلَ جَـمِيعَ الْكَافِرِينَ .. إِلَّـا إِنَّـهَا وَارِدَةٌ هُنَا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَنْعِي عَلَيْهِمْ أَنَّـهُمْ قَتَلَةُ أَنْبِيَاءَ ، وَقَتَلَةُ الدُّعَاةِ إِلَـىٰ اللَّـٰهِ بِالْقِسْطِ .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ نَاصِرٌ بِـمَعْنَىٰ الْـمُدَافِعِ عَـنِ الْكَافِـرِينَ - أَوْ غَيْرِهِمْ - بِالْغَلَبَةِ وَالسُّلْطَانِ ، وَإِنَّـمَـا فِي الْـآخِرَةِ شُفَعَاءُ يَأْذَنُ لَـهُمُ اللَّـٰهُ بِالشَّفَاعَةِ ؛ وَالشُّفَعَاءُ أَنْبِيَاءُ وَصَالِـحُونَ ، كَانُـوا يَدْعُونَ إِلَـىٰ اللَّـٰهِ فِي الدُّنْيَا ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الَّذِينَ يَقِفُونَ إِلَـىٰ جَانِبِ الْـحَقِّ أَوْ يَدْعُونَ إِلَيْهِ ، وَالْـأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِـحُونَ قَدْ قَتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، أَوْ قَتَلُوا مِنْهُمْ ، فَكُوفِئُوا بِنَظِيرِ عَمَلِهِمْ ، فَلَا يَشْفَعُ=

٦- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] (١).

٧- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١﴾ [النساء: ١٢١] (٢).

٨- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ

= لَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَلَا الصَّالِحُونَ، وَكَذَا لَا تَشْفَعُ الْمَلَائِكَةُ، وَلَا يَشْفَعُ لَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِكَيْ يَتَحَقَّقَ نَفْيُ النُّصْرَةِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا، فَلَا يَبْقَىٰ لَهُمْ - بَعْدَ ذَٰلِكَ - سِوَىٰ الْعَذَابِ الْمُقِيمِ.

وَالْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ قَدْ مَرَّ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْآيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُلْمِحَ فِيهَا بِشَيْءٍ إِلَىٰ هَٰذَا التَّضْمِينِ الَّذِي مُؤَدَّاهُ: دَوَامُ الْعَذَابِ لِلْكَافِرِينَ فِي الْآخِرَةِ، الْأَمْرُ الَّذِي لَحَظَهُ نَحْوُ الشَّيْخِ شِهَابِ الدِّينِ الْآلُوسِيِّ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ إِشَارَةً خَفِيَّةً أَوْ ظَاهِرَةً فِي تَفْسِيرِهِ.

أُنْظُرِ الْحَافِظَ ابْنَ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ [تَفْسِيرٌ: جـ١/ صـ٣٥٥]، وَ[تَفْسِيرَ رُوحِ الْمَعَانِي لِلْآلُوسِيِّ: جـ٣/ صـ١١٠]. (الْمُحَقِّقُ).

(١) وَهَٰذِهِ الْآيَةُ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ تَتَضَمَّنُ (التَّأْبِيدَ) مِنْ لَفْظِ ﴿كُلَّمَا﴾، حَيْثُ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - حَدًّا يَقِفُ عِنْدَهُ تَبَدُّلُ جُلُودِهِمْ، وَقَدْ فَهِمَ ابْنُ كَثِيرٍ ﷺ مِنَ الْآيَةِ بِتَمَامِهَا أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: دُخُولُ الْكَافِرِينَ النَّارَ، وَقَدْ فَهِمَهُ مِنْ مَطْلَعِ الْآيَةِ.

ثَانِيًا: دَوَامُهُمْ فِيهَا مِنْ غَيْرِ حَدٍّ، وَقَدْ فَهِمَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ...﴾ [النساء: ٥٦]، وَالْآيَةُ بِتَمَامِهَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦﴾ [النساء: ٥٦]. [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: جـ١/ صـ٥١٤]. (الْمُحَقِّقُ).

(٢) وَالْآيَةُ: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١﴾ [النساء: ١٢١]، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ عَنْهَا مَنْدُوحَةٌ، وَلَا مَصْرِفَ، وَلَا خَلَاصَ، وَلَا مَنَاصَ.

[تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: جـ١/ صـ٥٥٦]. (الْمُحَقِّقُ).

مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة : ٣٧] .

٩- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود : ٨] [١] .

١٠- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٦] .

١١- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْهُمْ : ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١] [٢] .

١٢- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٩] [٣] .

---

(١) وَالْآيَةُ : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ .

(٢) وَالْآيَةُ : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ .

(٣) قَالَ الشَّيْخُ الْآلُوسِيُّ فِي شَرْحِهِ لِهَٰذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ : « ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ عَلَىٰ حَذْفِ الْمَخْصُوصِ بِالذَّمِّ ، أَيْ : بِئْسَ الْقَرَارُ هِيَ ، أَيْ : جَهَنَّمُ ، أَوْ بِئْسَ الْقَرَارُ قَرَارُهُمْ فِيهَا . وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ حُلُولَهُمْ وَصِلِيَّهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ » اهـ .

[تَفْسِيرُ الْآلُوسِيِّ : مُ ٥ / جـ١٣/ صـ٢١٩] .

وَالْمُصَنِّفُ - وَمَعَهُ الْمُفَسِّرُونَ - حِينَ يَفْهَمُونَ الدَّوَامَ وَالِاسْتِمْرَارَ مُتَضَمَّنًا فِي هَٰذِهِ الْآيَةِ .. إِنَّمَا يَفْهَمُونَهُ مِنْ لَفْظِ ﴿ٱلْقَرَارُ﴾ ، وَالْقَرَارُ : هُوَ الثُّبُوتُ وَالدَّوَامُ فِي الْمَكَانِ ، فَالَّذِي يَقَرُّ فِي مَكَانِهِ .. يَثْبُتُ فِيهِ وَيَسْكُنُ ؛ وَالْحَضَرُ قَارُّونَ فِي الْمُدُنِ وَالْحَوَاضِرِ ، عَلَىٰ خِلَافِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ يَتَنَقَّلُونَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ آخَرَ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَتِ الْآيَةُ أَنَّ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ =

١٣- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون : ١٠٨] (١) .

١٤- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ [العنكبوت : ٢٣] (٢) .

١٥- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية : ٣٥] (٣) .

= - وَهِيَ الْإِيـمَانُ - كُفْرًا ، وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، سَيَصْلَوْنَ جَهَنَّمَ وَيَقَرُّونَ فِيهَا ، أَيْ : يَثْبُتُونَ بِلَا انْتِهَاءٍ ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ قَرَارُهُمْ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

رَاجِع ابْنَ مَنْظُورٍ [لِسَانُ الْعَرَبِ : مَادَّةُ (قَرَّ) - جـ٥ / ص٣٥٧٨] . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) هَـٰذِهِ الْـآيَةُ يُورِدُهَا الْـمُصَنِّفُ ضِمْنَ الْـآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ بِـمَضْمُونِـهَا عَلَىٰ الْـأَبَدِيَّةِ ، فَالَّذِي يَقْرَأُ السِّيَاقَ .. يَسْتَشْعِرُ بِنَفْسِهِ هَـٰذَا الْـمَعْنَىٰ ، حَيْثُ رَأَىٰ أَهْلُ النَّارِ أَنْ يَعْتَذِرُوا إِلَـىٰ اللَّـٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِغَلَبَةِ الْـهَوَىٰ وَالشَّقْوَةِ عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يُقْبَلْ لَـهُمْ عُذْرٌ ، وَإِنَّـمَا حَذَرَ عَلَيْهِمُ الْكَلَامَ حَذْرًا ، وَزُجِرُوا بِالْـإِعْلَانِ أَنْ يَـخْسَئُوا فِيهَا وَلَـا يَتَكَلَّمُوا ، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: ١٠٣ - ١٠٨] . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) يَقْصِدُ إِلَـىٰ قَوْلِهِ تَعَالَـىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٣ ﴾ [العنكبوت : ٢٣] . وَفِي هَـٰذَا رَدٌّ صَرِيحٌ عَلَىٰ مَنْ يَقُولُ : (إِنَّـهُ سَيَأْتِي وَقْتٌ فِي الْـآخِرَةِ تَشْمَلُ فِيهِ رَحْمَةُ اللَّـٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - الْكَافِرِينَ) . مَهْمَا تَعَلَّلُوا لِذَٰلِكَ أَوْ تَـأَوَّلُوا . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٣) هَـٰذِهِ الْـجُمْلَةُ خِتَامُ مَوْقِفٍ يَتَحَدَّثُ فِيهِ الْقُرْءَانُ عَنِ الْكَافِرِينَ ، بَعْدَ الْـحَدِيثِ عَنِ الْـمُؤْمِنِينَ ، وَيُبَيِّنُ مَا كَانَ لَـهُمْ مِنْ شَكٍّ وَرَيْبٍ وَلَعِبٍ وَلَهْوٍ وَاسْتِهْزَاءٍ بِـآيَاتِ اللَّـٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمَا سَيَكُونُ لَـهُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ مِـنْ جَزَاءٍ وَعُقُوبَةٍ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ =

١٦- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢] "[1].

١٧- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ ﴾ [فاطر : ٣٦] "[2].

= وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥ ﴾ [الجاثية : ٣١-٣٥] . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) وَهِيَ وَمَا قَبْلَهَا ﴿ * هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢ ﴾ [الحج: ١٩-٢٢] . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ ﴾ [فاطر : ٣٦] . وَهِيَ بَالِغَةُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ الْمُصَنِّفُ قَوْلَهُ ، حَيْثُ إِنَّ فِي الْآيَةِ نَفْيَ الْحُكْمِ بِالْمَوْتِ ، وَالْحُكْمُ سَابِقٌ عَلَىٰ التَّنْفِيذِ بِاعْتِبَارِهِ سَبَبَهُ ، وَانْتِفَاءُ السَّبَبِ يَقْتَضِي انْتِفَاءَ الْمُسَبَّبِ قَطْعًا ، وَهَٰذَا أَبْلَغُ فِي التَّعْبِيرِ ؛ وَقَدْ يَتَصَوَّرُ الْبَعْضُ أَنَّ أَهْلَ [النَّارِ] ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ ﴾ ، وَلَٰكِنْ رُبَّمَا تَتَحَوَّلُ طَبِيعَتُهُمْ إِلَىٰ طَبِيعَةِ النَّارِيَّةِ ، فَتُلَائِمَ جِنْسَ النَّارِ فَلَا يَشْعُرُونَ بِالْعَذَابِ ، أَوْ تَتَحَوَّلُ النَّارُ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا ، فَلَا يَشْعُرُونَ بِالْعَذَابِ ، مَعَ الِاحْتِفَاظِ بِطَبِيعَتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ ؛ وَقَدْ سَدَّ النَّصُّ هَٰذِهِ الْأَبْوَابَ جَمِيعَهَا ، وَأَوْصَدَهَا فِي وَجْهِ الْمُجَادِلِينَ ، حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ ﴾ ، فَأَصْبَحَ الْمَعْنَىٰ =

١٨- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧] .

١٩- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية: ٣٥] .

٢٠- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: ٤٩] (١).

٢١- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤] .

= كَامِلًا ، لَا فَنَاءَ وَلَا مَوْتَ ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ؛ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ . نَسْأَلُ اللَّٰهَ السَّلَامَةَ وَالْأَمَانَ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) وَكَأَنِّي بِالْمُصَنِّفِ - رَحِمَهُ اللَّٰهُ تَعَالَىٰ - يَفْهَمُ الْأَبَدِيَّةَ مُتَضَمَّنَةً فِي هَٰذِهِ الْآيَةِ ، حَيْثُ إِنَّهُ لَوْ كَانَ لِأَهْلِ النَّارِ مَطْمَعٌ فِي الْخُرُوجِ وَانْتِهَاءِ مُدَّةِ الْعَذَابِ .. لَسَأَلُوا اللَّٰهَ أَنْ يُعَجِّلَ بِهَا ، وَلَٰكِنَّهُمْ مَا سَأَلُوهُ ذَٰلِكَ ، وَإِنَّمَا قُصَارَىٰ مَا طَلَبُوهُ هُنَا .. هُوَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُمْ أَلَمَ النَّارِ مِقْدَارَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ؛ وَيَظْهَرُ مِنَ النَّصِّ - عَلَىٰ مَا فَهِمَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ - أَنَّ هَٰذَا الْمَطْلَبَ كَانَ بَعْدَ أَنْ قَالَ اللَّٰهُ لَهُمُ : ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] . فَأُلْجِئُوا إِلَىٰ وَسَاطَةِ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ ؛ أَوْ أَنَّهُمْ لَمَّا أَحَسُّوا بِضَآلَةِ قَدْرِهِمْ عِنْدَ اللَّٰهِ ، وَأَنَّهُمْ لَا مَكَانَةَ لَهُمْ عِنْدَهُ .. لَجَئُوا إِلَىٰ وَسَاطَةِ خَزَنَةِ النَّارِ . وَأَيًّا مَا كَانَ الْأَمْرُ .. فَهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ هُنَا ، وَلَمْ يَطْلُبُوا التَّعْجِيلَ بِفَنَائِهِمْ وَفَنَائِهَا ، وَلَوْ كَانَ مُمْكِنًا لَطَلَبُوهُ ، وَإِنَّمَا عَدَلُوا عَنْهُ إِلَىٰ مَطْلَبٍ بَسِيطٍ .. أَنْ يُخَفِّفَ اللَّٰهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ مُدَّةَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ؛ وَحَتَّىٰ هَٰذِهِ لَمْ تَلْقَ اسْتِجَابَةً ، وَإِنَّمَا كَانَ الْجَوَابُ عَنْهَا بِالتَّعْنِيفِ : ﴿قَالُوٓاْ﴾ أَيْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٥٠] . (الْـمُحَقِّقُ) .

٢٢- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾ [الشورى: ٤٥] .

٢٣- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦] .

٢٤- وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النبأ: ٣٠] .

٢٥- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾ [الأعلى: ١٣] .

٢٦- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ [البلد: ٢٠ / الهمزة: ٨] [1] .

٢٧- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ [الانفطار: ١٦] [2] .

وَغَيْرُهَا مِنَ الْآيَاتِ كَثِيرٌ فِي هَٰذَا الْمَعْنَىٰ جِدًّا ؛ وَذَٰلِكَ يَمْنَعُ مِنَ

---

(١) وَقَدْ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : « ... ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ أَيْ : مُطْبَقَةٌ عَلَيْهِمْ ، فَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَعِكْرِمَةُ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ ، وَالْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ ، وَالسُّدِّيُّ : ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ أَي : مُطْبَقَةٌ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مُغَلَّقَةُ الْأَبْوَابِ ؛ وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ مُطْبَقَةٌ ، فَلَا ضَوْءَ فِيهَا ، وَلَا فُرَجَ ، وَلَا خُرُوجَ مِنْهَا آخِرَ الْأَبَدِ » اهـ .

[تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ : جـ٤ / صـ٥١٥] . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) وَهِيَ وَمَا قَبْلَهَا : ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ [الانفطار: ١٣-١٦] .

إِلَىٰ هُنَا تَنْتَهِي الْآيَاتُ الْمُخْتَارَةُ الَّتِي اخْتَارَهَا الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّٰهُ - عَلَىٰ أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ (التَّأْبِيد) ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْآيَاتِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَىٰ أَلْفَاظِ (الْخُلُودِ) وَ(التَّأْبِيدِ) صَرَاحَةً عَلَىٰ سَبِيلِ الْحَصْرِ .

ثُمَّ شَرَعَ فِي اسْتِنْبَاطِ النَّتَائِجِ مِمَّا ذَكَرَهُ مُخْتَارًا أَوْ مَحْصُورًا . (الْمُحَقِّقُ) .

احْتِمَـالِ التَّأْوِيلِ ، وَيُـوجِبُ الْقَطْعَ بِذٰلِكَ (١) .

كَمَـا أَنَّ الْـآيَـاتِ الدَّالَّـةَ عَلَىٰ الْبَعْثِ الْـجِسْمَـانِيِّ - لِكَثْرَتِـهَا - يَـمْتَنِعُ تَأْوِيلُهَا ، وَمَـنْ أَوَّلَـهَا .. حَـكَمْنَا بِكُـفْرِهِ ، بِـمُقْتَضَىٰ الْعِلْمِ جُمْـلَـةً ، وَإِنْ كُنْتُ لَـا

(١) الدَّلِيلُ إِذَا كَانَ قَطْعِيَّ الثُّبُوتِ - أَيْ : إِذَا كَانَ مُتَوَاتِرًا - ، وَكَانَ قَطْعِيَّ الدَّلَـالَةِ - أَيْ : لَـا يَـحْتَمِلُ أَكْثَرَ مِنْ وَجْهٍ - .. أَنْتَجَ عِلْمًـا ضَرُورِيـًّا فِـي ذِهْنِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ ، وَالْـآيَـاتُ الَّتِي سَبَقَ الْـمُؤَلِّفُ أَنْ أَوْرَدَهَا مُضَافًا إِلَيْهَا مَا لَـمْ يُورِدْهُ .. كُلُّهَا قَطْعِيَّةُ الثُّبُوتِ ، لِتَوَاتُرِ الْقُرْءَانِ ، وَإِذَا كَانَ بَعْضُهَا ظَنِّيَ الدَّلَـالَةِ ، خَاصَّةً مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الْـآيَـاتِ ، وَالَّتِي ذَكَرَهَا الْـمُؤَلِّفُ وَقَالَ إِنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ الْـأَبَدِيَّةِ ضِمْنًا ؛ فَإِنَّ مَا ذَكَرَهُ أَوَّلًا مِنَ الْـآيَـاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا لَفْظَا (**الْـخُلُودِ**) وَ (**الْـأَبَدِيَّةِ**) أَوْ أَحَدُهُمَـا ، وَهِيَ نَيِّفٌ وَثَلَاثُونَ آيَـةً ، فِيهَا لَفْظَةُ **تَأْبِيدٍ** مَعَ **الْـخُلُودِ** ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، هَـٰذِهِ الْـآيَـاتُ قَطْعِيَّةُ الدَّلَـالَةِ ، لَـا تَـحْتَمِلُ فِيهَا تَأْوِيلًا .

فَلَوْ كَانَتْ وَحْدَهَا مِنْ غَيْرِ انْـضِمَـامِ الْقِسْمِ الثَّانِي - الظَّنِّيِّ الدَّلَـالَةِ - إِلَيْهَا .. لَكَانَتْ كَافِيَةً فِـي إِثْبَاتِ الْـمُرَادِ مِنْهَا ، أَمَّا وَقَدْ أُضِيفَ إِلَيْهَا الْقِسْمُ الثَّانِي ، وَانْعَقَدَ الْـإِجْـمَـاعُ عَلَىٰ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ .. فَإِنَّ الْـمَوْقِفَ - بَعْدَ ذٰلِكَ - لَـمْ يَعُدْ يَـحْتَاجُ أَوْ يَتَحَمَّلُ جَدَلًا وَلَـا لَـجَاجَةً .

وَمِـمَّـا يُوقِعُ الْـإِنْسَانَ فِـي حَيْرَةٍ .. أَنَّ أُنَـاسًا يَذْكُرُونَ فَنَاءَ النَّارِ ، مُـحْتَجِّينَ بِـحُجَجِ الْعَقْلِ فِـي مُقَابَلَةِ النَّصِّ ، حَاكِمِينَ عَلَىٰ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ فِـي الْـآخِـرَةِ بِأَحْكَامِ قَوَانِينِ الدُّنْيَا ، مُتَنَاسِينَ قَوْلَ الْـحَقِّ : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ، فَالسَّمَـاوَاتُ وَالْـأَرْضُ يَتَغَيَّرُ كُلٌّ مِنْهُمَـا وَيَتَبَدَّلُ ، وَكَذَا يَتَغَيَّرُ الزَّمَانُ وَمَقَايِيسُهُ : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحج : ٤٧] ، ﴿... فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج : ٤] .

وَهُنَاكَ رَأْيٌ آخَرُ نَعْجَبُ لَهُ أَيْـضًا غَايَةَ الْعَجَبِ يَقُولُ بِفَنَاءِ النَّارِ ، مُؤَوِّلًـا هَـٰذِهِ النُّصُوصَ الْقَطْعِيَّةَ الَّتِي لَـا تَـحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَيَصْرِفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا ، مُسْتَنِدًا إِلَـىٰ أَحَادِيثَ لَـا تَصِحُّ ، أَوْ لَـا تُسانِدُهُ ، وَأَخْبَارٍ لَـا تَصِحُّ ، أَوْ يُـمْكِنُ صَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا ، وَهَـٰذَا هُوَ مَوْضُوعُ الْـمُنَاقَشَاتِ التَّالِيَةِ . (الْـمُحَقِّقُ) .

أُطْلِقُ لِسَانِي بِتَكْفِيرِ أَحَدٍ مُعَيَّنٍ »[١] .

(١) يُشِيرُ الْمُؤَلِّفُ إِلَىٰ قَضِيَّتَيْنِ لَيْسَتَا مَوْضُوعَ الْبَحْثِ، وَإِنْ كَانَ لَهُمَا صِلَةٌ بِهِ :

الْأُولَىٰ : قَضِيَّةُ الْبَعْثِ الْجِسْمَانِيِّ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا نُصُوصٌ قَاطِعَةٌ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ،وَقَدْ ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ هُنَا – عَلَىٰ مَا أَرَىٰ – لِيَقِيسَ عَلَيْهَا مِنْ نَاحِيَةٍ قِيَاسَ التَّوْضِحِ ، لَا قِيَاسَ الْإِثْبَاتِ ، وَلِيُبَيِّنَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ أَنَّ النَّصَّ الْقَطْعِيَّ لَا يَجُوزُ تَأْوِيلُهُ عَلَىٰ أَيَّةِصُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ ، وَلِيُشِيرَ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ إِلَىٰ أَنَّهُ بِرُغْمِ هَـٰذَا .. فَإِنَّهُ قَدْ أَنْكَرَ بَعْضُ الْفَلَاسِفَةِ وُقُوعَ الْبَعْثِ الْجِسْمَانِيِّ .

الثَّانِيَةُ : قَضِيَّةُ الْكُفْرِ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا يَسْمَحُ الشَّرْعُ بِإِطْلَاقِهَا ، وَالشَّرْعُ – كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ – لَا يُجِيزُ تَكْفِيرَ الْأَعْيَانِ ، وَإِنَّمَا يُجِيزُ فَقَطْ تَكْفِيرَ مَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ صِفَاتٌ مُحَدَّدَةٌ لَا بِعَيْنِهِ ، فَقَدْ يَكُونُ مُتَأَوِّلًا ، إِلَّا إِذَا أَقَرَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِكُفْرٍ صَرِيحٍ ؛ وَقَدِ الْتَزَمَ الْمُؤَلِّفُ بِذَٰلِكَ كَمَا تَرَىٰ فِي النَّصِّ ، وَسَوْفَ يُكَرِّرُهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ آخِرَ هَـٰذِهِ الرِّسَالَةِ .

هَـٰذَا ، وَقَدْ نَقَلَ عَنْهُ صَاحِبُ (الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَىٰ) رَأْيًا فِي التَّكْفِيرِأَصْرَحَ مِنْ هَـٰذَا وَأَكْثَرَ تَفْصِيلًا ، قَالَ : « سُئِلَ سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ السُّبْكِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ – عَنْ حُكْمِ تَكْفِيرِ غُلَاةِ الْمُبْتَدِعَةِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْمُتَفَوِّهِينَ بِالْكَلَامِ عَلَىٰ الذَّاتِ الْمُقَدَّسِ ؟ فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : اِعْلَمْ أَيُّهَا السَّائِلُ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَافَ مِنَ اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – اسْتَعْظَمَ الْقَوْلَ بِالتَّكْفِيرِ لِمَنْ يَقُولُ (لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) ، إِذِ التَّكْفِيرُ أَمْرٌ هَائِلٌ ، عَظِيمُ الْخَطَرِ ، لِأَنَّ مَنْ كَفَّرَ شَخْصًا بِعَيْنِهِ .. فَكَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ عَاقِبَتَهُ فِي الْآخِرَةِ الْخُلُودُ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، وَأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا مُبَاحُ الدَّمِ وَالْمَالِ ، لَا يُمَكَّنُ مِنْ نِكَاحِ مُسْلِمَةٍ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْمُسْلِمِينَ ، لَا فِي حَيَاتِهِ ، وَلَا بَعْدَ مَمَاتِهِ ؛ وَالْخَطَأُ فِي تَرْكِ أَلْفِ كَافِرٍ أَهْوَنُ مِنَ الْخَطَإِ فِي سَفْكِ مُحَجَّمَةٍ مِنْ دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ . وَفِي الْحَدِيثِ : (**لَأَنْ يُخْطِئَ الْإِمَامُ فِي الْعَفْوِ .. أَحَبُّ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ**) * ؛ ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ الْمَسَائِلَ الَّتِي يُفْتَىٰ فِيهَا بِتَكْفِيرِ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ .. فِي غَايَةِ الدِّقَّةِ وَالْغُمُوضِ ، لِكَثْرَةِ شُبَهِهَا ، =

* أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ سَيِّدَتِنَا أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، بِرَقْمِ [١٤٢٤] ، وَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ . اِهـ . خَرَّجَهُ نَاصِرٌعَبْدُ اللَّهِ نَاقِلًا تَضْعِيفَهُ مِنْ صُبْحِي الْحَلَّاقِ مُحَقِّقِ السُّنَنِ.

وَكَذٰلِكَ الْأَحَادِيثُ مُتَظَاهِرَةٌ جِدًّا عَلَىٰ ذٰلِكَ :

١- كَقَوْلِهِ ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ .. فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ تَرَدَّىٰ مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ .. فَهُوَ يَتَرَدَّىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا » . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ [1] .

= وَاخْتِلَافِ قَرَائِنِهَا ، وَتَفَاوُتِ دَوَاعِيهَا ، وَالْاسْتِقْصَاءِ فِي مَعْرِفَةِ الْخَطَإِ عَنْ سَائِرِ صُنُوفِ وُجُوهِهِ ، وَالِاطِّلَاعِ عَلَىٰ حَقَائِقِ التَّأْوِيلِ وَشَرَائِطِهِ فِي الْأَمَاكِنِ ، وَمَعْرِفَةِ الْأَلْفَاظِ الْمُحْتَمِلَةِ لِلتَّأْوِيلِ وَغَيْرِ الْمُحْتَمِلَةِ ؛ وَذٰلِكَ يَسْتَدْعِي مَعْرِفَةَ جَمِيعِ طُرُقِ أَهْلِ اللِّسَانِ مِنْ سَائِرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، فِي حَقَائِقِهَا وَمَجَازَاتِهَا وَاسْتِعَارَتِهَا ، وَمَعْرِفَةَ دَقَائِقِ التَّوْحِيدِ وَغَوَامِضِهِ ... إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا هُوَ مُتَعَذِّرٌ جِدًّا عَلَىٰ أَكَابِرِ عُلَمَاءِ عَصْرِنَا ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ ؛ وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْجَزُ عَنْ تَحْرِيرِ مُعْتَقَدِهِ فِي عِبَارَةٍ .. فَكَيْفَ يُحَرِّرُ اعْتِقَادَ غَيْرِهِ مِنْ عِبَارَتِهِ ؟! فَمَا بَقِيَ الْحُكْمُ بِالتَّكْفِيرِ إِلَّا لِمَنْ صَرَّحَ بِالْكُفْرِ وَاخْتَارَهُ دِينًا ، وَجَحَدَ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَخَرَجَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ جُمْلَةً ؛ وَهٰذَا نَادِرٌ وُقُوعُهُ ؛ فَالْأَدَبُ : الْوُقُوفُ عَنْ تَكْفِيرِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ ، وَالتَّسْلِيمُ لِلْقَوْمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ قَالُوهُ مِمَّا يُخَالِفُ صَرِيحَ النُّصُوصِ » اهـ .

[الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَىٰ لِلشَّعْرَانِيِّ : ص١١] وَمَا بَعْدَهَا ، مَطْبُوعَاتُ مَكْتَبَةِ وَمَطْبَعَةِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ صُبَيْحٍ وَأَوْلَادِهِ . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) وَأَقْرَبُ مَا عَثَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ إِلَىٰ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ : رِوَايَةُ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ .. فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ .. فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ تَرَدَّىٰ مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ .. فَهُوَ يَتَرَدَّىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا » . [كِتَابُ الْإِيمَانِ ، بَابُ غِلَظِ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ ، وَأَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي النَّارِ : جـ١/ ١٠٣ ، ١٠٤ - ح١٧٥] ط عِيسَىٰ الْبَابِيِّ الْحَلَبِيِّ .

وَهٰذَا الْحَدِيثُ - كَمَا تَرَىٰ - إِلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَلَيْسَ إِلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ ، وَلَعَلَّ لَهُ رِوَايَةً عَنْ أَبِي =

٢- وَقَوْلِهِ ﷺ : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا .. فَإِنَهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ » . صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ (١) .

٣- وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَىٰ النَّارِ .. جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّىٰ يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُذْبَحَ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ » . وَفِي رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ : « فَخُلُودٌ

= سَعِيدٍ لَمْ أَقِفْ عَلَيْهَا ، وَهُوَ أَيْضًا فِيهِ حَذْفٌ لِبَعْضِ فَقَرَاتِهِ ، وَقَعَتْ مِنَ الْمُصَنِّفِ اخْتِصَارًا ، إِنْ كَانَتْ هَٰذِهِ الرِّوَايَةُ هِيَ الْمُرَادَةَ ؛ وَرِوَايَةُ أَحْمَدَ قَرِيبَةٌ مِنْ هَٰذِهِ الرِّوَايَةِ : [أَحْمَدُ : ٢ / ٢٥٤، ٤٧٨ ، ٤٨٨] ، وَهِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا .

وَفِي الْبُخَارِيِّ أَيْضًا رِوَايَةٌ إِلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ لِهَٰذَا الْحَدِيثِ ، إِلَّا أَنَّ فِيهَا تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا . [الْبُخَارِيُّ : كِتَابُ ٧٦ الطِّبِّ ، بَابُ ٥٦ شُرْبُ السُّمِّ وَالدَّوَاءِ بِهِ وَبِمَا يُخَافُ مِنْهُ] .

وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَىٰ عَنِ الضَّحَّاكِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ ، قَالَ : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلَامِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا .. فَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ .. عُذِّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » . [كِتَابُ ٢٣ الْجَنَائِزِ ، بَابُ ٨٣ مَا جَاءَ فِي قَاتِلِ النَّفْسِ ، ح ٦٠٤٧] ، وَأَخْرَجَهُ كَذَٰلِكَ فِي نَفْسِ الْبَابِ إِلَىٰ الضَّحَّاكِ بِزِيَادَةٍ : « وَمَنْ رَمَىٰ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ .. فَهُوَ كَقَتْلِهِ » . [ح ٦١٠٥/ ص ٥١٤ / جـ١٠] وَفِي [ح ٦٦٥٢] . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِالسَّنَدِ إِلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا .. فَإِنَهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ : بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا .. أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ ! » .

[مُسْلِمٌ : جـ٣ / ص ٣٧ / كِتَابُ ١ الْإِيمَانِ ، بَابُ إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ وَإِخْرَاجِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ] . (الْمُحَقِّقُ) .

فَلَا مَوْتَ ، وَفِي الْـجَنَّةِ مِثْلُ ذَٰلِكَ » (١) .

(١) هَـٰذَا الْـحَدِيثُ مَرْوِيٌّ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ ، وَلِـأَكْثَرَ مِنْ صَحَابِيٍّ : فَفِـي مُسْلِمٍ بِالسَّنَدِ إِلَـىٰ عَبْدِ اللَّـهِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا صَارَ أَهْلُ الْـجَنَّةِ إِلَـىٰ الْـجَنَّةِ ، وَصَارَ أَهْلُ النَّارِ إِلَـىٰ النَّارِ .. أُتِيَ بِالْـمَوْتِ حَتَّىٰ يُـجْعَلَ بَيْنَ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحَ ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : يَـا أَهْلَ الْـجَنَّةِ لَـا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَـا مَوْتَ ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْـجَنَّةِ فَرَحًا إِلَـىٰ فَرَحِهِمْ ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًـا إِلَـىٰ حُزْنِهِمْ » . [مسْلِمٌ : كِـ ٥١ - الْـجَنَّةُ وَصِفَةُ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا - بَابُ ١٣ النَّارُ يَدْخُلُهَا الْـجَبَّارُونَ ، وَالْـجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ / حَ ٤٣] .

وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ جِدًّا . [الْبُخَارِيُّ : كِتَابُ ٨١ الرِّقَاقُ ، بَابُ ٥١ صِفَةُ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ - حَ ١٨١٢] . وَقَدْ أَخْرَجَ أَحْـمَدُ قَرِيبًا مِنْ ذَٰلِكَ فِي مُسْنَدِهِ [جُـ ٢ / صَ ١١٨] وَكَذَا فِـي [صَ ١٢٠] وَمَا بَعْدَهَا ؛ وَالْـحَدِيثُ نَفْسُهُ قَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَأَخْرَجَهُ أَحْـمَدُ فِـي مُسْنَدِهِ [جُـ ٢ / صَ ٣٦٩] مِـنْ حَـدِيثٍ طَوِيلٍ ، وَ[صَ ٣٧٧] وَ[صَ ٤٢٣] ، وَ[صَ ٥١٣] بِطُرُقٍ مُـخْتَلِفَةٍ ، كُلُّهَا لِـأَبِي هُرَيْرَةَ .

وَمَوْجُودٌ فِـي التِّرْمِذِيِّ كَذَٰلِكَ إِلَـىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ [كِتَابُ ٣٩ / صِفَةُ الْـجَنَّةِ / بَابٌ ٢٠ مَا جَاءَ فِـي خُلُودِ أَهْلِ الْـجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ - الْـحَدِيثُ ٢٥٥٧] .

وَفِـي رِوَايَةٍ لِـأَحْـمَدَ عَنْ عَبْدِ اللَّـهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .. رِوَايَةٌ أُخْرَىٰ مُقَارِبَةٌ مَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ فِـي أَلْفَاظِهَا ؛ وَلَعَلَّ ابْنَ عُمَرَ لَـمْ يَسْمَعْ مِنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، وَلَـا إِشْكَالَ فِيهِ . [أَحْـمَدُ : جُـ ٢ / صَ ٢٦١] . وَالْـحَدِيثُ مَرْوِيٌّ مِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ إِلَـىٰ أَبِـي سَعِيدٍ : أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ بِالسَّنَدِ إِلَـىٰ أَبِـي سَعِيدٍ الْـخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : « يُؤْتَـىٰ بِالْـمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْـجَنَّةِ ،فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَـٰذَا ؟ : فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، هَـٰذَا الْـمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ ؛ ثُمَّ يُنَادِي : يَـا أَهْلَ النَّارِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، فَيَقُولُ: هَـلْ تَعْرِفُونَ هَـٰذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، هَـٰذَا الْـمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ؛ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْـجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ؛ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ وَهَؤُلَـاءِ فِـي غَفْلَةِ أَهْلِ الـدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٩﴾ [مريم : ٣٩] » . [الْبُـخَارِيُّ : =

الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ خُلُودِ الْجَنَّةِ (١)

١- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: ٨٢] .

٢- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران : ١٥] .

= كِتَابُ ٦٥ – تَفْسِيرُ الْقُرْءَانِ ، بَابُ تَفْسِيرِ سُورَةِ مَرْيَمَ ١٩ / ١ ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾] .

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، وَفِي أَلْفَاظِهِ تَقَارُبٌ ، مَعَ بَعْضِ الْحَذْفِ أَوِ الْإِضَافَةِ . [مُسْلِمٌ : كِتَابُ ٥١ – الْجَنَّةُ وَصِفَةُ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا – بَابُ ١٣ – النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ ، وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ] الْحَدِيثُ [٤٠] وَ[٤١] .

وَرُبَّمَا يَسْتَشْكِلُ الْبَعْضُ مِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ حَدِيثٌ عَنِ الْمَوْتِ ، وَالْمَوْتُ عَرَضِيٌّ ، أَوْ مَعْنًىٰ ، وَيُمَثِّلُهُ بِكَبْشٍ أَمْلَحَ يَتَرَآىٰ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ ، وَمَا هَٰكَذَا تَكُونُ الْمَعَانِي ، غَيْرَ أَنَّنَا فِي زَمَنٍ لَا تَحْكُمُ عَلَيْهِ الْقَوَانِينُ الْمَبْثُوثَةُ فِي الدُّنْيَا .

وَأَبُو عِيسَىٰ التِّرْمِذِيُّ قَدِ اسْتَشْعَرَ هَٰذَا الْإِشْكَالَ ثُمَّ أَجَابَ عَلَيْهِ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ الْمُحَدِّثِينَ كَمَا صَرَّحَ هُوَ ، قَالَ : « ... وَالْمَذْهَبُ فِي هَٰذَا – تَجْسِيدُ الْمَوْتِ وَذَبْحُهُ – عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْأَئِمَّةِ : مِثْلَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، وَابْنِ الْمُبَارَكِ ، وَابْنِ عُيَيْنَةَ وَوَكِيعٍ ، وَغَيْرِهِمْ .. أَنَّهُمْ رَوَوْا هَٰذِهِ الْأَشْيَاءَ ثُمَّ قَالُوا : تُرْوَىٰ هَٰذِهِ الْأَحَادِيثُ ، وَنُؤْمِنُ بِهَا ، وَلَا يُقَالُ : كَيْفَ ؟ ؛ وَهَٰذَا الَّذِي اخْتَارَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ .. أَنْ تُرْوَىٰ هَٰذِهِ الْأَشْيَاءُ كَمَا جَاءَتْ ، وَيُؤْمَنَ بِهَا ، وَلَا تُفَسَّرَ ، وَلَا تُتَوَهَّمَ ، وَلَا يُقَالُ : كَيْفَ ؟ ؛ وَهَٰذَا أَمْرُ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَارُوهُ وَذَهَبُوا إِلَيْهِ » .

[تِرْمِذِيٌّ : جـ ٤ / صـ ٦٩٢] طَ مُصْطَفَىٰ الْحَلَبِيِّ . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) هَذَا الْعُنْوَانُ مِنْ وَضْعِي أَنَا ، وَلَيْسَ مِنْ وَضْعِ الْمُصَنِّفِ أَوِ الْمُحَقِّقِ . اهـ . **قَالَهُ نَاصِرٌ** .

٣- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة : ٦٢] .

٤- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] .

٥- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء : ١٣] .

٦- وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ﴾ [النساء : ١٢٢] .

٧- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٥] .

٨- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾ [المائدة : ١١٩] .

٩- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٩] .

١٠- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

١١- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [هود : ٢٣] .

١٢- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس : ٢٦] .

١٣- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود: ١٠٨].

١٤- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد : ٣٥] .

١٥- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] .

١٦- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر: ٤٨] .

١٧- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الكهف : ٢ - ٣] .

١٨- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨] .

١٩- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه: ٧٦] .

٢٠- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾ [الأنبياء: ١٠٢] .

٢١- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ١١] .

٢٢- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان : ١٥] .

٢٣- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦﴾ [الفرقان : ٧٦] .

٢٤- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .

٢٥- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ﴾ [لقمان : ٨ – ٩] .

٢٦- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر : ٧٣] .

٢٧- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ٢٥﴾ [الانشقاق : ٢٥] .

٢٨- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ

﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزخرف: ٧١] .

٢٩- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤﴾ [الأحقاف : ١٣ - ١٤] .

٣٠- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الفتح: ٥] .

٣١- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان : ١٩] .

٣٢- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد : ١٢] .

٣٣- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

٣٤- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ٣٤﴾ [ق: ٣٤] .

٣٥- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٩﴾ [التغابن: ٩] .

٣٦- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ١١﴾ [الطلاق : ١١] .

٣٧- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ

مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٦] .

٣٨- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٧ -٨] .

فَهَٰذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي اسْتَحْضَرْنَاهَا **فِي بَقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ** ، وَبَدَأْنَا بِالنَّارِ لِأَنَّا وَقَفْنَا عَلَىٰ تَصْنِيفٍ لِبَعْضِ [١] أَهْلِ الْعَصْرِ فِي **فَنَائِهَا** ، وَقَدْ ذَكَرْنَا نَحْوَ مِأْئَةِ آيَةٍ [٢] ، مِنْهَا نَحْوٌ مِنْ سِتِّينَ فِي النَّارِ [٣] ، وَنَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ [٤] فِي الْجَنَّةِ ؛ وَقَدْ ذُكِرَ **(الْخُلْدُ)** أَوْ مَا اشْتُقَّ مِنْهُ فِي أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ [٥] فِي النَّارِ ، وَثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ فِي الْجَنَّةِ ، وَذُكِرَ **(التَّأْبِيدُ)** فِي

---

(١) يَقْصِدُ أَبَا عَبْدِ اللَّٰهِ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الْمَعْرُوفَ بِـ (ابْنِ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ / ٦٩١ - ٧٥١ هـ) الزُّرْعِيُّ ، وَهِيَ الْمَحِلَّةُ الَّتِي وُلِدَ بِهَا ، وَتُسَمَّىٰ (زُرْعٌ) بِـ (حَورَانَ) ، وَتُسَمَّىٰ الْيَوْمَ (أَزْرُعُ) ؛ وَالْكِتَابُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ لَعَلَّهُ (حَادِي الْأَرْوَاحِ إِلَىٰ بِلَادِ الْأَفْرَاحِ) كَمَا سَيُؤَكِّدُ ذَٰلِكَ فِيمَا بَعْدُ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) مَا أَوْرَدَهُ مِنَ الْآيَاتِ أَرْبَعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً ، وَسَيَظْهَرُ لَنَا أَنَّ الْعَدَدَ الْكُلِّيَّ هُوَ ثَمَانِيَةٌ وَتِسْعُونَ آيَةً . (الْمُحَقِّقُ) .

(٣) مَا ذَكَرَهُ فِي النَّارِ سِتَّةٌ وَخَمْسُونَ آيَةً ، وَسَيَظْهَرُ لَنَا أَنَّ الْعَدَدَ الْكُلِّيَّ سِتُّونَ آيَةً . (الْمُحَقِّقُ).

(٤) الْوَارِدُ فِي الْجَنَّةِ - حَسْبَمَا أَحْصَيْنَاهُ مِنْ كَلَامِهِ - ثَمَانِيَةٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً ؛ وَعِبَارَةُ الْمُصَنِّفِ دَقِيقَةٌ ، حَيْثُ عَبَّرَ بِمَا يُفِيدُ التَّقْرِيبَ ، أَيْ : أَنَّهُ قَرَّبَ الْعَدَدَ إِلَىٰ أَقْرَبِ عَقْدٍ لَهُ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٥) سَبَقَ أَنْ نَبَّهْنَا عَلَىٰ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ لَفْظِ (الْخُلْدِ) ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ مَوْضِعًا ، وَقَدْ أَضَفْنَا إِلَىٰ هَٰذَا الْعَدَدِ أَرْبَعَةَ مَوَاضِعَ تَتَحَدَّثُ عَنِ (الْخُلُودِ) وَمَا اشْتُقَّ مِنْهُ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ النَّارِ ، لَمْ يَذْكُرْهَا الْمُصَنِّفُ ؛ فَبَلَغَ الْعَدَدُ بِهَا سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ مَوْضِعًا . (الْمُحَقِّقُ) .

أَرْبَعٍ [(١)] فِي النَّارِ مَعَ (الْـخُلُودِ) ، وَفِي ثَمَانٍ فِي الْـجَنَّةِ ، مِنْهَا سَبْعٌ مَعَ (الْـخُلُودِ) .

وَذُكِرَ التَّصْرِيحُ بِعَدَمِ الْـخُرُوجِ – أَوْ مَعْنَاهُ – فِي أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ .

وَتَضَافُرُ هَـٰذِهِ الْـآيَاتِ وَنَظَائِرِهَا يُفِيدُ الْقَطْعَ بِإِرَادَةِ حَقِيقَتِهَا وَمَعْنَاهَا ، وَأَنَّ ذَٰلِكَ لَيْسَ مِـمَّـا اسْتُعْمِلَ فِيهِ الظَّاهِرُ فِي غَيْرِ الْـمُرَادِ بِهِ [(٢)] .

(١) سَبَقَ أَنْ أَشَرْنَا إِلَـىٰ أَنَّ الْـآيَـاتِ الَّتِي عَثُرْنَا عَلَيْهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ لَفْظِ (التَّأْبِيدِ) مَعَ (الْخُلُودِ) فِي النَّارِ ثَلَاثٌ فَقَطْ ، أَثْبَتْنَا أَرْقَامَهَا فِي حِينِهَا ، وَلَـمْ نَعْثُرْ عَلَىٰ الْـمَوْضِعِ الرَّابِعِ الْـمُرَادِ ، فَمَعْذِرَةً إِلَـىٰ الْقَارِئِ ، فَرُبَّـمَا لَـمْ تَرِدْ هَـٰذِهِ الْـمَرَّةُ الرَّابِعَةُ صَرَاحَةً . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) الْكَلِمَةُ الْـمُفْرَدَةُ – أَوِ الْـجُمْلَةُ – مِنْ حَيْثُ وَضْعُهَا اللُّغَوِيُّ .. قَدْ تُسْتَعْمَلُ وَلَـا تَـحْتَمِلُ إِلَّـا وَجْهًا وَاحِدًا فِي الدَّلَـالَةِ عَلَىٰ مَعْنَاهُ الْـمُرَادِ مِنْهَا ؛ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ اللَّفْظُ وَيُـمْكِنُ أَنْ نَتَصَوَّرَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ مَعْنًىٰ ، بِحَيْثُ يَكُونُ أَحَدُ هَـٰذِهِ الْـمَعَانِي قَرِيبًا إِلَـىٰ الذِّهْنِ ، يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ أَوَّلَ مَا يَقْرَعُ اللَّفْظُ السَّمْعَ وَيُفَاجِئُهُ ؛ وَبَاقِي الْـمَعَانِي الَّتِي يَـحْتَمِلُهَا اللَّفْظُ بَعِيدٌ ، يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ الذِّهْنُ بِصَارِفٍ أَوْ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ .

وَالْقِسْمُ الْـأَوَّلُ مِنَ الدَّلَـالَـاتِ : أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّـهُ لَـا يَـجُوزُ تَأْوِيلُهُ ، إِذْ هُوَ – فِي ذَاتِهِ – لَـا يَـحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ .

أَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي : فَإِذَا لَـمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ ، أَوْ صَارِفٌ ، أَوْ قَرِينَةٌ تَـمْنَعُهُ مِنْ إِرَادَةِ الْـمَعْنَىٰ الْقَرِيبِ .. وَجَبَ – عِنْدَ جُـمْهُورِ الْعُلَمَاءِ – حَـمْلُ اللَّفْظِ عَلَىٰ مَعْنَاهُ الْقَرِيبِ .

أَمَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ ، أَوْ صَارِفٌ ، أَوْ قَرِينَةٌ تَـمْنَعُ مِنْ إِرَادَةِ الْـمَعْنَىٰ الْقَرِيبِ لِلذِّهْنِ ، وَتَصْرِفُ الذِّهْنَ إِلَـىٰ الْـمَعْنَىٰ الْبَعِيدِ .. **فَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ إِلَىٰ فَرِيقَيْنِ :**

١– أَمَّا جُـمْهُورُهُمْ : فَقَدْ رَأَوُا الِـانْصِرَافَ بِالذِّهْنِ إِلَـىٰ الْـمَعْنَىٰ الْبَعِيدِ ؛ وَهَـٰذَا نَوْعٌ مِنْ أَنْـوَاعِ التَّأْوِيلِ .

٢– وَأَمَّا (ابْنُ تَيْمِيَّةَ) وَ(ابْنُ الْقَيِّمِ) وَمَنْ نَـهَجَ نَهْجَهُمَـا مِنَ السَّابِقِينَ عَلَيْهِمَـا ، أَوِ الْـمُعَاصِرِينَ لَـهُمَـا ، أَوِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ رَأَوُا السَّيْرَ عَـلَىٰ مَنْهَجِهِمَـا .. فَقَدْ رَأَوْا أَنَّـهُ لَـا بُـدَّ مِنْ حَـمْـلِ اللَّفْظِ عَلَىٰ =

وَلِذٰلِكَ أَجْـمَعَ الْـمُسْلِمُونَ عَلَىٰ اعْتِقَادِ ذٰلِكَ ، وَتَلَقَّوْهُ خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ عَنْ نَبِيِّهِمْ ﷺ ، وَهُوَ مَرْكُوزٌ فِي فِطْرَةِ الْـمُسْلِمِينَ ، مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، بَلْ وَسَائِرُ الْـمِلَلِ غَيْرِ الْـمُسْلِمِينَ يَعْتَقِدُونَ ذٰلِكَ ، وَمَنْ رَدَّ ذٰلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ ، وَمَنْ تَأَوَّلَهُ فَهُوَ كَمَنْ تَأَوَّلَ الْـآيَاتِ الْوَارِدَةَ فِي الْبَعْثِ الْـجِسْمَانِيِّ ، وَهُوَ كَافِرٌ أَيْضًا بِـمُقْتَضَىٰ الْعِلْمِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَـا أُطْلِقُ لِسَانِي بِذٰلِكَ .

وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَىٰ التَّصْنِيفِ الْـمَذْكُورَ ، وَذٰلِكَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي فَنَاءِ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ :

أَحَدُهَا : أَنـَّهُمَـا تَفْنَيَانِ . وَقَالَ : إِنَّـهُ لَـمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ .

وَالثَّانِي : أَنـَّهُمَـا لَـا تَفْنَيَانِ .

وَالثَّالِثُ : أَنَّ الْـجَنَّةَ تَبْقَىٰ ، وَالنَّارَ تَفْنَىٰ . وَمَالَ إِلَىٰ هٰذَا وَاخْتَارَهُ وَقَالَ : إِنَّـهُ قَوْلُ السَّلَفِ ! (١) .

= مَعْنَاهُ الْقَرِيبِ ، مَهْمَا كَانَتِ الصَّوَارِفُ ، أَوِ الْـمَوَانِعُ ، أَوِ الْقَرَائِنُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ خِلَافِ ذٰلِكَ .
تِلْكَ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ رَأَيْنَا إِثْبَاتَهَا هُنَا ، لَعَلَّهَا تَنْفَعُ الْقَارِئَ فِي بَحْثِنَا هٰذَا .
وَالشَّيْءُ الْعَجِيبُ .. أَنَّ النُّصُوصَ الَّتِي مَعَنَا قَطْعِيَّةُ الدَّلَالَةِ ، لَـا تَـحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَبِرُغْمِ ذٰلِكَ .. فَقَدْ أَوَّلَـهَا ابْنُ الْقَيِّمِ ! عَلَىٰ نَـحْوِ مَا سَتَرَىٰ . (**الْـمُحَقِّقُ**) .

(١) هٰذَا اخْتِصَارٌ لِكَلَامٍ طَوِيلٍ ، لَـٰكِنَّهُ اخْتِصَارٌ غَيْرُ مُـخِلٍّ .
وَالتَّصْنِيفُ الْـمَذْكُورُ الْـمُشَارُ إِلَيْهِ ، وَالَّذِي يَنْقُلُ الْـمُصَنِّفُ مِنْهُ هُوَ (حَادِي الْـأَرْوَاحِ إِلَـىٰ بِلَادِ الْـأَفْرَاحِ) لِـابْنِ الْقَيِّمِ ؛ وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا الْكَلَامَ فِي فَصْلَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ الْـ(حَادِي) ، فِيهِمَـا سُوءُ تَنْظِيمٍ وَتَرْتِيبٍ وَاسْتِطْرَادٌ يُـخْرِجُ - غَالِبًا - مِنَ الْـمَقْصُودِ .
لَـخَّصْنَا فِي الْفَصْلِ الْـأَوَّلِ الْـأَقْوَالَ فِي الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ **وَقُلْنَا** : إِنـَّهَا ثَلَاثَةٌ كَمَـا ذَكَرَ الْـمُصَنِّفُ .
وَذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنَّ الْقَوْلَ بِفَنَاءِ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ لَـمْ يَقُلْ بِهِ إِلَّـا الْـجَهْمُ وَالْـجَهْمِيَّةُ ، وَهُوَ كَمَـا قَالَ . =

وَمَعَاذَ اللَّهِ ! وَأَنَا أُبَرِّئُ السَّلَفَ عَنْ ذَٰلِكَ ، وَلَـا أَعْتَقِدُ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ قَالَهُ ، وَإِنَّمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ كَلِمَاتٌ تُتَأَوَّلُ كَمَا تُتَأَوَّلُ الْـمُشْكِلَاتُ الَّتِي تَرِدُ وَتُحْمَلُ عَلَىٰ غَيْرِ ظَاهِرِهَا ؛ فَكَمَا أَنَّ الْـآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ يَقَعُ فِيهَا مَا يَجِبُ تَأْوِيلُهُ ..كَذَٰلِكَ كَلَامُ الْعُلَمَاءِ يَقَعُ فِيهِ مَا يَجِبُ تَأْوِيلُهُ [1] ؛ وَمَنْ جَاءَ إِلَىٰ كَلِمَاتٍ تَرِدُ عَنِ السَّلَفِ فِي تَرْغِيبٍ ، أَوْ تَرْهِيبٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَٰلِكَ .. فَأَخَذَ

= وَلَـمْ يَنْسُبِ الرَّأْيَ الثَّانِيَ – الْقَائِلَ بِدَوَامِ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ – لِأَحَدٍ مَعْرُوفٍ بِعَيْنِهِ ، أَوْ فِرْقَةٍ بِذَاتِهَا ، وَإِنَّمَا قَالَ بِأَنَّ هَٰذَا مَحْكِيٌّ عَلَىٰ خِلَافٍ – خَاصَّةً فِي النَّارِ – بَيْنَ السَّلَفِ وَالْـخَلَفِ .. إِلَىٰ رَأْيَيْنِ ، وَنَسَبَ الرَّأْيَ الْقَائِلَ بِبَقَاءِ النَّارِ إِلَىٰ الْـمُعْتَزِلَةِ وَالْـخَوَارِجِ ! سَامَحَهُ اللَّهُ !! .

وَذَكَرَ فِي فَصْلٍ تَالٍ أَنَّ النَّارَ وَحْدَهَا فِيهَا سَبْعَةُ آرَاءٍ :

الْأَوَّلُ : أَنَّ مَنْ دَخَلَهَا لَـا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ يَبْقُونَ فِيهَا مُدَّةً مُعَذَّبِينَ ، ثُمَّ تَنْقَلِبُ طَبِيعَتُهُمْ نَارِيَّةً ، فَلَا يُعَذَّبُونَ بِبَقَائِهِمْ فِي النَّارِ .

وَالثَّالِثُ : قَوْلٌ يَقُولُ : إِنَّ النَّارَ بَاقِيَةٌ ، وَيَتَعَاقَبُ عَلَيْهَا طَوَائِفُ بِغَيْرِ نِهَايَةٍ .

الرَّابِعُ : قَولُ مَنْ يَقُولُ : يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَتَبْقَىٰ نَارًا عَلَىٰ حَالِهَا ، لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ يُعَذَّبُ .

الْـخَامِسُ : النَّارُ تَفْنَىٰ وَلَـا بَقَاءَ لَـهَا .

السَّادِسُ : تَفْنَىٰ حَيَاتُهُمْ وَحَرَكَاتُهُمْ ، وَيَصِيرُونَ جَمَادًا لَـا يَتَحَرَّكُونَ ، وَلَـا يُحِسُّونَ بِأَلَمٍ . وَالْـجَنَّةُ وَالنَّارُ هُنَا سَوَاءٌ .

السَّابِعُ : مَنْ يَقُولُ : بَلْ يُفْنِيهَا رَبُّهَا وَخَالِقُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، فَإِنَّهُ جَعَلَ لَـهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ تَفْنَىٰ وَيَزُولُ عَذَابُهَا .

وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ الْقَيِّمِ الرَّأْيَ الْـأَخِيرَ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا ذَكَرَ الْـمُصَنِّفُ الْـ(حَادِي : ٣٤٠) إِلَىٰ (٣٤٦) ، طَبْعَةُ مَكْتَبَةِ الْـمَدَنِيِّ وَمَطْبَعَتِهَا – جُدَّةُ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) أَشَرْنَا قَرِيبًا إِلَىٰ التَّأْوِيلِ الْـمُرَادِ ، وَالَّذِي جَرَىٰ عَلَيْهِ الْـخِلَافُ ، وَهُوَ صَرْفُ الذِّهْنِ عَنِ الْـمَعْنَىٰ الْقَرِيبِ إِلَىٰ الْـمَعْنَىٰ الْبَعِيدِ ، لِقَرِينَةٍ تَحْمِلُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ . (الْـمُحَقِّقُ) .

بِظَاهِرِهَا ، وَأَثْـبَتَهَا أَقْوَالًا .. ضَلَّ وَأَضَلَّ ، وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِنْ دَأْبِ الْعُلَمَاءِ ، وَدَأْبُ الْعُلَمَاءِ التَّنْقِيرُ (١) عَنْ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ وَالْمُرَادِ بِهِ ، وَمَا انْتَهَىٰ إِلَيْنَا عَنْ قَائِلِهِ ، فَإِذَا تَحَقَّقْنَا أَنَّ ذٰلِكَ مَذْهَبُهُ وَاعْتِقَادُهُ .. نَسَبْنَاهُ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا بِدُونِ ذٰلِكَ .. فَلَا ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَٰذِهِ الْعَقَائِدِ الَّتِي الْمُسْلِمُونَ مُطْبِقُونَ فِيهَا عَلَىٰ شَيْءٍ كَيْفَ يَعْمُدُ إِلَىٰ خِلَافِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ؟! يَنْسُبُهُ إِلَىٰ جِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقُدْوَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَجْعَلُهَا مَسْأَلَةَ خِلَافٍ ، كَمَسْأَلَةٍ فِي بَابِ الْوُضُوءِ؟! (٢) .

---

(١) **التَّنْقِيرُ** : يَحْمِلُ مَعْنَىٰ الْمُثَابَرَةِ ، وَالِاسْتِبْطَانِ ، وَالسُّرْعَةِ ، وَالْعَجَلَةِ ؛ كَمَا يَحْمِلُ مَعْنَىٰ الدِّقَّةِ . **وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا** : سَبْرُ غَوْرِ الشَّيْءِ ، وَالْوُقُوفُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ، وَتَحْدِيدُ الْمَوْقِفِ الصَّحِيحِ مِنْهُ ، وَقَدِ اسْتَفَدْنَا هَٰذَا الْمَعْنَىٰ مِنْ كِتَابِ (لِسَانُ الْعَرَبِ) لِابْنِ مَنْظُورٍ ، مُتَفَرِّقًا فِي ثَنَايَا شَرْحِهِ لِهَٰذِهِ الْمَادَّةِ : (نَقَّرَ) . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) يَجِبُ أَنْ نَلْفِتَ نَظَرَ الْقَارِئِ هُنَا إِلَىٰ أَنَّ الشَّرْعَ فِيهِ أُمُورٌ قَطْعِيَّةٌ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ أَوِ الْخِلَافَ حَوْلَهَا ، وَأُمُورٌ أُخْرَىٰ يُمْكِنُ أَنْ يَتَأَتَّىٰ فِيهَا الْخِلَافُ ، وَصَدْرُ الشَّرِيعَةِ يَحْتَمِلُهَا جَمِيعًا ، وَاللَّٰهُ يُرِيدُ لِلشَّرِيعَةِ أَنْ تَحْتَمِلَ الْخِلَافَ حَوْلَ أَمْثَالِهَا ؛ وَمِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ خِلَافًا .. الْأُصُولُ الَّتِي يَرِدُ فِيهَا نَصٌّ قَطْعِيٌّ ، كَالْعَقَائِدِ وَأُصُولِ التَّشْرِيعِ . أَمَّا فُرُوعُ التَّشْرِيعِ .. فَالْخِلَافُ يَتَأَتَّىٰ فِيهَا ، وَيَشَاءُ اللَّٰهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَكُونَ النَّصُّ فِي مِثْلِ هَٰذِهِ الْأُمُورِ .. حَمَّالَ وُجُوهٍ ؛ **وَنَضْرِبُ مِثَالَيْنِ لِتَوْضِيحِ الْمَقَامِ** :

الْمِثَالُ الْأَوَّلُ : إِذَا قَالَ اللَّٰهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب : ٦٤ - ٦٥] ، مِثْلُ هَٰذَا النَّصِّ يَتَّصِلُ بِأَمْرٍ عَقَائِدِيٍّ ، وَصِيَاغَةُ النَّصِّ لَا تَحْتَمِلُ رَدًّا وَلَا تَأْوِيلًا ، فَلَا يَجُوزُ الْخِلَافُ فِيهِ وَلَا حَوْلَهُ .

الْمِثَالُ الثَّانِي : إِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - كَمَا قَالَ يَوْمَ أَنِ انْتَهَىٰ مِنْ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ - : « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ » ؛ مِثْلُ هَٰذَا النَّصِّ يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ إِرَادَةُ الشَّارِعِ أَنْ يُسْرِعَ الْجُنُودُ وَلَا يُبْطِئُوا ؛ وَإِنْ أَدْرَكَتْهُمُ الصَّلَاةُ وَأَوْشَكَ خُرُوجُ وَقْتِهَا .. صَلَّوْهَا وَجَدُّوا فِي السَّيْرِ =

مَا أَبْعَدَ مَنْ صَنَعَ هَٰذَا عَنِ الْعِلْمِ وَالْهُدَىٰ ! وَهَٰذِهِ بِدْعَةٌ مِنْ أَنْحَسِ الْبِدَعِ وَأَقْبَحِهَا ، أَضَلَّ اللَّٰهُ مَنْ قَالَهَا عَلَىٰ عِلْمٍ [(١)] .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَالَ اللَّٰهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] ! .

قُلْتُ : هُوَ جَمْعٌ مُنَكَّرٌ ، يَصْدُقُ عَلَىٰ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ ، وَعَلَىٰ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : هُوَ جَمْعُ قِلَّةٍ [(٢)] ، لِأَنَّ (**أَفْعَالًا**) مِنْ جُمُوعِ الْقِلَّةِ ! .

= بَعْدَ ذَٰلِكَ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِنَ النَّصِّ إِرَادَةُ الشَّارِعِ أَنَّ الْعَصْرَ وَقْتُهُ مُؤَجَّلٌ إِلَىٰ أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ ، حَتَّىٰ وَلَوْ خَرَجَ وَقْتُ الصَّلَاةِ الْمَعْرُوفُ لَهُمْ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ .

النَّصُّ يَحْتَمِلُ الْفَهْمَيْنِ ، وَقَدْ فَهِمَ بَعْضُ الْجُنُودِ النَّصَّ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ ، وَقَدْ فَهِمَهُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ الْوَجْهِ الثَّانِي ، وَأَجَازَ النَّبِيُّ الْفَهْمَيْنِ بَعْدَ ذَٰلِكَ . فَهَلْ هَٰذِهِ الْمَسْأَلَةُ تُشْبِهُ الْمَسْأَلَةَ الْأُولَىٰ فِي النَّصِّ عَلَيْهَا وَفِي وَضْعِهَا مِنَ الدِّينِ وَمَكَانَتِهَا مِنْهُ ؟ . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) **النَّاسُ فِي الضَّلَالِ فَرِيقَانِ :**

١- بَعْضُهُمْ يَضِلُّ وَهُوَ جَاهِلٌ ، وَقَدْ يُعْذَرُ .

٢- وَ بَعْضُهُمْ يَضِلُّ وَهُوَ عَالِمٌ .

وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ هُنَا مُتَضَمَّنًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية : ٢٣] . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) يُشِيرُ الْمُصَنِّفُ إِلَىٰ مَا تَحَدَّثَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ حَوْلَهُ مِنْ جَمْعِ التَّكْسِيرِ ، فَقَدْ قَسَّمُوهُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ :

١- **جَمْعُ قِلَّةٍ** . وَلَهُ صِيَغٌ يَأْتِي عَلَيْهَا ٢- **وَجَمْعُ كَثْرَةٍ** . وَهُوَ الْجَمْعُ الَّذِي يَأْتِي عَلَىٰ صِيغَةٍ لَيْسَتْ مِنْ صِيَغِ جُمُوعِ الْقِلَّةِ ، وَقَدْ جَمَعَ ابْنُ مَالِكٍ فِي (**أَلْفِيَّتِهِ**) الصِّيَغَ الَّتِي يَأْتِي عَلَيْهَا جَمْعُ الْقِلَّةِ فِي هَٰذَا الْبَيْتِ :

٧٩١- أَفْعِلَةٌ أَفْعُلُ ثُمَّ فِعْلَهْ ثُمَّتَ أَفْعَالُ : جُمُوعُ قِلَّهْ =

قُلْتُ : قَدْ تُـجْمَعُ الْقِلَّةُ بِـجَمْعِ الْكَثْرَةِ ، وَأَيْضًا .. فَـ (الْـحُقُبُ) : الزَّمَانُ ، وَالزَّمَانُ يَصْدُقُ عَلَىٰ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ ؛ فَإِذَا كَانَ الْـمُفْرَدُ كَذٰلِكَ .. فَمَا ظَنُّكَ بِالْـجَمْعِ ؟! .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قِيلَ : إِنَّ (الْـحُقُبَ) ثَـمَانُونَ سَنَةً ، السَّنَةُ ثَلَاثُـمِائَةٍ وَسِتُّونَ يَوْمًا ، الْيَوْمُ ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحج: ٤٧] ، الْيَوْمُ مِنْهَا كَالدُّنْيَا كُلِّهَا (١) .

قُلْتُ : هُوَ إِذَا صَحَّ ذٰلِكَ .. فَغَايَتُهُ الْإِخْبَارُ بِأَنَّـهُمْ لَـابِثُونَ فِيهَا ذٰلِكَ ، وَلَـا يَـدُلُّ عَلَىٰ نَفْيِ الزِّيَادَةِ إِلَّـا بِالْـمَفْهُومِ ، وَالْـمَنْطُوقُ يَـدُلُّ عَلَىٰ (التَّأْبِيدِ) ،

= وَقَدْ أَجَازَ النُّحَاةُ أَنْ يَأْتِيَ جَمْعُ الْكَثْرَةِ – أَحْيَانًا – عَلَىٰ صِيغَةٍ مِنْ صِيَغِ جُمُوعِ الْقِلَّةِ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْـمُصَنِّفُ هُنَا . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) كَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ مُنْسُوبًا إِلَىٰ هِلَالٍ الْـهَجَرِيِّ ، حِينَ سَأَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنِ (الْـحُقُبِ) ؛ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ :

« قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : عَنِ ابْنِ حُمَيْدٍ عَنْ مَهْرَانَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ عَمَّارٍ الدُّهَنِيِّ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْـجَعْدِ قَالَ : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِـهِلَالٍ الْـهَجَرِيِّ : مَا تَـجِدُونَ (الْـحُقُبَ) فِي كِتَابِ اللَّـٰهِ الْـمُنَزَّلِ ؟ قَالَ : نَجِدُهُ ثَمَانِينَ سَنَةً ، كُلُّ سَنَةٍ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، كُلُّ شَهْرٍ ثَلَاثُونَ يَوْمًا ، كُلُّ يَوْمٍ أَلْفُ سَنَةٍ .

وَهٰكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّـٰهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَعَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ ، وَالْـحَسَنِ ، وَقَتَادَةَ ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ ، وَالضَّحَّاكِ» اهـ . [ابْنُ كَثِيرٍ : جـ ٤ / صـ ٤٦٣] وَالْـمُصَنِّفُ قَدْ شَكَّكَ فِي صِحَّةِ هٰذِهِ الرِّوَايَةِ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّـهُ – عَلَىٰ فَرْضِ صِحَّتِهَا – لَـا تَـدُلُّ عَلَىٰ نَفْيِ الزِّيَادَةِ عَنْ هٰذِهِ الْـمُدَّةِ إِلَّـا بِطُرُقٍ مِنَ التَّحَكُّمِ لَـا تُسْتَسَاغُ . (الْـمُحَقِّقُ) .

وَالْـمَنْطُوقُ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ الْـمَفْهُومِ [١] ؛ هَـٰذَا إِنْ جَعَلْنَا (أَحْقَابًا) آخِرَ الْكَلَامِ .

---

(١) لِكَيْ يَتَّضِحَ لَنَا (الْـمَفْهُومُ) وَ(الْـمَنْطُوقُ) .. يَنْبَغِي أَنْ نَتَصَوَّرَ صُورَةَ شَيْءٍ مَا عَلَىٰ هَـٰذَا النَّحْوِ : إِنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَضَعَ اللَّفْظَ أَوِ الِاسْمَ لِشَيْءٍ مُعَيَّنٍ فَيَرْتَبِطُ بِهِ ، فَإِذَا نَطَقْنَا الِاسْمَ .. تَصَوَّرَ الذِّهْنُ صُورَةً مُعَيَّنَةً لِلشَّيْءِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الِاسْمُ تُوَافِقُ تَمَامًا صُورَةَ الشَّيْءِ الْـمَوْجُودِ فِي الْـخَارِجِ ، أَيْ : فِي خَارِجِ الذِّهْنِ .

فَيَتَحَصَّلُ مَعَنَا ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ :

١- **اللَّفْظُ** الْـمُكَوَّنُ مِنْ حُرُوفٍ وَمَقَاطِعَ .

٢- وَ**الصُّورَةُ** الَّتِي تَحْدُثُ فِي الذِّهْنِ عِنْدَ سَمَاعِ اللَّفْظِ أَوْ تَذَكُّرِهِ .

٣- وَ**الشَّيْءُ** الْـمَوْجُودُ فِي الْـخَارِجِ .

١- فَـ (**اللَّفْظُ**) : هُوَ مَا نَنْطِقُهُ ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ اللُّغَةِ .

٢- وَ(**الصُّورَةُ**) : الَّتِي تَحْدُثُ فِي الذِّهْنِ عِنْدَ سَمَاعِ اللَّفْظِ أَوْ تَذَكُّرِهِ .. يُسَمِّيهَا الْعُلَمَاءُ اصْطِلَاحًا (مَفْهُومًا) ، وَيَقْرُبُ مِنْهَا (الْـمَعْنَىٰ) ، فَـ(الْـمَعْنَىٰ) وَ(**الْـمَفْهُومُ**) مُتَقَارِبَانِ بِالذَّاتِ .

٣- وَ(**الْـمَوْجُودُ فِي الْـخَارِجِ**) : الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ يُسَمَّىٰ (**مَا صَدَقَ**) ، أَيِ : الشَّيْءُ الْـمَحْسُوسُ خَارِجَ الذِّهْنِ الَّذِي يَصْدُقُ اللَّفْظُ عَلَيْهِ .

وَنَحْنُ لَا نَحْتَاجُ هُنَا إِلَىٰ الْـحَدِيثِ عَنِ الْـ (**مَا صَدَقَاتِ**) ، وَإِنَّمَا نَحْتَاجُ إِلَىٰ الْـحَدِيثِ عَنِ (الْـمَنْطُوقِ) ، أَيِ : الْأَلْفَاظُ الَّتِي نَتَحَدَّثُ بِهَا ، وَ(الْـمَفْهُومِ) ، أَيِ : الصُّوَرُ الْـحَادِثَةُ فِي الذِّهْنِ .

وَقَدْ يَكُونُ (الْـمَنْطُوقُ) جُمْلَةً تَشْتَمِلُ عَلَىٰ حُكْمٍ مُعَيَّنٍ ، فَإِذَا كَانَ (الْـمَنْطُوقُ) جُمْلَةً تَشْتَمِلُ عَلَىٰ حُكْمٍ مِنْ خِلَالِ لَفْظِهَا .. كَانَ هَـٰذَا الْـحُكْمُ مَدْلُولًا عَلَيْهِ بِـ(الْـمَنْطُوقِ) ، وَيَكُونُ تَعْرِيفُ (الْـمَنْطُوقِ) **هُوَ : مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ فِي مَحَلِّ النُّطْقِ** .

وَ(الْـمَفْهُومُ) **هُوَ : مَا يَدُلُّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ لَا فِي مَحَلِّ النُّطْقِ** ، وَإِنَّمَا فِيمَا يَتَصَوَّرُهُ الذِّهْنُ حِينَ يَسْمَعُ اللَّفْظَ أَوِ الْقَضِيَّةَ .

وَالذِّهْنُ قَدْ يَتَصَوَّرُ حُكْمًا حِينَ يَسْمَعُ اللَّفْظَ أَوِ الْقَضِيَّةَ ، مُخَالِفًا لِـمَنْطُوقِ اللَّفْظِ أَوْ مَنْطُوقِ الْقَضِيَّةِ ، وَيُسَمَّىٰ (**مَفْهُومَ الْـمُخَالَفَةِ**) ، وَقَدْ يَتَصَوَّرُ حُكْمًا مُوَافِقًا لِـمَنْطُوقِ اللَّفْظِ أَوِ الْقَضِيَّةِ ، =

وَقَدْ جَعَلَهُ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ مَوْصُوفًا بِقَوْلِهِ : ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ [النبأ: ٢٤] ؛ وَعَلَىٰ هَـٰذَا .. لَـا يَبْقَـىٰ فِيهِ مُتَعَلَّقٌ أَلْبَتَّةَ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ رُوِيَ عَنِ الْـحَسَنِ : (الْـأَحْقَابُ) لَـا يَدْرِي أَحَدٌ مَا هِيَ ! .

وَلَـٰكِنَّ (الْـحُقُـبَ) سَبْعُونَ أَلْفِ سَنَةٍ ، الْيَوْمُ مِنْـهَا ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا

= وَيُسَمَّىٰ (**مَفْهُومَ الْـمُوَافَقَةِ**) .

وَهَـٰذَا فِي مُصْطَلَحِ عُلَمَاءِ أُصُولِ الْفِقْهِ ؛ **وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ عِنْدَهُمْ** : إِنَّ الْـحُكْمَ إِنْ أُخِذَ مِنْ مَـحَلِّ النُّطْقِ .. كَانَ هَـٰذَا الْـحُكْمُ مَدْلُولًـا عَلَيْهِ بِـ (**الْـمَنْطُوقِ**) ؛ وَإِنْ أُخِذَ مِنْ مَفْهُومِ النُّطْقِ .. كَانَ الْـحُكْمُ مَدْلُولًـا عَلَيْهِ بِـ (**الْـمَفْهُومِ**) ؛ **وَهُوَ قِسْمَانِ** : ١- مَفْهُومُ الْـمُوَافَقَةِ ٢- وَمَفْهُومُ الْـمُخَالَفَةِ .

وَالْقَاعِدَةُ : أَنَّـهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ حُكْمَـانِ فِي قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مُتَعَارِضَانِ ، **أَحَدُهُمَا** مَأْخُوذٌ مِنْ مَـحَلِّ النُّطْقِ - أَيْ : مَدْلُولٌ عَلَيْهِ **بِالْـمَنْطُوقِ** - **وَالْـآخَرُ** مَأْخُوذٌ مِنَ (**الْـمَفْهُومِ**) أَيْ : مَدْلُولٌ عَلَيْهِ بِـ(**مَفْهُومِ الْـمُخَالَفَةِ**) .. قُدِّمَ الْـحُكْمُ الْـمَأْخُوذُ مِـنْ **مَحَلِّ النُّطْقِ** عَلَىٰ الْـحُكْمِ الْـمَأْخُوذِ مِنَ **الْـمَفْهُومِ** ، إِذْ لَـا يَقْوَىٰ الْـمَفْهُومُ عَلَىٰ مَعَارَضَةِ الْـمَنْطُوقِ .

وَإِذَا حَاوَلْنَا أَنْ نَقْتَرِبَ مِنَ النَّصِّ الْقُرْءَانِيِّ الَّذِي مَعَنَا ، وَهُوَ قَـوْلُهُ تَعَالَـىٰ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ : ٢٣] .. لَوَجَدْنَا أَنَّ الْقَضِيَّةَ بِأَلْفَاظِهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ سَيَسْتَمِرُّونَ فِيهَا بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ ، خُصُوصًا وَأَنَّ (**الْـحُقُبَ**) - وَهُوَ مُفْرَدُ الْـأَحْقَابِ - يَدُلُّ عَلَىٰ الزَّمَنِ ، مَلْحُوظًا مَعَهُ التَّتَابُعُ ، كَمَـا وَضَّحْنَاهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْبَحْثِ ؛ وَهَـٰذَا حُكْمٌ مَأْخُوذٌ مِنَ اللَّفْظِ نَفْسِهِ ، فَيَكُونُ حُكْمًـا مَأْخُوذًا مِنَ (**الْـمَنْطُوقِ**) ، لِوُجُودِهِ فِي مَـحَلِّ النُّطْقِ .

وَقَدْ يُفْهَمُ مِنْ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ - ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ : ٢٣] - أَنَّـهُمْ سَيَلْبَثُونَ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ فِي النَّارِ قَلِيلَةً ، ثُمَّ يَـخْرُجُونَ مِنْهَا ، لِـاسْتِعْمَـالِ جَـمْعِ الْقِلَّةِ ، وَلِـاخْتِيَارِ لَفْظِ (**الْـأَحْقَابِ**) ، وَهَـٰذَا حُكْمٌ دَلَّ عَلَيْهِ (**مَفْهُومُ الْـمُخَالَفَةِ**) ؛ وَإِذَا طَبَّقْنَا الْقَاعِدَةَ عَلَىٰ الْـحُكْمَيْنِ الْـمُتَعَارِضَيْنِ .. أَخَذْنَا بِالْـحُكْمِ الْـأَوَّلِ الَّـذِي يَـدُلُّ عَلَىٰ الِـاسْتِمْرَارِ فِي النَّارِ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ ، لِدَلَـالَةِ (**الْـمَنْطُوقِ**) عَلَيْهِ ، وَرَفَضْنَا الْـحُكْمَ الثَّانِيَ ، لِـأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ (**الْـمَفْهُومِ**) . فَتَأَمَّلْ . (**الْـمُحَقِّقُ**) .

تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج : ٤٧] ! .

قُلْتُ : إِنْ ثَبَتَ ذَٰلِكَ عَنْهُ .. يَرْجِعِ الْجَوَابُ إِلَىٰ بَعْضِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الصِّفَةِ ، أَوْ إِلْغَاءِ الْمَفْهُومِ ، أَوْ أَنَّ الَّذِي لَا يَتَنَاهَىٰ يُقَالُ : « إِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدٌ مَا هُوَ » ؛ وَإِنْ كَانَ يَدْرِي أَنَّهُ لَا يَتَنَاهَىٰ .. فَإِنَّ دِرَايَةَ عَدَمِ الْعَدَدِ يَلْزَمُ مِنْهَا عَدَمُ دِرَايَةِ الْعَدَدِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَالَ هَٰذَا الْمُصَنِّفُ (١) : إِنَّ قَوْلَ الْحَسَنِ : « لَا يُدْرَىٰ مَا هِيَ » يَقْتَضِي أَنَّ لَهَا عَدَدًا ، وَاللَّٰهُ أَعْلَمُ بِهِ ، وَلَوْ كَانَتْ لَا عَدَدَ لَهَا .. لَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ لَا عَدَدَ لَهَا ! .

قُلْتُ : إِنَّ قَوْلَهُ : (« لَا يُدْرَىٰ مَا هِيَ » يَقْتَضِي أَنَّ لَهَا عَدَدًا) .. لَيْسَ بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ : « لَا يُدْرَىٰ عَدَدُهَا » ! ، بَلْ قَالَ : « لَا يُدْرَىٰ مَا هِيَ » . وَ« مَا هِيَ » أَعَمُّ الْمَطَالِبِ ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الْمُتَنَاهِي وَغَيْرُ الْمُتَنَاهِي .

وَقَوْلُهُ : « وَلَوْ كَانَتْ لَا عَدَدَ لَهَا .. لَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ لَا عَدَدَ لَهَا »

---

(١) يَعْنِي بِـ(الْمُصَنِّفُ) : ابْنَ الْقَيِّمِ ، فِيمَا ذَكَرَهُ فِي الْـ(حَادِي) عَنِ الْحَسَنِ ، وَمَا ذَكَرَهُ عَنِ الْحَسَنِ هُوَ أَنَّهُ : « لَا يَدْرِي عَنِ الْأَحْقَابِ مَا هِي » . وَقَدِ اسْتَنْتَجَ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنْ نَفْيِ الْمَاهِيَّةِ « لَا أَدْرِي مَا هِيَ » أَنَّهَا - أَيِ الْأَحْقَابُ - لَهَا عَدَدٌ مَحْدُودٌ .

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي قَوْلِ الْحَسَنِ .. لَا يُسَلِّمُ بِهَٰذَا اللَّازِمِ ، وَلَا يُسَلِّمُ لِابْنِ الْقَيِّمِ بِالنَّتِيجَةِ الَّتِي اسْتَنْتَجَهَا ، إِذْ لَمْ يَقُلِ الْحَسَنُ : (لَا أَدْرِي مَا عَدَدُهَا) ! ، وَلَوْ كَانَ قَالَ : (لَا أَدْرِي مَا عَدَدُهَا) .. لَاسْتَنْتَجْنَا أَنَّ لَهَا عَدَدًا لَٰكِنَّهُ لَا يَدْرِيهِ ؛ وَإِنَّمَا مَا ذَكَرَهُ هُوَ : « لَا أَدْرِي مَا هِيَ » ، فَالْتَقَىٰ ، أَيْ : نَفْيُ الْعِلْمِ ، وَالدِّرَايَةُ تُسَلَّطُ عَلَىٰ الْمَاهِيَّةِ ، وَهِيَ أَمْرٌ عَامٌّ ، يَشْمَلُ مَا لَهُ نِهَايَةٌ وَمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ السُّبْكِيُّ فِي رَدِّ قَوْلِ ابْنِ الْقَيِّمِ . (الْمُحَقِّقُ) .

عَجَبٌ (١) ! ، لِأَنَّهُ كَيْفَ يَلْزَمُ مِنْ أَنَّهَا لَا عَدَدَ لَهَا .. عِلْمُ كُلِّ أَحَدٍ بِذٰلِكَ ؟! فَقَدْ يَعْلَمُهُ بَعْضُ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ .

وَالْحَاصِلُ : أَنَّ (الْأَحْقَاب) :

١- قِيلَ : مَحْدُودَةٌ . وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ الْقَائِلِ بِأَنَّ ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ [النبأ : ٢٤] صِفَةٌ (٢) .

---

(١) يُشِيرُ السُّبْكِيُّ إِلَىٰ قَضِيَّةٍ أَثَارَهَا ابْنُ الْقَيِّمِ ، فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَغَالَطَةِ ، لَا نَدْرِي كَيْفَ تَسَرَّبَتْ إِلَىٰ ذِهْنِ ابْنِ الْقَيِّمِ ! .

وَخُلَاصَةُ هَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ هِيَ :

أَنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ عَدَدٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ .. فَإِنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَعْلَمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ لَا نِهَايَةَ لَهُ ، وَهَٰذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ ! إِذْ لَا تَلَازُمَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ لَا نِهَائِيَّ ، وَأَنْ يَعْلَمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ لَا نِهَائِيَّ ، إِذْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ لَا نِهَائِيًّا وَيَعْلَمُ الْبَعْضُ أَنَّهُ لَا نِهَائِيَّ ، وَيَجْهَلُ الْبَعْضُ الْآخَرُ هَٰذِهِ الْحَقِيقَةَ فِيهِ .

وَهَٰذِهِ قَضِيَّةٌ بَدَهِيَّةٌ لَا تَفُوتُ عَلَىٰ ذِهْنِ ابْنِ الْقَيِّمِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ طَرَحَهَا لِيَكُونَ لَهُ بِهَا مُوْقِفٌ تَفَاوُضِيٌّ مَعَ خُصُومِهِ ، وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ نُبَرِّئُ قَصْدَ ابْنِ الْقَيِّمِ مِنْهَا .

وَبَعْدَ هَٰذَا نَقُولُ : إِنَّ قَوْلَ الْحَقِّ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] يَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يَلْبَثُونَ فِيهَا مُدَّةً لَا تَتَنَاهَىٰ ، عَلِمَ ذٰلِكَ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ، وَلَا تَنَاقُضَ فِي ذٰلِكَ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِ الزَّجَّاجِ أَنَّهُ يَقُولُ بِفَنَاءِ النَّارِ ، إِذْ إِنَّ مَا ذَكَرَهُ يُفِيدُ غَيْرَ ذٰلِكَ .

وَبَيَانُهُ : أَنَّهُ قَدِ اعْتَبَرَ (الْأَحْقَابَ) دَالَّةً عَلَىٰ مُدَّةٍ مَحْدُودَةٍ ،وَلَٰكِنَّهُ وَصَفَهَا بِالْجُمْلَةِ بَعْدَهَا ، بِمَا يَرْفَعُ عَنْهَا هَٰذِهِ الْمَحْدُودِيَّةَ ، يَجْعَلُهَا تُفِيدُالتَّأْبِيدَ لَا الْحَصْرَ ، فَـ ﴿أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] جَمْعٌ مُنَكَّرٌ ، جَاءَتِ الْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ بَعْدَهُ ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ [النبأ : ٢٤ - ٢٥] فِي مَوْقِعِ الصِّفَةِ ، إِذِ الْجُمَلُ بَعْدَ النَّكِرَاتِ صِفَاتٌ ؛ وَهَٰذِهِ الصِّفَةُ قَدْ أَضَافَتْ إِلَىٰ الْمَوْصُوفِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ، وَهِيَ اسْتِمْرَارُ الْعَذَابِ أَحْقَابًا بَعْدَ أَحْقَابٍ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ =

٢- وَقِيلَ : غَيْرُ مَحْدُودٍ .

٣- وَقِيلَ : الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ : ٣٠] ، وَلَا يُسْتَبْعَدُ النَّسْخُ فِي الْأَخْبَارِ [١] ، وَلَا سِيَّمَا مِثْلَ هَٰذَا .

قَالَ : هَٰذَا مِمَّا يَقْبَلُ التَّغَيُّرَ ، وَهُوَ أَمْرٌ مُسْتَقْبَلٌ .

= هُنَاكَ فُرْصَةٌ لِلْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ .

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي قَوْلِ الزَّجَّاجِ يَجِدُ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِرَأْيِ الْجُمْهُورِ فِي النَّتِيجَةِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّ إِفَادَةَ التَّأْبِيدِ هُنَا لَيْسَ مِنْ حَقِيقَةِ مَعْنَىٰ (الْأَحْقَابِ) ، وَإِنَّمَا مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَيْهَا ، فَتَأَمَّلْ . (الْمُحَقِّقُ).

(١) هَٰذَا تَوَسُّعٌ مِنْ أَصْحَابِ هَٰذَا الرَّأْيِ لَا مُبَرِّرَ لَهُ ، إِذْ إِنَّ النَّسْخَ - عَلَىٰ رَأْيِ الْقَائِلِينَ بِالنَّسْخِ - لَا يَتَّصِلُ إِلَّا بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ ، وَلَا يَجُوزُ فِي غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ وَالْعَقَائِدِ بِجُمْلَتِهَا ؛ وَالْأَخْلَاقُ وَالْأَخْبَارُ .. كُلُّ هَٰذَا لَا نَسْخَ فِيهِ ؛ وَهَٰذَا رَأْيُ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ ، وَقَدْ خَالَفَهُمُ الْبَعْضُ ، وَخِلَافُهُمْ لَا اعْتِبَارَ بِهِ . هَٰذَا :

وَلَيْسَ كُلُّ خِلَافٍ جَاءَ مُعْتَبَرًا ... إِلَّا خِلَافٌ لَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظَرِ

وَمَا مَعَنَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] إِنِ اعْتَبَرْنَاهُ مِنْ قَبِيلِ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ .. فَلَا نَسْخَ فِيهِ ؛ وَإِنِ اعْتَبَرْنَاهُ مِنْ بَابِ الْعَقِيدَةِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِبَابِ السَّمْعِيَّاتِ .. فَلَا نَسْخَ فِيهِ كَذَٰلِكَ ؛ وَإِنِ اعْتَبَرْنَاهُ مِنْ بَابِ الْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ .. فَلَا يَجُوزُ النَّسْخُ فِيهِ عَلَىٰ رَأْيِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ وَعِيدَ اللَّهِ كَوَعْدِهِ لَا يَتَخَلَّفُ ، وَعَلَىٰ رَأْيِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْوَعِيدَ يَتَخَلَّفُ -كَرَمًا مِنَ اللَّهِ وَفَضْلًا- فَإِنَّهُ أَيْضًا لَا يَجُوزُ النَّسْخُ فِيهِ هُنَا ، إِذْ إِنَّ الْقَائِلِينَ بِجَوَازِ تَخَلُّفِ الْوَعِيدِ .. تَخَلُّفُهُ إِلَىٰ مَا هُوَ أَخَفُّ مِنْهُ ؛ وَالْقَائِلُونَ بِالنَّسْخِ هُنَا .. يَقُولُونَ إِنَّ الْبَدِيلَ عَنْ هَٰذِهِ الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ الْعَذَابُ الْمُؤَبَّدُ .

وَعَلَىٰ الْجُمْلَةِ : فَإِنَّ أَصْحَابَ هَٰذَا الرَّأْيِ مُتَسَاهِلُونَ جِدًّا فِي الْقَوْلِ بِالنَّسْخِ ، وَقَدْ نَسَبَهُ الصَّنْعَانِيُّ إِلَىٰ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ ، حَسْبَمَا أَوْرَدَهُ الْبَغَوِيُّ .

وَالصَّحِيحُ .. مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجُمْهُورُ : أَنْ لَا نَسْخَ . وَقَدْ ذَهَبَ السُّيُوطِيُّ إِلَىٰ رَأْيٍ حَكَاهُ مِنْ =

وَالْـأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّـهَا غَيْرُ مَـحْدُودَةٍ ، وَأَنَّ الْـمُرَادَ : (كُلَّمَا مَضَىٰ حُقُبٌ .. جَاءَ حُقُبٌ) [١] .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا تَقُولُ فِي مَا رُوِيَ عَنِ الْـحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَـٰذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْـأَحْقَابِ ، فَلَيْسَ فِيهَا عَدَدٌ إِلَّا الْـخُلُودَ »؟ .

قُلْتُ : قَوْلٌ صَحِيحٌ لَـا يُـخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ ، وَتَصْرِيحُهُ بِالْـخُلُودِ بَيَّنَ مُرَادَهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَقَدْ قَالَ هَـٰذَا الْـمُصَنِّفُ إِنَّ قَوْلَ الْـحَسَنِ حَقٌّ ، فَإِنَّـهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا ، لَـا يَـخْرُجُونَ مِنْهَا مَا دَامَتْ بَاقِيَةً ! .

قُلْتُ : قَوْلُهُ : « إِنَّ قَوْلَ الْـحَسَنِ حَقٌّ » صَحِيحٌ ، وَأَمَّا فَهْمُهُ إِيَّاهُ ، وَتَفْسِيرُهُ (الْـخُلُودَ) بِعَدَمِ الْـخُرُوجِ مِنْهَا مَا دَامَتْ بَاقِيَةً .. فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، وَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِـخُلُودٍ ؛ **فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ :** فُلَانٌ خَالِدٌ فِي هَـٰذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ .. لَـا يَصِحُّ ؛ وَحَقِيقَةُ **(الْـخُلُودِ)** : (التَّأْبِيدُ) ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي (الْـمُكْثِ الطَّوِيلِ) مَـجَازًا ؛ وَأَمَّا اسْتِعْمَالُهُ فِي مَكَانٍ إِلَىٰ حِينَ فَنَائِهِ .. فَـهَـٰذَا مَـعْـنًـىٰ ثَـالِثٌ ، لَـمْ يُسْمَعْ

= تَقْسِيمِ سُوَرِ الْقُرْءَانِ إِلَىٰ مَا فِيهِ : ١- نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ ٢- وَمَا فِيهِ نَاسِخٌ فَقَطْ ٣- وَمَا فِيهِ مَنْسُوخٌ فَقَطْ ٤- وَمَا خَلَا عَنِ النَّاسِخِ وَالْـمَنْسُوخِ . **وَقَالَ :** إِنَّ سُورَةَ النَّبَإِ - وَهِيَ الَّتِي احْتَوَتْ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] - مِنْ بَيْنِ السُّوَرِ الثَّلَاثِ وَالْـأَرْبَعِينَ الَّتِي خَلَتْ مِنَ النَّاسِخِ وَالْـمَنْسُوخِ . [رَاجِعِ السُّيُوطِيَّ .. الْـإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْءَانِ : جُـ ٢ / ٢٧، ٢٨] طَ مُصْطَفَىٰ الْـحَلَبِيِّ ، و[مَنَاهِلُ الْعِرْفَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْءَانِ لِلزَّرْقَانِيِّ : جُـ ٢ / ٢١١] وَمَابَعْدَهَا ، طَ عِيسَىٰ الْـحَلَبِيِّ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) سَبَقَ أَنْ أَشَرْنَا فِي الْـمُقَدِّمَةِ إِلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا ، وَلَـا يَكُونُ التَّـكْرَارُ إِلَّـا إِذَا كَانَ مُفْرَدُ (أَحْقَابٍ) هُوَ (حُقُبٌ) بِضَمَّتَيْنِ ، أَوْ ضَمَّةٍ وَسُكُونٍ ، وَالْـ(حُقُبُ) - بِـهَـٰذَا الْـمَعْنَىٰ - يَـحْمِلُ مَعْنَىٰ الزَّمَنِ مُضَافًا إِلَيْهِ مَعْنَىٰ التَّـكْرَارِ كَمَا وَضَّحْنَاهُ ؛ فَرَاجِعْهُ . (الْـمُحَقِّقُ) .

مِنَ الْعَرَبِ (١) .

فَإِنْ قُلْتَ : مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ : «إِنَّ الْآيَةَ فِي عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ» ؟ .

قُلْتُ : ضَعِيفٌ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ٢٨ ﴾ [النبأ : ٢٧ - ٢٨] ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ نَجْعَلَهَا عَامَّةً ، وَيَكُونُ التَّعْلِيلُ (٢) لَيْسَ لِلْجَمِيعِ ، بَلْ لِبَعْضِهِمْ ، وَقَدْ يَجِيءُ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ مِثْلُ

---

(١) رِوَايَةُ الْحَسَنِ الْمُتَنَازَعِ عَلَيْهَا هُنَا ، وَالْفَهْمُ الَّذِي فَهِمَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنْهَا ، وَالرَّدُّ الَّذِي أَجَابَ بِهِ السُّبْكِيُّ عَلَىٰ ابْنِ الْقَيِّمِ .. أَمْرٌ يَبْدُو شَائِكًا ، وَرُبَّمَا يُسَاعِدُنَا فِي فَهْمِ الْمَوْقِفِ أَنْ نَضَعَ الرِّوَايَةَ بَيْنَ يَدَيِ الْقَارِئِ بِتَمَامِهَا ، وَتَعْلِيقَ الْمُعَلِّقِينَ عَلَيْهَا ، حَتَّىٰ يَعْلَمَ الْقَارِئُ أَيْنَ هُوَ مِنْ هَـٰذَا النِّزَاعِ حَوْلَهَا ، وَلَقَدْ أَوْرَدَ الصَّنْعَانِيُّ فِي كِتَابِهِ (رَفْعِ الْأَسْتَارِ لِإِبْطَالِ أَدِلَّةِ الْقَائِلِينَ بِفَنَاءِ النَّارِ) رِوَايَةَ الْحَسَنِ مُخْتَصَرَةً ، وَذَكَرَهَا الْأَلْبَانِيُّ بِتَمَامِهَا فِي الْحَاشِيَةِ ، قَالَ : « ذَكَرَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ الْمُسَمَّىٰ (مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ) سُورَةُ النَّبَإِ ، رِوَايَةَ الْحَسَنِ مُعَلَّقَةً بِدُونِ إِسْنَادٍ ، بِأَتَمَّ مِمَّا ذَكَرَهُ الصَّنْعَانِيُّ ، فَقَالَ : (قَالَ الْحَسَنُ : إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِأَهْلِ النَّارِ مُدَّةً ، بَلْ قَالَ : ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنَّهُ إِذَا مَضَىٰ حُقْبٌ دَخَلَ آخَرُ ثُمَّ آخَرُ إِلَىٰ الْأَبَدِ ، فَلَيْسَ لِـ (الْأَحْقَابِ) مَعْنًىٰ إِلَّا الْخُلُودَ ». اهـ بِتَصَرُّفٍ مِنَ الْحَاشِيَةِ ، [ص ٨٩] .

وَأَنْتَ حِينَ تَتَأَمَّلُ هَـٰذِهِ الرِّوَايَةَ تَجِدُ :

أَوَّلًا : أَنَّهَا مُعَلَّقَةٌ بِغَيْرِ إِسْنَادٍ ، وَالتَّعْلِيقُ عِلَّةٌ فِي رَدِّ الْخَبَرِ .

ثَانِيًا : وَعَلَىٰ فَرْضِ صِحَّةِ هَـٰذِهِ الرِّوَايَةِ .. فَصَاحِبُهَا - أَيِ الْحَسَنُ - جَازِمٌ بِأَلْفَاظِهِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ التَّأْوِيلَ ، أَنَّ ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] لَا تُفِيدُ إِلَّا التَّأْبِيدَ ، فَمَا مِنْ حُقْبٍ يَنْقَضِي إِلَّا وَيَتْلُوهُ حُقْبٌ ؛ وَقَدْ أَغْرَبَ ابْنُ الْقَيِّمِ جِدًّا حِينَ قَالَ إِنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا مَا دَامَتْ بَاقِيَةً ! ، وَحَمَلَ كَلَامَ الْحَسَنِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ! ؛ وَكَفَانَا السُّبْكِيُّ الرَّدَّ عَلَيْهِ فِي الْأَصْلِ ، فَتَأَمَّلْهُ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) يُشِيرُ بِـ (التَّعْلِيلِ) إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧ ... ﴾ [النبأ : ٢٧] إِلَخ ، حَيْثُ جَعَلَهُ عِلَّةً وَسَبَبًا لِبَقَائِهِمْ فِي النَّارِ بِمُقْتَضَىٰ قَوْلِهِ : ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] .

ذَٰلِكَ ، أَوْ يُـرَادُ بِـ ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ [النبأ : ٢٢] الْكُفَّارُ ، فَإِنَّـهَا مِرْصَادٌ لَـهُمْ ، وَالْعُصَاةُ فِيهَا تَبَعٌ لَـهُمْ ، فَجَاءَ قَوْلُهُ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] لِلتَّابِعِينَ وَالْـمَتْبُوعِينَ جَمِيعًا ، ثُمَّ جَاءَ التَّعْلِيلُ لِلْـمَتْبُوعِينَ ، لِـأَنَّـهُمُ الْـأَصْلُ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَوْلُهُ تَعَالَـىٰ فِـي سُورَةِ الْـأَنْعَامِ : ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأنعام : ١٢٨] إِلَـى قَوْلِهِ : ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام : ١٢٨] ، وَأَوْلِيَاؤُهُمْ هُمُ الْكُفَّارُ ، لِقَوْلِهِ : ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام : ١٢١] ، وَقَوْلُهُ فِـي سُورَةِ هُودٍ فِـي أَهْلِ الْـجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود : ١٠٧][1] عَلَىٰ مَاذَا يُـحْمَلُ إِذَا كَانَتَا بَاقِيَتَيْنِ ؟ .

قُلْتُ : قَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِـي ذَٰلِكَ وَأَكْـثَرُوا ، وَذَكَرَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِـيُّ[2] فِـي تَصْنِيفٍ لَهُ فِـي ذَٰلِكَ سَبْعَةً وَعِشْرِينَ قَوْلًـا لَيْسَ فِيهَا أَنَّ الْكُفَّارَ يَـخْرُجُـونَ

---

(١) مَوْضُوعُ الْـآيَتَيْنِ – بِالنِّسْبَةِ لِلْمُصَنِّفِ – وَاحِدٌ ، وَهُوَ الِـاسْتِثْنَاءُ مِنَ الْـخُلُودِ فِـي النَّارِ بِـ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام : ١٢٨] ، أَوْ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود : ١٠٧] ، وَهُوَ – كَمَا تَرَىٰ – شُرُوعٌ مِنَ السُّبْكِيِّ فِـي عَرْضِ الدَّلِيلِ الثَّانِـي الَّذِي تَـمَسَّكَ بِهِ الْقَائِلُونَ بِفَنَاءِ النَّارِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ عَرْضِ دَلِيلِهِمُ الْـأَوَّلِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَـىٰ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] وَالرَّدِّ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ – فِـي كُلِّ ذَٰلِكَ – يَصْطَنِعُ طَرِيقَةَ : (إِنْ قُلْتَ .. قُلْتُ) قَاصِدًا إِلَـىٰ الِـاخْتِصَارِ وَالتَّرْكِيزِ ، وَتَشْوِيقِ الْقَارِئِ إِلَـى مُتَابَعَةِ الْفِكْرَةِ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) أَبُـو عَمْرٍو الدَّانِـيُّ : هُوَ الْـحَافِظُ الْإِمَامُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدِ ابْنِ عُمَرَ الْأُمَوِيُّ ، مَوْلَاهُمُ الْقُرْطُبِيُّ ، الْـمُقْرِئُ ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ ، وُلِـدَ سَنَـةَ =

مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّـمَـا أَقْوَالٌ أُخَرُ ، مِنْهَا :

١- إِنَّـهُ اسْتِثْنَاءُ الْـمُـدَّةِ الَّتِي قَبْلَ دُخُولِـهِمْ (١) .

٢- أَوِ الْـأَزْمِنَةِ الَّتِي يَكُونُ أَهْلُ النَّارِ فِيهَا فِي الزَّمْهَرِيرِ وَنَـحْوِهِ ، وَأَهْلُ الْـجَنَّةِ فِيمَـا هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهَا ، مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ ، وَمَا لَـا يَعْلَمُهُ إِلَّـا هُوَ (٢) .

= (٣٧١ هـ - ١٠٤٤م) ، وَابْتَدَأَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ ، وَدَخَلَ الْـمَشْرِقَ وَمِصْرَ ، وَحَجَّ وَرَجَعَ ، وَلَـمْ يَكُنْ فِي عَصْرِهِ وَلَـا بَعْدَهُ أَحَدٌ يُضَاهِيهِ فِي حِفْظِهِ وَتَـحْقِيقِهِ ، وَكَانَ أَحَدَ الْـأَئِمَّةِ فِي عِلْمِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَاتِهِ وَتَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ وَطُرُقِهِ وَإِعْرَابِهِ ، وَلَهُ مَعْرِفَةٌ بِالْـحَدِيثِ وَطُرُقِهِ وَرِجَالِهِ ، مِنْ أَهْلِ الذَّكَاءِ وَالْـحِفْظِ ، وَالْفَنِّ - أَيِ : الِـاسْتِقَامَةُ / قَالَهُ نَاصِرٌ - دَيِّنًا ، فَاضِلًا ، مُجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ تَصْنِيفًا ، وَمَاتَ فِي نِصْفِ شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِـائَةٍ بِـ(دَانِيَةَ) .

قَالَ يَاقُوتٌ الْـحَمَوِيُّ فِي [مُعْجَمِ الْبُلْدَانِ : ٢ / ٥٤٠] عَنْ (دَانِيَةَ) : « إِنـَّهَا مَدِينَةٌ بِالْـأَنْدَلُسِ مِنْ أَعْمَالِ بَلَنْسِيَّةَ ، عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، أَهْلُهَا أَقْرَأُ أَهْلِ الْـأَنْدَلُسِ ، لِـأَنَّ مُجَاهِدًا كَانَ يَسْتَجْلِبُ الْقُرَّاءَ ، وَيُنْفِقُ عَلَيْهِمُ الْـأَمْوَالَ ، فَكَانُوا يُقْعِدُونَهُ وَيُقِيمُونَ عِنْدَهُ ، فَكَثُرُوا فِي بِلَادِهِ » اهـ .

وَأَبُو عَمْرٍو لَهُ تَرَاجِمُ كَثِيرَةٌ احْتَوَتْـهَا كُتُبُ التَّرَاجِمِ ؛ انْظُرْ تَرْجَمَتَهُ فِي كِتَابِ [طَبَقَاتِ الْـحُفَّاظِ] لِلسُّيُوطِيِّ وَمَا أَحَالَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ التَّرَاجِمِ [صَ ٤٢٩] وَمَا بَعْدَهَا ؛ نَشْرُ مَكْتَبَةِ وَهْبَةَ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) يَقْصِدُ أَنَّ الْـمُدَّةَ السَّابِقَةَ عَلَىٰ دُخُولِـهِمُ النَّارَ هِيَ الْـمُسْتَثْنَاةُ بِقَوْلِهِ : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود : ١٠٧] ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام : ١٢٨] ؛ وَقَدِ اعْتَرَضَ عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذَا التَّخْرِيجِ بَعْضُ الْعُلَمَـاءِ ، وَهُوَ اعْتِرَاضٌ وَجِيهٌ ، وَقَدْ أَثَارَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْـ (حَادِي) وَلَـمْ يَنْسُبْهُ لِغَيْرِهِ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) تَـحَدَّثَ هُنَا عَنِ الِـاسْتِثْنَاءِ مِنْ خُلُودِ أَهْلِ الْـجَنَّةِ ، وَمِنْ خُلُودِ أَهْلِ النَّارِ ؛ فَخُرِّجَ الِـاسْتِثْنَاءُ مِنْ خُلُودِ أَهْلِ النَّارِ عَلَىٰ أَنَّ الْـمُرَادَ بِالِـاسْتِثْنَاءِ مِنْ مُدَّةِ الْـخُلُودِ .. هُوَ خُرُوجُهُمْ مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الزَّمْهَرِيرِ ؛ أَمَّا الِـاسْتِثْنَاءُ مِنْ خُلُودِ أَهْلِ الْـجَنَّةِ .. فَهُوَ مُخَرَّجٌ عَلَىٰ مَا لَـهُمْ مِنْ زِيَادَةِ الرِّضْوَانِ ، وَمَا لَـا يَعْلَمُهُ =

٣- أَوْ أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُعَلَّقٌ بِالْمَشِيئَةِ ، وَهُوَ لَا يَشَاءُ خُرُوجَهُمْ ، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّأْبِيدِ .

٤- أَوْ أَنَّ ﴿إِلَّا﴾ [الأنعام : ١٢٨/ هود : ١٠٧] بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ ، كَقَوْلِهِ :

... ... إِلَّا الْفَرْقَدَانِ (١)

٥- أَوْ أَنَّهَا بِمَعْنَىٰ « سِوَىٰ » ، حَكَاهُ الْكُوفِيُّونَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء : ٢٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

٦- أَوْ أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ لِمَا بَعْدَ ﴿السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود : ١٠٧] ، كَقَوْلِهِ : « لَا تُكْمِلْ حَوْلًا إِلَّا مَا شِئْتَ » مَعْنَاهُ : الزِّيَادَةُ عَلَىٰ الْحَوْلِ .

٧- أَوْ أَنَّهُ لِعُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ التَّأْبِيدِ .. قَوْلُهُ فِي الْجَنَّةِ : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ؛ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُؤَبَّدًا .. لَكَانَ مَقْطُوعًا ، فَيَتَعَيَّنُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَوَّلِ الْآيَةِ وَآخِرِهَا ، فَبَقِيَ يَقِينًا الِاسْتِثْنَاءُ عَلَىٰ ظَاهِرِ هَٰذَا الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ؛ وَلَيْسَ التَّجَوُّزُ فِيهِ بِأَوْلَىٰ مِنَ التَّجَوُّزِ فِي الِاسْتِثْنَاءِ [مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ] ، وَيُرَجِّحُ التَّجَوُّزَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ [مِنَ

= إِلَّا اللَّهُ . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) (إِلَّا الْفَرْقَدَانِ) جُزْءُ بَيْتٍ اسْتَشْهَدَ بِهِ النُّحَاةُ ، وَهُوَ لِعَمْرِو بْنِ مَعْدِ يَكْرِبَ ، وَنَصُّهُ :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ ... - لَعَمْرُ أَبِيكَ - إِلَّا الْفَرْقَدَانِ

وَلَمْ يَقُلْ بِأَنَّ (إِلَّا) بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ سِوَىٰ الْكُوفِيِّينَ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا ، وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَارِيُّ فِي [الْإِنْصَافِ / صَ ١٧٣] ، وَكَذَٰلِكَ الْمُرْتَضَىٰ فِي [أَمَالِيهِ] . (الْمُحَقِّقُ) .

الْخُلُودِ فِي النَّارِ] الْأَدِلَّةُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ التَّخْلِيدِ ؛ وَقَوْلُهُ فِي النَّارِ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود : ١٠٧] يُنَاسِبُ الْوَعِيدَ وَالزِّيَادَةَ فِي الْعَذَابِ ، وَلَا يُنَاسِبُ الِانْقِطَاعَ (١) .

---

(١) يُلَاحَظُ أَنَّ مَا بَيْنَ الْمَعْكُوفَتَيْنِ مِنْ وَضْعِنَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ،ظَنَنَّا أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَىٰ بِدُونِهِ. وَنُرِيدُ أَنْ نُلْقِيَ ضَوْءًا مَا عَلَىٰ فِكْرَةِ الْمُصَنِّفِ هُنَا وَأَدِلَّتِهِ عَلَىٰ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْخُلُودِ مُسْتَفَادًا مِنْ هَٰذِهِ الْآيَةِ .

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي هَٰذِهِ الْآيَةِ يَجِدُ أَنَّ فِيهَا اسْتِثْنَاءً مِنَ الْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ ، وَاسْتِثْنَاءً مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ . ثُمَّ ذَكَرَ اللَّٰهُ – عَزَّ وَجَلَّ – مَشِيئَتَهُ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَبَيَّنَ أَنَّهُ قَدْ شَاءَ لَهُمُ النَّعِيمَ الْمُؤَبَّدَ ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَشِيئَتَهُ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ النَّارِ .

وَالْمُصَنِّفُ يَرَىٰ – بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ – أَنَّ التَّعْبِيرَ بِـ ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] يُفِيدُ التَّأْبِيدَ ، فَيُحْمَلُ عَلَيْهِ الِاسْتِثْنَاءُ قَبْلَهُ .

وَهَٰكَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَذْهَبَ فِي فَهْمِ الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ خُلُودِ أَهْلِ النَّارِ فِيهَا ، فَنَقُولُ : إِنَّ اللَّٰهَ قَدْ شَاءَ لَهُمُ الْعَذَابَ الْمُؤَبَّدَ . وَلَٰكِنْ لِمُعْتَرِضٍ أَنْ يَعْتَرِضَ مَعَ ابْنِ الْقَيِّمِ بِأَنَّ اللَّٰهَ – عَزَّ وَجَلَّ – قَدْ حَسَمَ الْمَسْأَلَةَ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ، وَلَمْ يُبَيِّنْ مُرَادَهُ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ النَّارِ ! .

وَالْجَوَابُ عَلَىٰ هَٰذَا الِاعْتِرَاضِ : أَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّٰهُ قَدْ بَيَّنَ مُرَادَهُ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ .. فَإِنَّنَا يَنْبَغِي أَنْ نَحْمِلَ عَلَيْهِ تَفْسِيرَ مُرَادِ اللَّهِ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ النَّارِ ، خُصُوصًا وَأَنَّنَا نَمْلِكُ مُرَجِّحَاتٍ تُرَجِّحُ هَٰذَا الِاتِّجَاهَ الَّذِي ذَهَبْنَا إِلَيْهِ ، وَمِنْ هَٰذِهِ الْمُرَجِّحَاتِ :

أَوَّلًا : أَنَّ اللَّٰهَ ذَكَرَ بَعْدَ الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ خُلُودِ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ قَوْلَهُ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود : ١٠٧] ، وَهَٰذَا التَّعْبِيرُ يُنَاسِبُ الزِّيَادَةَ فِي الْعَذَابِ ، وَلَا يُنَاسِبُ النُّقْصَانَ .

ثَانِيًا : مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْءَانِ مِنْ آيَاتِ الْخُلُودِ – وَهِيَ كَثِيرَةٌ – يُرَجِّحُ هَٰذَا الِاتِّجَاهَ .

(الْمُحَقِّقُ) .

وَاعْلَمْ أَنَّ : ﴿مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود : ١٠٧] ظَاهِرُهُ اسْتِثْنَاءُ مُدَّةٍ زَمَانِيَّةٍ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود : ١٠٧] .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهَا ظَرْفُ مَكَانٍ ، وَيَكُونُ الِاسْتِثْنَاءُ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿فِيهَا﴾ [هود : ١٠٧] ، وَيُرَادُ بِهِ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا الَّتِي هِيَ لِعُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنْ أَمْكِنَةِ جَهَنَّمَ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَالَ أَبُو نَضْرَةَ[١] : الْقُرْءَانُ كُلُّهُ يَنْتَهِي إِلَىٰ هَٰذِهِ الْآيَةِ :

---

(١) يُشِيرُ إِلَىٰ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْـ (حَادِي) حَوْلَ آيَةِ [هُودٍ] ، وَكَلَامُ ابْنِ الْقَيِّمِ فِي هَٰذَا الْمَعْنَىٰ نَنْقُلُهُ هُنَا بِتَمَامِهِ ، قَالَ :

« حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذٍ ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ : قَالَ أَبِي : حَدَّثَنَا أَبُو نَضْرَةَ عَنْ جَابِرٍ أَوْ أَبِي سَعِيدٍ أَوْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : هَٰذِهِ الْآيَةُ تَأْتِي عَلَىٰ الْقُرْءَانِ كُلِّهِ : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود : ١٠٧] » اهـ . الْـ[حَادِي / ص ٣٥٠] .

وَقَدْ ذَكَرَ هَٰذِهِ الرِّوَايَةَ الصَّنْعَانِيُّ فِي رَدِّهِ عَلَىٰ ابْنِ الْقَيِّمِ وَابْنِ تَيْمِيَّةَ ، وَذَكَرَ أَنَّ هَٰذِهِ الرِّوَايَةَ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ فِي [الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ] ، وَهِيَ فِي [الدُّرِّ الْمَنْثُورِ] لِلسُّيُوطِيِّ ، ثُمَّ عَلَّقَ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ :

« وَلَا يَخْفَىٰ :

أَوَّلًا : أَنَّهُ شَكَّ أَبُو نَضْرَةَ فِي قَائِلِ هَٰذَا الْقَوْلِ ، وَرَدَّدَهُ بَيْنَ ثَلَاثَةٍ : مَعْلُومِينَ وَمَجْهُولِينَ ؛ وَهَٰذَا الشَّكُّ – وَإِنْ كَانَ انْتِقَالًا مِنْ ثِقَةٍ إِلَىٰ ثِقَةٍ ، عَلَىٰ رَأْيِ مَنْ يَقُولُ : كُلُّ الصَّحَابَةِ عُدُولٌ – غَيْرُ ضَائِرٍ فِي الرِّوَايَةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَصِحُّ مَعَهُ الْجَزْمُ بِنِسْبَةِ الْقَوْلِ بِفَنَاءِ النَّارِ إِلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ ، حَيْثُ إِنَّ مُسْتَنَدَ الْقَوْلِ بِهِ هُوَ هَٰذَا الْأَثَرُ ، لِأَنَّ هَٰذَا أَثَرٌ لَمْ يَتِمَّ الْجَزْمُ بِهِ فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ لِأَبِي سَعِيدٍ ، فَكَيْفَ يَجْزِمُ بِنِسْبَةِ هَٰذَا الْمَدْلُولِ – أَعْنِي : الْقَوْلَ بِفَنَاءِ النَّارِ وَذَهَابِهَا – إِلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ كَمَا فَعَلَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ الدَّلِيلُ ؟ .

وَثَانِيًا : وَهُوَ عَلَىٰ تَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ عَنْهُ .. فَإِنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَىٰ مُدَّعَاهُ – وَهُوَ فَنَاءُ النَّارِ – وَلَا رَائِحَةَ =

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٧] .

قُلْتُ: هَـٰذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ، وَاللَّـٰهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَلَيْسَ فِي ذَٰلِكَ أَنَّـهُ يُـخْرِجُ الْكُفَّارَ مِنَ النَّارِ .

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ قَالَ أَبُـو سَعِيدٍ الْـخُدْرِيُّ (١) ﷺ وَقَتَادَةُ: « اللَّـٰهُ أَعْلَمُ بِتَثْنِيَتِهِ عَلَىٰ مَا وَقَعَتْ » .

قُلْتُ: صَحِيحٌ، لِأَنَّ تَعْيِينَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي حَكَيْنَاهَا .. ضَعِيفٌ، وَاللَّـٰهُ أَعْلَمُ بِهِ وَبِغَيْرِهِ؛ وَلَيْسَ فِي كَلَامِ أَبِـي سَعِيدٍ وَقَتَادَةَ مَا يَـحْتَمِلُ خُرُوجَ الْكُفَّارِ مِنَ النَّارِ .

فَإِنْ قُلْتَ: قَـدْ رَوَىٰ الطَّبَرَانِـيُّ (٢) عَـنْ يُـونُسَ عَـنِ ابْـنِ أَبِـي ذِئْبٍ عَـنِ ابْـنِ

= دَلَالَةٍ، بَلْ غَايَةُ مَا فِيهِ أَنَّ كُلَّ وَعِيدٍ فِي الْقُرْءَانِ ذُكِرَ فِيهِ الْـخُلُودُ لِأَهْلِ النَّارِ .. فَإِنَّ آيَةَ الِاسْتِثْنَاءِ حَاكِمَـةٌ عَلَيْهِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ مُجْمَلَةٌ لَا تَـدُلُّ عَلَىٰ الْمُدَّعَىٰ بِنَوْعٍ مِنَ الدَّلَالَاتِ الثَّلَاثِ :

١- الْمُطَابَقَةِ

٢- التَّضَمُّنِ

٣- الِالْتِزَامِ .

بَلْ يُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهَا فُسِّرَتْ بِآيَاتِ الْخُلُودِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْقُرْءَانِ فِي خُلُودِ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي [الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] قَالَ: فَقَدْ شَاءَ رَبُّكَ أَنْ يُخَلِّدَ هَـٰؤُلَاءِ فِي النَّارِ، وَهَـٰؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ » . اِنْتَهَىٰ .

[رَفْعُ الْأَسْتَارِ لِلصَّنْعَانِيِّ : ص ٧٨، ٧٩] . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) سَبَقَ أَنْ قُلْنَا فِي الرِّوَايَةِ لِأَبِي سَعِيدٍ : إِنَّ فِيهَا تَرَدُّدًا، فَلَا تَثْبُتُ عَنْهُ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) يُشِيرُ إِلَىٰ مَا ذَكَرَهُ فِي الْـ(حَادِي : ص ٣٥١، ٣٥٢)، وَنَصُّهُ :

« وَحَكَىٰ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَٰلِكَ قَوْلًا آخَرَ، فَقَالَ: وَقَالَ آخَرُونَ: أَخْبَرَنَا اللَّـٰهُ - عَزَّ وَجَلَّ - =

زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ، قَالَ : أَخْبَرَنَا بِالَّذِي شَاءَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِالَّذِي شَاءَ لِأَهْلِ النَّارِ ! .

قُلْتُ : هَٰذَا الَّذِي يَقْتَضِي أَنَّ ابْنَ زَيْدٍ يَقُولُ بِعَدَمِ الِانْقِطَاعِ ، لِأَنَّهُ جَعَلَ ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] هُوَ الَّذِي شَاءَهُ ، وَهُوَ الَّذِي بَعْدَ الِاسْتِثْنَاءِ ، فَكَذَا يَكُونُ فِي أَهْلِ النَّارِ .. أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَىٰ الِانْقِطَاعِ ، وَلَٰكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ مَا بَعْدَهُ ، بَلْ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود : ١٠٧] .

فَإِنْ قُلْتَ : فَقَدْ قَالَ السُّدِّيُّ : إِنَّهَا يَوْمَ نَزَلَتْ .. كَانُوا يَطْمَعُونَ فِي الْخُرُوجِ .

قُلْتُ : إِنْ صَحَّ هَٰذَا عَنِ السُّدِّيِّ(١) : أَنَّهَا يَوْمَ نَزَلَتْ .. كَانُوا يَطْمَعُونَ

= بِمَشِيئَتِهِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَعَرَفْنَا مَعْنَى ثُنْيَاهُ بِقَوْلِهِ : ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ، وَأَنَّهَا لَفِي الزِّيَادَةِ عَلَىٰ مِقْدَارِ مُدَّةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

قَالُوا : وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِمَشِيئَتِهِ فِي أَهْلِ النَّارِ ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ مَشِيئَتُهُ فِي الزِّيَادَةِ ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ فِي النُّقْصَانِ .

حَدَّثَنِي يُونُسُ ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ...﴾ [هود : ١٠٧] فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ، فَقَالَ : أَخْبَرَنَا بِالَّذِي يَشَاءُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِالَّذِي يَشَاءُ لِأَهْلِ النَّارِ » . اِهـ . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) الْمُصَنِّفُ - كَمَا تَرَىٰ - يَذْهَبُ إِلَىٰ التَّشْكِيكِ فِي صِحَّةِ هَٰذَا الْقَوْلِ عَنِ السُّدِّيِّ ، وَكَأَنِّي =

فِي الْـخُرُوجِ .. فَهُوَ مَـحْمُولٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حَـمَلَهَا عَلَىٰ الْعُصَاةِ ، لِأَنَّ الطَّامِعِينَ هُمُ الْـمُسْلِمُونَ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ رَوَىٰ عَبْدُ بْنُ حُـمَيْدٍ (١) فِي تَفْسِيرِهِ : عَنْ سُلَيْمَـانَ بْنِ حَرْبٍ حَدَّثَنَا حَـمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَـنِ الْـحَسَنِ قَـالَ : قَـالَ عُـمَـرُ رضي الله عنه : « لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِـي النَّارِ بِقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ .. لَكَانَ لَـهُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَـخْرُجُونَ » ! .

قُلْتُ : الْـحَسَنُ لَـمْ يَسْمَعْ مِنْ عُمَرَ ؛ وَقَـدْ رَأَيْـتُ هَـٰذَا الْـأَثَـرَ فِي تَـفْسِيرِ

= بِابْنِ كَثِيرٍ قَدْ أَهْمَلَ إِسْنَادَ هَـٰذَا الْقَوْلِ إِلَـىٰ السُّدِّيِّ ، ثُمَّ أَسْنَدَ إِلَيْهِ أَنَّـهُ يَقُولُ بِالنَّسْخِ ، قَالَ : « وَقَالَ السُّدِّيُّ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ » اهـ . [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ : جـ ٢ / ٤٦٠] . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) يُشِيرُ إِلَـىٰ مَا نَقَلَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْـ(حَادِي) نَقْلًا عَنْ تَفْسِيرِ عَبْدِ بْنِ حُـمَيْدٍ ، وَقَدْ نَقَلَهُ فِي الْـ(حَادِي) بِسَنَدِهِ ، وَاخْتَصَرَهُ الْـمُصَنِّفُ هُنَا ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ :

« ... وَقَدْ رَوَىٰ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ - وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ أَئِمَّةِ الْـحَدِيثِ - فِي تَفْسِيرِهِ الْـمَشْهُورِ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَـانُ بْنُ حَرْبٍ ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنِ الْـحَسَنِ قَالَ : قَالَ عُمَرُ : لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ ... إِلَـىٰ آخِرِ الرِّوَايَةِ » . وَلَـٰكِنَّهُ لَـمْ يَذْكُرْ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ : « لَكَانَ لَـهُمْ يَوْمٌ يَـخْرُجُونَ فِيهِ » .

ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : « ذَكَرَ عَبْدُ بْنُ حُـمَيْدٍ ذُلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَـىٰ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ : ٢٣] » . وَهَـٰذِهِ الرِّوَايَةُ إِلَـىٰ عُمَرَ قَدْ سَبَقَ أَنْ أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِي الْـمُقَدِّمَةِ ، وَبَيَّـنَّا مَا فِيهَا مِنْ ضَعْفِ الْإِسْنَادِ ، إِذِ الْـحَسَنُ - الَّذِي هُوَ الْبَصْرِيُّ - لَـمْ يَسْمَعْ مِنْ عُمَرَ ، فَقَدْ وُلِدَ لِسَنَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ خِلَافَتِهِ ؛ وَالرِّوَايَةُ إِلَـىٰ عُمَرَ إِنْ صَحَّتْ - وَهِيَ لَـا تَصِحُّ - فَقَدْ وَرَدَ التَّرَدُّدُ فِيهَا ، وَلَـمْ يَـجْزِمِ الرُّوَاةُ بِأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ الْوَارِدَيْنِ عَنْهُ ، بِحَيْثُ نَعْلَمُ : هَلْ قَالَ عُمَرُ : « كَانَ لَـهُمْ يَوْمٌ يَـخْرُجُونَ فِيهِ » ، أَوْ قَالَ : « لَكَانَ لَـهُمْ يَوْمٌ يَرْجُونَ فِيهِ » . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِـمَا قَالَ عُمَرُ . (الْـمُحَقِّقُ) .

عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ فِي مَوْضِعَيْنِ ، فِي **أَحَدِهِمَا** : يَخْرُجُونَ ؛ وَفِي **الْآخَرِ** : يَرْجُونَ . لَا تَصْرِيحَ فِيهِ ، فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ رَجَاءٌ ثُمَّ يَيْأَسُونَ .

وَ« **يَخْرُجُونَ** » : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الزَّمْهَرِيرِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ فِي عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ . فَلَمْ يَجِئْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْآثَارِ أَنَّهُ فِي الْكُفَّارِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَالَ هَـٰذَا الْمُصَنِّفُ إِنَّهُ يَحْتَجُّ عَلَىٰ فَنَاءِ النَّارِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ ، وَإِنَّ الْقَائِلِينَ بِبَقَائِهَا لَيْسَ مَعَهُمْ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ وَلَا أَقْوَالُ الصَّحَابَةِ ﷺ ! .

قُلْتُ : هَـٰذَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَهُمَا دَالَّانِ عَلَىٰ بَقَائِهِمَا .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَالَ : « فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ حَدِيثٌ ذُكِرَ فِيهِ أَنَّهُ يَنْبُتُ فِيهَا الْجَرْجِيرُ » ! [١] .

قُلْتُ : لَيْسَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ ، وَلَـٰكِنَّهُ فِي غَيْرِهِ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَلَوْ صَحَّ .. حُمِلَ عَلَىٰ طَبَقَةِ الْعُصَاةِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَالَ حَرْبٌ الْكِرْمَانِيُّ [٢] : « سَأَلْتُ إِسْحَاقَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ

---

(١) لَمْ نَعْثُرْ عَلَىٰ هَـٰذَا الْحَدِيثِ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ ، وَلَا حَتَّىٰ فِي كُتُبِ الْمَوْضُوعَاتِ ؛ وَالْحَدِيثُ مَوْجُودٌ فِي كُتُبٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُعْتَمَدَةِ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) هُوَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ أَبُو مُحَمَّدٍ حَرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكِرْمَانِيُّ الْفَقِيهُ ، تِلْمِيذُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَخَذَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهُويَه ، وَكَانَ رَجُلًا جَلِيلًا ، لَهُ كِتَابٌ فِي الْمَسَائِلِ ، يُعَدُّ مِنْ أَنْفَسِ كُتُبِ الْحَنَابِلَةِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ (٢٨٠هـ) عَنْ عُمُرٍ قَارَبَ التِّسْعِينَ . [سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ ١٣/ ٢٤٤، ٢٤٥] .

تَعَالَىٰ : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود : ١٠٧] ؟ فَقَالَ : أَتَتْ هَـٰذِهِ الْـآيَـةُ عَلَىٰ كُلِّ وَعِيدٍ فِي الْقُرْءَانِ » [(١)] .

وَعَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : هَـٰذِهِ الْـآيَـةُ تَـأْتِـي عَلَىٰ الْقُرْءَانِ كُلِّهِ ، حَيْثُ كَانَ فِي الْقُرْءَانِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود : ١٠٧] .. تَـأْتِي عَلَيْهِ ! » [(٢)] .

قُلْتُ : إِنْ صَحَّتْ هَـٰذِهِ الْـآثَـارُ [(٣)] .. حُمِلَتْ عَلَىٰ الْعُصَاةِ ، لِأَنَّ الْقُرْءَانَ لَـمْ يَرِدْ فِيهِ خُرُوجُ الْعُصَاةِ مِنَ النَّارِ صَرِيـحًا [(٤)] ، إِنَّـمَا وَرَدَ فِي الـسُّنَّةِ بِالشَّفَاعَـةِ ؛

---

(١) يُشِيرُ إِلَـىٰ مَا ذَكَرَهُ فِي الْـ(حَادِي : ص ٣٥٠) .

وَإِسْحَاقُ هُوَ : ابْنُ رَاهُويَه ، بِضَمِّ الْـهَاءِ ، وَسُكُونِ الْوَاوِ ، وَفَتْحِ الْيَاءِ ؛ أَيِ : الْـمَوْلُودُ فِي الطَّرِيقِ ، حَيْثُ وُلِدَ أَبُـوهُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَقِيلَ لَهُ (رَاهُويَه) ؛ وَعَاشَ إِسْحَاقُ بَيْنَ سَنَةِ (١٦١ – ٢٣٨ هـ = ٧٧٨ – ٨٥٣ م) ؛ وَهُوَ مِنْ رُوَاةِ الْـحَدِيثِ الثِّقَاتِ ، وَمِنْ أَعْلَامِ أَهْلِ خُرَاسَانَ بِبِلَادِ فَارِسٍ ، وَلَهُ أَحَادِيثُ فِي الْبُخَارِيِّ ، وَمُسْلِمٍ ، وَالتِّرْمِذِيِّ ، وَأَحْـمَدَ ، وَالنَّسَائِيِّ ، وَغَيْرِهِمْ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) يُشِيرُ إِلَـىٰ مَا ذَكَرَهُ فِي الْـ(حَادِي : ص ٣٥٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي نَضْرَةَ مُتَرَدِّدًا فِيهِ ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : « حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذٍ ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَـانَ قَالَ : قَالَ أَبِي : حَدَّثَنَا أَبُـو نَضْرَةَ ، عَنْ جَابِرٍ ، أَوْ أَبِي سَعِيدٍ ، أَوْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : هَـٰذِهِ الْـآيَةُ تَـأْتِي عَلَىٰ الْقُرْءَانِ كُلِّهِ : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود : ١٠٧] » اِهـ . وَقَدْ سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَـىٰ هَـٰذِهِ الرِّوَايَةِ وَالتَّعْلِيقُ عَلَيْهَا . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٣) وَاضِحٌ أَنَّ الْـمُصَنِّفَ شَاكٌّ فِي هَـٰذِهِ الرِّوَايَاتِ ، وَمَا يَذْكُرُهُ بَعْدُ .. إِنَّـمَا هُـوَ عَلَىٰ فَرْضِ الصِّحَّةِ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٤) وَرَدَ فِي الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ آيَاتٌ – سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا – تَدُلُّ عَلَىٰ الْـخُلُودِ وَالتَّأْبِيدِ ، وَلَـمْ يَرِدْ نَصٌّ صَرِيـحٌ فِي الْقُرْءَانِ يَدُلُّ عَلَىٰ خُرُوجِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِـنَ النَّارِ أَوْ عُصَاةِ الْـمُؤْمِنِينَ ، وَلَـٰكِنْ قَدْ =

فَالْـمُرَادُ بِـهَـٰذِهِ الْـآثَـارِ .. مُوَافَقَةُ الْقُرْءَانِ لِلسُّـنَّـةِ فِـي ذَٰلِكَ ، فَإِنَّ السَّلَفَ كَانُوا شَدِيدِي الْـخَوْفِ ، وَلَـمْ يَـجِدُوا فِـي الْقُرْءَانِ خُرُوجَ الْـمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ ، وَكَانُوا يَـخَافُونَ الْـخُلُودَ كَمَا تَقُولُهُ الْـمُعْتَزِلَةُ [١] .

فَإِنْ قُلْتَ : قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ جَهَنَّمَ زَمَانٌ تَـخْفِقُ أَبْـوَابُـهَا ، لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، وَذَٰلِكَ بَعْدَ مَا يَلْبَثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا » [٢] ! .

قُلْتُ : إِنْ صَحَّ هَـٰذَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ .. حُـمِلَ عَلَىٰ طَبَقَةِ الْعُصَاةِ .

وَقَوْلُـهُ : « أَحْقَابًا » .. يُـحْمَلُ عَلَىٰ أَحْقَابٍ غِيرِ [٣] الْـأَحْقَابِ الْـمَذْكُورَةِ فِي

= وَرَدَ فِـي السُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ خُرُوجِ عُصَاةِ الْـمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ ، كَالْـأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِـي الشَّفَاعَةِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ ، وَفِيهَا دَلَـالَةٌ عَلَىٰ تَنَوُّعِ الشُّفَعاءِ ، وَقَبُولِ اللَّـٰهِ – عَزَّ وَجَلَّ – لِشَفَاعَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَذِنَ لَـهُمْ فِيهَا . (الْـمُحَقِّقُ) .

(١) ذَهَبَ الْـمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ إِلَـىٰ أَنَّ مُرْتَكِبَ الْـمَعَاصِي إِذَا مَاتُوا عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِغَيْرِ تَوْبَةٍ .. فَإِنَّـهُمْ يُـخَلَّدُونَ فِـي النَّارِ وَلَـا يَـخْرُجُونَ مِنْهَا كَمَا يُـخَلَّدُ الْكَافِرُونَ ؛ وَرَأْيُـهُمْ هَـٰذَا مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَنَّ وَعِيدَ اللَّـٰهِ كَوَعْدِهِ .. لَـا يَتَخَلَّفُ ، وَمَا دَامَ اللَّـٰهُ قَدْ أَوْعَدَهُمْ بِالنَّارِ .. فَإِنَّ هَـٰذَا الْوَعِيدَ لَنْ يَتَخَلَّفَ .

وَقَدْ خَالَفَهُمْ غَيْرُهُمْ ، كَأَهْلِ السُّنَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ فِـي تَـخَلُّفِ الْوَعِيدِ كَرَمٌ وَفَضْلٌ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ أَكْرَمُ مِنَ اللَّـٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَتَخَلَّفَ الْوَعِيدُ عِنْدَهُ . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) يُشِيرُ إِلَـىٰ مَا ذَكَرَهُ فِي الْـ(حَادِي : صَ ٣٥١) نَقْلًا عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَهُـوَ بِأَلْفَاظِهِ كَمَا ذَكَرَهُ هُنَا ، وَقَدْ تَعَقَّبَهُ الصَّنْعَانِيُّ ، وَبَيَّنَ أَنَّ هَـٰذَا الْـأَثَرَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَدْ رُوِيَ أَيْضًا فِـي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ ، وَلَـمْ يَقِفْ لَهُ – عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِهِ – عَلَىٰ إِسْنَادٍ ؛ أَيْ أَنَّ هَـٰذَا الْـأَثَرَ قَدْ وَرَدَ مُعَلَّقًا ، لَـا يُـحْتَجُّ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ الْـأَلْبَانِيُّ فِـي الْـحَاشِيَةِ إِنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ قَدْ ذَكَرَهُ فِـي الْـ(حَادِي) هَـٰكَذَا بِلَا إِسْنَادٍ ، نَقْلًا عَنِ الطَّبَرِيِّ أَوْ عَنِ الْبَغَوِيِّ ، وَإِسْنَادُهُ مُظْلِمٌ . [رَاجِعْ رَفْعَ الْـأَسْتَارِ لِـإِبْطَالِ أَدِلَّةِ الْقَائِلِينَ بِفَنَاءِ النَّارِ : صَ ٧٥] وَمَا بَعْدَهَا . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٣) سَبَقَ أَنْ أَشَرْنَا إِلَـىٰ مَعْنَىٰ (الْـأَحْقَابِ) الْوَارِدَةِ فِـي سُورَةِ [النَّبَإِ : ٢٣] ، وَبَيَّـنَّا أَنَّ سِبَاقَـهَا =

الْقُرْءَانِ ، حَتَّىٰ يَصِحَّ الْحَمْلُ عَلَىٰ الْعُصَاةِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَالَ الشَّعْبِيُّ : « جَهَنَّمُ أَسْرَعُ الدَّارَيْنِ عُمْرَانًا ، وَأَسْرَعُهُمَا خَرَابًا » ! (١) .

قُلْتُ : أَنَا أُعِيذُ الشَّعْبِيَّ مِنْ ذَٰلِكَ ، فَإِنَّهُ يَقْتَضِي (٢) خَرَابَ الْجَنَّةِ ! .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدِ اعْتَرَضَ هَـٰذَا الْمُصَنِّفُ عَلَىٰ الْإِجْمَاعِ ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْلُومٍ ، فَإِنَّ هَـٰذِهِ الْمَسَائِلَ لَا يُقْطَعُ فِيهَا بِإِجْمَاعٍ ؛ نَعَمْ .. قَدْ يُظَنُّ فِيهَا الْإِجْمَاعُ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُعْرَفَ النِّزَاعُ ، وَقَدْ عُرِفَ النِّزَاعُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، بَلْ إِلَىٰ السَّاعَةِ ! (٣) .

قُلْتُ : الْإِجْمَاعُ لَا يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْلُومٍ ، بَلْ يُعْتَرَضُ بِنَقْلِ خِلَافٍ صَرِيحٍ ، وَلَمْ يَنْقُلْهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ تَصَرُّفِهِ وَفَهْمِهِ .

= وَلَحَاقَهَا يَدُلَّانِ عَلَىٰ أَنَّهَا فِي أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ، أَيِ الْكُفَّارِ ؛ وَعَلَيْهِ .. لَوْ صَحَّ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَخُرِّجَ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ عُصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ .. تَكُونُ الْأَحْقَابُ الْوَارِدَةُ فِي كَلَامِهِ غَيْرَ الْأَحْقَابِ الْوَارِدَةِ فِي سُورَةِ [النَّبَإِ : ٢٣] ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا لَفَتَ السُّبْكِيُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) جَاءَ فِي الْـ(حَادِي : صَ ٣٥١) : « ... حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ ، حَدَّثَنَا بَيَانُ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : جَهَنَّمُ أَسْرَعُ الدَّارَيْنِ عُمْرَانًا ، وَأَسْرَعُهُمَا خَرَابًا » . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) الْوَارِدُ فِي الرِّوَايَةِ صِيغَةُ (أَفْعَلُ) التَّفْضِيلِ : (أَسْرَعُ) ، وَ(أَفْعَلُ) التَّفْضِيلُ مَعْنَاهُ : أَنَّ شَيْئَيْنِ اشْتَرَكَا فِي صِفَةٍ ، وَزَادَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فِي هَـٰذِهِ الصِّفَةِ .
وَطِبْقًا لِهَـٰذِهِ الْقَاعِدَةِ نَقُولُ : إِنَّ كَلَامَ الشَّعْبِيِّ هُنَا يَقْتَضِي أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ سَيَفْنَيَانِ ، لَـٰكِنَّ النَّارَ أَسْرَعُ الدَّارَيْنِ فِي الْخَرَابِ وَالْفَنَاءِ ؛ وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَىٰ الشَّعْبِيِّ بِحَالٍ ، لِمَا لَهُ مِنْ وَرَعٍ ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ دِينٍ وَفِقْهٍ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٣) لَخَّصَ الْمُصَنِّفُ هُنَا مَا ذَكَرَهُ **ابْنُ الْقَيِّمِ** فِي الْـ(حَادِي : صَ ٣٥٤) . (الْمُحَقِّقُ) .

وَقَوْلُهُ : « إِنَّ هَـٰذِهِ الْـمَسَائِلَ لَـا يُقْطَعُ فِيهَا بِإِجْمَاعٍ » دَعْوَىٰ مُـجَرَّدَةٌ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَالَ : « لَـمْ أَعْلَمْ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ قَالَ لَـا تَفْنَىٰ ، وَإِنَّـمَا الْـمَنْقُولُ عَنْهُمْ ضِدُّ ذَٰلِكَ ، لَـٰكِنِ التَّابِعُونَ نُقِلَ عَنْهُمْ هَـٰذَا وَهَـٰذَا » [١] .

قُلْتُ : هُوَ مُطَالَبٌ بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ وَالتَّابِعِينَ ، وَلَنْ يَـجِدَهُ ؛ وَغَايَتُهُ – كَمَـا قُلْتُ لَكَ – أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْ كَلِمَـاتٍ وَرَدَتْ فَهِمَ مِنْهَا ذَٰلِكَ ، وَيَـجِبُ تَـأْوِيلُهَا ، تَـحْسِينًا لِلظَّنِّ بِهِمْ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَالَ : إِنَّـهُ لَيْسَ فِي الْقُرْءَانِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّـهَا لَـا تَفْنَىٰ ، بَلِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْقُرْءَانِ أَنَّـهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَـدًا ، وَأَنَّـهُ يَقْتَضِي خُلُودَهُمْ فِيهَا مَا دَامَتْ بَاقِيَةً ، لَـا يَـخْرُجُونَ مِنْهَا مَعَ بَقَائِهَا وَبَقَاءِ عَذَابِهَا كَمَـا يَـخْرُجُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ ! [٢] .

قُلْتُ : قَدْ قُلْتُ لَكَ إِنَّ حَقِيقَةَ الْـخُلُودِ فِي مَكَانٍ .. يَقْتَضِي بَقَاءَ ذَٰلِكَ الْـمَكَانِ ؛ وَقَدْ تَـأَمَّلْتُ كَلَامَ الْـمُصَنِّفِ .. فَلَـمْ أَرَ فِيهِ زِيَادَةً عَلَىٰ ذَٰلِكَ ، بَلِ انْدَفَعَ فِي ذِكْرِ الْـآيَـاتِ وَأَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ ، وَلَـمْ يُبَيِّنْ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ الْكُفَّارِ بَعْدَ فَنَاءِ النَّارِ ! [٣] .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ فَرَّقَ بَيْنَ بَقَاءِ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ شَرْعًـا وَعَقْلًا ، أَمَّا شَرْعًا : فَمِـنْ

---

(١) مَا ذَكَرَهُ الْـمُصَنِّفُ هُنَا قَرِيبٌ بِأَلْفَاظِهِ مِـمَّـا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْـ(حَادِي : صَ٣٥٤) (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) يُشِيرُ بِاخْتِصَارٍ إِلَـىٰ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْـ(حَادِي : ٣٥٥) . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٣) هَـٰذِهِ مُلَاحَظَةٌ عَامَّةٌ اسْتَقَاهَا الْـمُصَنِّفُ مِنْ عَرْضِ ابْنِ الْقَيِّمِ غَيْرِ الْـمَنْهَجِيِّ ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَـجِدَ ذَٰلِكَ مُتَفَرِّقَاتٍ فِي الْـ(حَادِي : صَ ٣٤٨) وَمَا بَعْدَهَا . (الْـمُحَقِّقُ) .

وُجُوهٍ [١] :

١- **أَحَدُهَا :** أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ بِبَقَاءِ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَدَوَامِهَا ، وَأَنَّهُ لَا نَفَاذَ لَهُ وَلَا انْقِطَاعَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ؛ وَأَمَّا النَّارُ وَعَذَابُهَا .. فَلَمْ يُخْبِرْ بِبَقَاءِ ذَٰلِكَ ، بَلْ أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ! .

قُلْتُ : قَدْ أَخْبَرَ فِي النَّارِ وَأَهْلِهَا أَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ [٢] ، وَأَنَّهُمْ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ [٣] ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ [٤] ، فَلَوْ فَنِيَتْ :

١- إِمَّا أَنْ يَمُوتُوا فِيهَا .

٢- أَوْ يَخْرُجُوا . وَكُلٌّ مِنْهُمَا أُخْبِرَ فِي الْقُرْءَانِ بِنَفْيِهِ .

(١) أُنْظُرِ الْـ(حَادِي : صَ ٣٥٧) وَمَا بَعْدَهَا . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة : ٣٧] . (الْمُحَقِّقُ) .

(٣) قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٥] . (الْمُحَقِّقُ) .

(٤) **فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ :**

- فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، آيَةُ رَقْمِ [١٦٢] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ ، وَهِيَ فِي آلِ عِمْرَانَ ، آيَةٌ رَقْمُ [٨٨] .

- وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ النَّحْلِ : ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آيَةٌ رَقْمُ [٨٥] .

- وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ فَاطِرٍ آيَةٌ رَقْمُ [٣٦] : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ . (الْمُحَقِّقُ) .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ ذَكَرَهُ مِنَ الْوُجُوهِ الشَّرْعِيَّةِ أَنَّ الْـجَنَّةَ مِنْ مُقْتَضَىٰ رَحْمَتِهِ ، وَالنَّارَ مِنْ عَذَابِهِ ؛ فَالنَّعِيمُ مِنْ مُوجَبِ أَسْمَـائِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ ، فَيَجِبُ دَوَامُهُ بِدَوَامِ مَعَانِـي أَسْمَـائِهِ وَصِفَاتِهِ ؛ وَالْعَذَابُ مِنْ مَـخْلُوقَاتِهِ ، وَالْـمَخْلُوقُ قَدْ يَكُونُ لَهُ انْتِهَاءٌ ، لَـا سِيَّـمَا مَـخْلُوقٌ خُلِقَ لِـحِكْمَةٍ تَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ [(١)] ! .

قُلْتُ : وَمِنْ أَسْمَـائِهِ تَعَالَـىٰ : « شَدِيدُ الْعِقَابِ» وَ«الْـجَبَّارُ» وَ«الْقَهَّارُ» وَ«الْـمُذِلُّ» وَ«الْـمُنْتَقِمُ» .

فَيَجِبُ دَوَامُهُ بِدَوَامِ ذَاتِهِ وَأَسْمَـائِهِ أَيْـضًا [(٢)] .

وَنَقُولُ لِـهَـٰذَا الرَّجُلِ :

١- إِنْ كَانَتِ الْـأَسْمَـاءُ وَالصِّفَاتُ تَقْتَضِي دَوَامَ مَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْـأَفْعَالِ .. فَيَلْزَمُ قِدَمُ الْعَالَـمِ .

٢- وَإِنْ كَانَتْ لَـا تَقْتَضِي .. فَلَا يَلْزَمُ دَوَامُ الْـجَنَّـةِ . فَأَحَـدُ الْـأَمْرَيْنِ لَـازِمٌ

---

(١) أُنْظُرِ الْـ(حَادِي : صَ ٣٥٨، ٣٥٩) ، وَانْظُرْ أَيْـضًا [٣٦٢ ، ٣٦٣] . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) نَازَعَ **ابْنُ الْقَيِّمِ** فِي هَـٰذِهِ الْـحَقِيقَةِ ، وَبَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ نَوْعَيِ الصِّفَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِلَّـٰهِ عَزَّ وَجَلَّ :

١- فَصِفَاتُ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ .. صِفَاتٌ ذَاتِيَّةٌ .

٢- وَالصِّفَاتُ الَّتِي يَنْتُجُ عَنْهَا الْعَذَابُ .. صِفَاتٌ لَـا تَدُومُ .

فَتَأَمَّلْهُ ! .

وَالْعَجِيبُ أَنَّـهُ قَدِ انْتَهَىٰ بِالتَّحْلِيلِ إِلَـىٰ حَدِّ أَنَّ الْعَذَابَ لِـأَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا .. إِنَّـمَا هُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ بِالْكَافِرِينَ ، إِذْ فِيهِ تَـمْهِيدٌ لِـإِدْخَالِـهِمُ الْـجَنَّةَ !! .

الْـمَرْجِعُ السَّابِقُ ، [صَ ٣٦٢] وَمَا بَعْدَهَا . (الْـمُحَقِّقُ) .

لِكَلَامِ هَـٰذَا الرَّجُلِ ؛ وَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ بَاطِلٌ ، فَكَلَامُ هَـٰذَا الرَّجُلِ بَاطِلٌ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَالَ : « إِنَّـهُ – أَيِ اللَّـٰهُ عَزَّ وَجَلَّ – (١) أَخْبَرَ أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، (وَسَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي)(٢) ، فَإِذَا قُدِّرَ عَذَابٌ لَا آخِرَ لَهُ .. لَـمْ يَكُنْ هُنَاكَ رَحْمَةٌ أَلْبَتَّةَ » ! .

---

(١) يُشِيرُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، آيَةُ [١٥٦] : ﴿ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) يُشِيرُ إِلَىٰ مَا أَوْرَدَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّـٰهِ ﷺ ، وَالَّذِي فِيهِ : « إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » . الْـ [حَادِي : ص٣٥٩] . وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ ، وَأَخْرَجَهُ غَيْرُهُ .أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بِالسَّنَدِ إِلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَـمَّا خَلَقَ اللَّـٰهُ الْخَلْقَ .. كَتَبَ فِي كِتَابِهِ ، وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَهُوَ وَضَعَ عِنْدَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ : (إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي) » . أَخْرَجَهُ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ ، بَابُ قَوْلِ اللَّـٰهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] [١٣ / ٣٨٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي صَالِحٍ ، طَبْعَةُ الْمَكْتَبَةِ السَّلَفِيَّةِ .

وَفِي رِوَايَةٍ بِالسَّنَدِ إِلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَـمَّا قَضَىٰ اللَّـٰهُ الْخَلْقَ .. كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ : (غَلَبَتْ – أَوْ قَالَ – سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي) فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ » . أَخْرَجَهُ أَيْضًا فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ ، بَابُ قَوْلِ اللَّـٰهِ تَعَالَىٰ : ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢ ﴾ [البروج : ٢١ – ٢٢] ، [١٣ / ٥٢٢] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي رَافِعٍ ، وَالْحَدِيثُ أَيْضًا مَرْوِيٌّ فِي صَحِيحِ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ ، وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ، وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ .

وَلَعَلَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْطَعَ بِأَنَّ الْمُرَادَ هُوَ غَلَبَةُ الرَّحْمَةِ عَلَىٰ الْغَضَبِ ، فَقَدْ يَكُونُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ أَنَّ الرَّحْمَةَ سَبَقَتِ الْغَضَبَ ، وَالتَّرَدُّدُ وَارِدٌ ، كَمَا هُوَ فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ ؛ وَلَـمْ يُشِرْ إِلَيْهِ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي (حَادِيـ)ـهِ . (الْمُحَقِّقُ) .

قُلْتُ : **الْـآخِرَةُ دَارَانِ** :

١- دَارُ رَحْمَةٍ ، لَـا يَشُوبُـهَا شَيْءٌ ، وَهِيَ الْـجَنَّـةُ .

٢- وَدَارُ عَذَابٍ ، لَـا يَشُوبُـهُ شَيْءٌ ، وَهِيَ النَّارُ .

وَذَٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ الْقُدْرَةِ ؛ وَالدُّنْيَا مُـخْتَلِطَةٌ بِهَـٰذَا وَبِهَـٰذَا .

فَقَوْلُهُ : « إِذَا قُدِّرَ عَذَابٌ لَـا آخِرَ لَهُ .. لَـمْ يَكُنْ هُنَاكَ رَحْمَةٌ أَلْبَتَّةَ » .

- إِنْ أَرَادَ نَفْيَ الرَّحْمَةِ مُطْلَقًا .. فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، لِـأَنَّ هُنَاكَ كَمَـالَ الرَّحْمَةِ فِي الْـجَنَّةِ .

- وَإِنْ أَرَادَ : (لَـمْ يَكُنْ فِـي النَّارِ) .. قُلْنَا : مَـهْ [١] ، وَإِنْ قَالَ إِنَّـهَا شَيْءٌ وَالْعِقَابُ شَيْءٌ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَـىٰ : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ ثَبَتَ [٢] أَنَّـهُ حَكِيمٌ رَحِيمٌ ؛ وَالنُّفُوسُ الشِّرِّيرَةُ الَّتِي لَوْ رُدَّتْ

---

(١) « مَـهْ » هِيَ اسْمُ فِعْلِ أَمْرٍ ، بِـمَعْنَىٰ «اسْكُتْ» ، أَوْ «كُفَّ عَنِ الْكَلَامِ» ، وَمِثْلُهَا «صَهْ» وَ«صَهٍ» . (الْـمُحَقِّقُ) .

(٢) يَعْتَمِدُ السُّبْكِيُّ فِي تَصْوِيرِ رَأْيِ ابْنِ الْقَيِّمِ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ فِي الْـ(حَادِي :صَ ٣٧١) وَمَا بَعْدَهَا .
وَأَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ هَـٰذَا هُوَ الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ الَّذِي بَذَلَ فِيهِ ابْنُ الْقَيِّمِ أَقْصَىٰ الْـجُهْدِ فِي إِثْبَاتِ أَنَّ النَّارَ سَتَفْنَىٰ ، بَعْدَ أَنْ أَعْوَزَتْهُ الْـحُجَّةُ حِينَ الْتَمَسَهَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا رُوِيَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ .
وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنْ تَنَاوَلْنَا هَـٰذَا الدَّلِيلَ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ فِي الْـمُقَدِّمَةِ .
وَخُلَاصَتُهُ السَّرِيعَةُ هُنَا : أَنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ قَدْ تَأَثَّرَ بِالْقَضَايَا الطَّبِيعِيَّةِ ، كَإِزَالَةِ خَبَثِ الْـمَعَادِنِ وَنَحْوِهَا ؛ وَتَأَثَّرَ كَذَٰلِكَ بِقَوْلِ الْفَلَاسِفَةِ ، فَمَزَجَ بَيْنَ الْـجَمِيعِ فِي بَرَاعَةِ الْـمُشَوِّشِ الْـمُجَادِلِ ، فَقَالَ : إِنَّ الْكَافِرِينَ لَـهُمْ طِبَاعٌ كَطِبَاعِ الْـمُؤْمِنِينَ ، وَفِطَرٌ لَـا تَخْتَلِفُ عَنْ فِطَرِ الصَّالِحِينَ ، وَهُمْ =

= يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ حَتَّىٰ يَزُولَ عَنِ الْفِطْرَةِ خَبَثُهَا ، كَمَا يَزُولُ عَنِ الْحَدِيدِ خَبَثُهُ بِالنَّارِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ بَدِيلٌ عَنْ هَـٰذِهِ الطَّرِيقَةِ إِلَّا أَنْ يُعِيدَهُمُ اللَّـٰهُ إِلَىٰ الدُّنْيَا ، فَيُحَسِّنُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ ، وَيَسْلُكُوا طَرِيقًا يَنْسَجِمُ مَعَ مَنْهَجِ الْحَقِّ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّـٰهُ أَنَّ ذٰلِكَ لَنْ يَكُونَ ، حَيْثُ قَالَ عَنْهُمْ : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام: ٢٨] ؛ إِذًا إِصْلَاحُ حَالِهِمْ مِنْ هَـٰذَا الطَّرِيقِ مَسْدُودٌ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَحَدُ أَمْرَيْنِ :

١- أَنْ يَبْقَىٰ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ بِلَا انْتِهَاءٍ ؛ وَهَـٰذَا أَمْرٌ يُنَافِي الْحِكْمَةَ الْإِلَـٰهِيَّةَ ، إِذْ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَخْلُقَ اللَّـٰهُ خَلْقًا يَكُونُ إِلَىٰ النَّارِ بِغَيْرِ انْتِهَاءٍ .

٢- **وَالِاحْتِمَالُ الثَّانِي** : أَنْ تَكُونَ النَّارُ وَسِيلَةً إِلَىٰ إِزَالَةِ خَبَثِ الْفِطْرَةِ ، ثُمَّ يَعُودُ أَهْلُ النَّارِ عَلَىٰ دَرَجَةٍ مِنَ النَّقَاءِ يُنَاسِبُ مَعَهَا أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ مَعَ الْأَبْرَارِ .

وَيَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا هُوَ أَفْضَلُ الِاحْتِمَالَاتِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَقَائِدِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ ، وَالَّذِي يَنْسَجِمُ مَعَ الْمَنْطِقِ دُونَ سِوَاهُ ؛ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ مَنْ يُخَالِفُهُ فِي رَأْيِهِ .. إِمَّا جَهْمِيٌّ ، أَوْ جَاهِلٌ ؛ فَالْجَهْمِيَّةُ يَقُولُونَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَهُمْ يُعَابُونَ لِذٰلِكَ - وَهَـٰذَا صَوَابٌ لَا شَكَّ فِيهِ - ، وَجُمْهُورُ الْأُمَّةِ يَقُولُونَ بِبَقَاءِ الْجَنَّةِ وَبَقَاءِ النَّارِ ، **ثُمَّ هُمْ فَرِيقَانِ :**

١- يَقُولُ أَحَدُهُمَا : إِنَّ النَّارَ دَارُ عَذَابٍ لِلْكَافِرِينَ وَعُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَّا أَنَّ عُصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَجُوزُ أَنْ نُسَاوِيَهُمْ بِالْكَافِرِينَ فَيَمْكُثُونَ فِيهَا إِلَىٰ الْأَبَدِ ، وَآيَاتُ الْقُرْءَانِ وَالْأَحَادِيثُ دَالَّانِ عَلَىٰ أَنَّ عُصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بِوَاسِطَةِ الشُّفَعَاءِ الَّذِينَ يَأْذَنُ اللَّـٰهُ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ .

٢- وَهُنَاكَ فَرِيقٌ مِنْ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ : قَدْ ذَهَبُوا إِلَىٰ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ هُمْ عُصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ ، وَالْكُفَّارُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ ، وَالْجَمِيعُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ ، وَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ .

وَالَّذِي نَلْقَىٰ اللَّـٰهَ عَلَيْهِ .. أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُخَلَّدُونَ فِيهَا أَبَدًا ؛ وَأَهْلُ النَّارِ مِنَ الْكَافِرِينَ مُخَلَّدُونَ فِيهَا أَبَدًا . وَالَّذِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ مِنْ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ .. سَيَبْقَوْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ثُمَّ يَخْرُجُونَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا بَيَّنَّاهُ وَبَيَّنَتْهُ الْأَحَادِيثُ ؛ وَلَا نَعْبَأُ بِمَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنَ الْعِبَارَةِ وَتَشْدِيدِ النَّكِيرِ . غَفَرَ اللَّـٰهُ لَنَا وَلَهُ . (الْمُحَقِّقُ) .

لَعَادَتْ .. لَا تَصْلُحُ أَنْ تَسْكُنَ دَارَ السَّلَامِ ، فَإِذَا عُذِّبُوا عَذَابًا تَخَلَّصَ نُفُوسُهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ الشَّرِّ .. كَانَ هَٰذَا مَعْقُولًا فِي الْحِكْمَةِ ! .

أَمَّا خَلْقُ نُفُوسٍ تَعْمَلُ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا ، وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْعَذَابِ .. فَهَٰذَا تَنَاقُضٌ ، يَظْهَرُ فِيهِ مِنْ مُنَاقَضَةِ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا لَا يَظْهَرُ فِي غَيْرِهِ .

وَلِهَٰذَا كَانَ جَهْمٌ [١] يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ اللَّٰهُ تَعَالَىٰ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ! ، بَلْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَالَّذِينَ سَلَكُوا طَرِيقَتَهُ - كَالْأَشْعَرِيِّ [٢] وَغَيْرِهِ - لَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ حِكْمَةٌ وَلَا رَحْمَةٌ .

وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ حَكِيمٌ رَحِيمٌ ، وَعُلِمَ بُطْلَانُ قَوْلِ جَهْمٍ .. تَعَيَّنَ إِثْبَاتُ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ .

وَمَا قَالَهُ الْمُعْتَزِلَةُ [٣] أَيْضًا بَاطِلٌ .

فَقَوْلُ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُجْبِرَةِ وَالنُّفَاةِ فِي حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ .. بَاطِلٌ ؛ وَمَنْ

---

(١) هُوَ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ السَّمَرْقَنْدِيُّ ، أَبُو مِحْرِزٍ ، مِنْ مَوَالِي بَنِي رَاسِبٍ ، رَأْسُ (الْجَهْمِيَّةِ) . قَالَ الذَّهَبِيُّ : « الضَّالُ الْمُبْتَدِعُ ، هَلَكَ فِي زَمَانِ صِغَارِ التَّابِعِينَ ، وَقَدْ زَرَعَ شَرًّا عَظِيمًا ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١٢٨ هـ = ٧٤٥ م » . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِسْحَاقَ ، أَبُو الْحَسَنِ ، مِنْ نَسْلِ الصَّحَابِيِّ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ ؛ مُؤَسِّسُ مَذْهَبِ الْأَشَاعِرَةِ الْمَشْهُورِ ، عَاشَ بَيْنَ [٢٦٠ = ٣٢٤ هـ / ٨٧٤ =٩٣٦ م] . (الْمُحَقِّقُ) .

(٣) أَتْبَاعُ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهِمْ بِـ(الْمُعْتَزِلَةِ) ؛ وَكَانَ مِنْ بَيْنِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ : الْقَوْلُ بِخُلُودِ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ فِي النَّارِ إِنْ مَاتَ عَلَيْهَا . (الْمُحَقِّقُ) .

أَعْظَمِ غَلَطِهِمْ .. اعْتِقَادُهُمْ تَأْبِيدَ جَهَنَّمَ ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ مُسْتَلْزِمٌ مَا قَالُوهُ ، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا يَمُوتُونَ ، فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ دَارٍ ، وَمُحَالٌ أَنْ يُعَذَّبُوا بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا دَارُ النَّعِيمِ ، وَالْحَيُّ لَا يَخْلُو مِنْ لَذَّةٍ أَوْ أَلَمٍ ، فَإِذَا انْتَفَىٰ الْأَلَمُ .. تَعَيَّنَتِ اللَّذَّةُ الدَّائِمَةُ ! .

قُلْتُ : قَدْ صَرَّحَ بِمَا صَرَّحَ بِهِ فِي آخِرِ كَلَامِهِ ، فَيَقْتَضِي أَنَّ إِبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَسَائِرَ الْكُفَّارِ .. يَصِيرُونَ إِلَىٰ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَاللَّذَّةِ الدَّائِمَةِ !! .

وَهَٰذَا مَا لَمْ يَقُلْ بِهِ مُسْلِمٌ ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ ، وَلَا يَهُودِيٌّ ، وَلَا مُشْرِكٌ ، وَلَا فَيْلَسُوفٌ ! .

- **أَمَّا الْمُسْلِمُونَ** : فَيَعْتَقِدُونَ دَوَامَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ .
- **وَأَمَّا الْمُشْرِكُ** : فَيَعْتَقِدُ عَدَمَ الْبَعْثِ .
- **وَأَمَّا الْفَيْلَسُوفُ** : فَيَعْتَقِدُ أَنَّ النُّفُوسَ الشِّرِّيرَةَ فِي أَلَمٍ .

فَهَٰذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ هَٰذَا الرَّجُلُ .. مَا نَعْرِفُ أَحَدًا قَالَهُ ، وَهُوَ خُرُوجٌ عَنِ الْإِسْلَامِ بِمُقْتَضَىٰ الْعِلْمِ إِجْمَالًا ، وَلَا أُكَفِّرُ أَحَدًا مُعَيَّنًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِلِسَانِي وَلَا بِقَلْبِي وَلَا بِقَلَمِي ، إِلَّا أَنْ يَعْتَقِدَ مُشَاقَقَةَ (١) الرَّسُولِ ﷺ ، فَهَٰذَا ضَابِطُ التَّكْفِيرِ عِنْدِي .

---

(١) اقْتِبَاسٌ مِنْ آيَتَيْنِ فِي الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ ، **إِحْدَاهُمَا** : فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ تَتَحَدَّثُ عَنْ كُفَّارِ مَكَّةَ الَّذِينَ شَهِدُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَمَاتَ بَعْضُهُمْ ، وَذَٰلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن =

وَسُبْحَانَ اللَّٰهِ !! ، إِذَا كَانَ اللَّٰهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ [العنكبوت : ٢٣] (١) ؛ وَكَذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء : ٩٧] .

وَنَبِيُّهُ ﷺ يُخْبِرُ بِذَبْحِ الْمَوْتِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ (٢) ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ذَٰلِكَ إِنَّمَا يُفْعَلُ إِشَارَةً إِلَىٰ إِيئَاسِهِمْ وَتَحَقُّقِهِمُ الْبَقَاءَ الدَّائِمَ فِي الْعَذَابِ ، فَلَوْ كَانُوا يَنْتَقِلُونَ إِلَىٰ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ .. لَكَانَ ذَٰلِكَ رَجَاءً عَظِيمًا لَهُمْ ، وَخَيْرًا مِنَ الْمَوْتِ (٣) ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ إِيئَاسٌ .

= يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال: ١٢ -١٣] .

وَثَانِيَتُهُمَا : فِي سُورَةِ الْحَشْرِ ، وَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ الْيَهُودِ يَوْمَ أَنْ أُجْلُوا عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر: ٣ - ٤] . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) فِي الْأَصْلِ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ ، وَالْآيَةُ فِي الْقُرْءَانِ الْكَرِيمِ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ كَمَا أَثْبَتْنَاهُ ، وَهِيَ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ ، آيَةٌ [٢٣] ، فَكَلِمَةُ (الَّذِينَ) زَائِدَةٌ ، وَهِيَ سَهْوٌ مِنَ النَّاسِخِ ، وَلِذَٰلِكَ حَذَفْنَاهَا . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) سَبَقَ أَنْ تَعَرَّضْنَا إِلَىٰ رِوَايَاتِ هَٰذَا الْحَدِيثِ ، وَأَثْبَتْنَا تَخْرِيجَهُ أَوَائِلَ هَٰذِهِ الرِّسَالَةِ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٣) يَقْصِدُ إِلَىٰ مَضْمُونِ الْحَدِيثِ ، إِذْ إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يُعَذَّبُونَ فِيهَا ، فَيَكُونُ لَهُمْ أَوَّلًا أَمَلٌ فِي الْخُرُوجِ ، فَيُؤَيِّسُهُمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْهُ بِمُقْتَضَىٰ قَوْلِ الْحَقِّ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ : ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ ، فَكَانَ =

فَمَنْ يُصَدِّقْ بِهَٰذِهِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ .. كَيْفَ يَقُولُ هَٰذَا الْكَلَامَ ؟! .

وَمَا قَالَهُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْحِكْمَةِ .. جَهْلٌ ، وَمَا يَنْسُبُهُ إِلَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه .. افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ (١) ، نَعُوذُ بِاللَّٰهِ تَعَالَىٰ مِنْهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ يَقُولُ : إِنَّهُ تُخَلَّصُ (٢) نُفُوسُهُمْ مِنَ الشَّرِّ بِذَٰلِكَ الْعَذَابِ ، فَيُسْلِمُونَ ! .

= لَهُمْ أَمَلٌ بِأَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، فَيُؤَيِّسُهُمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِمُقْتَضَىٰ الْقُرْءَانِ ، وَبِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ هَٰذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَنَّ الْمَوْتَ سَيُؤْتَىٰ بِهِ عَلَىٰ صُورَةِ كَبْشٍ ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَتْرُكُ فِي نُفُوسِ الْكَافِرِينَ أَلَمًا شَدِيدًا ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ مَطْمَعٌ إِلَىٰ النَّعِيمِ .. لَكَانَ فِي مَطْمَعِهِمْ هَٰذَا مَانِعًا لَهُمْ مِنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ ، أَوْ مِنَ الْحَسْرَةِ حِينَ يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ لَنْ يَمُوتُوا . (الْمُحَقِّقُ) .

(١) يَتَّهِمُ **ابْنُ الْقَيِّمِ** الْأَشْعَرِيَّ بِأَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّٰهَ مُنَزَّهٌ عَنِ الرَّحْمَةِ ، وَ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحِكْمَةِ !! ، وَهَٰذِهِ جُرْأَةٌ مِنِ ابْنِ الْقَيِّمِ عَلَىٰ الْبُهْتَانِ وَالْقَوْلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَا نَعْلَمُ أَحَدًا قَالَ إِنَّ الْأَشْعَرِيَّ يَقُولُ بِذَٰلِكَ ، بَلْ إِنَّ الْأَشْعَرِيَّ - كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ - يَأْخُذُ بِآيِ الْقُرْءَانِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّٰهِ ، وَيَأْخُذُ بِحِكْمَةِ اللَّٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَكْوَانِ ، بَلْ إِنَّهَا أَحَدُ نِقَاطِ الِارْتِكَازِ الْقَوِيَّةِ عِنْدَهُمْ فِي إِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ . (الْمُحَقِّقُ) .

(٢) **قُلْنَا مِرَارًا** : إِنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، فَمَزَجَ بَيْنَ الْقَضَايَا الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي يَرَاهَا فِي الْخَارِجِ ، وَفِطْرَةِ الْإِنْسَانِ الَّتِي فَطَرَ اللَّٰهُ النَّاسَ عَلَيْهَا ، فَخَبَثُ الْحَدِيدِ يَزُولُ بِالنَّارِ ، فَظَنَّ صَاحِبُنَا أَنَّ مَا يَطْرَأُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَزُولَ بِالنَّارِ أَيْضًا ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّٰهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِأَنَّ فِطْرَةَ الْإِنْسَانِ مَحْكُومَةٌ بِقَوَانِينَ أُخْرَىٰ غَيْرِ قَوَانِينِ الْقَضَايَا الطَّبِيعِيَّةِ ، بِحَيْثُ لَا تُؤَثِّرُ النَّارُ فِي إِزَالَةِ شَوَائِبِهَا وَإِصْلَاحِ اعْوِجَاجِهَا ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَشَارَ السُّبْكِيُّ فِي الْمَتْنِ .

وَهَبْ أَنَّ النَّارَ عَادَتْ بِالْفِطْرَةِ إِلَىٰ صَفَائِهَا ، وَأَرَادَ الْكَافِرُونَ أَنْ يُسْلِمُوا فِي الْآخِرَةِ .. فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ ، فَالْآخِرَةُ لَيْسَتْ دَارَ تَكْلِيفٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ دَارُ جَزَاءٍ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَمَلٍ . فَتَأَمَّلْ . (الْمُحَقِّقُ) .

قُلْتُ : مَعَاذَ اللَّٰهِ !! ، أَمَّا إِسْلَامُهُمْ فِـي الْـآخِرَةِ .. فَلَا يَنْفَعُهُمْ بِإِجْمَاعِ الْـمُسْلِمِينَ ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَـىٰ : ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

وَأَمَّا خُلُوصُهُمْ مِنَ الشَّرِّ .. فَبَاطِلٌ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَـىٰ : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة : ٧] ، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة : ٨٧] ، فَهَـٰذَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَـخْرُجَ الشَّرُّ مِنْ قُلُوبِـهِمْ ، أَوْ يَدْخُلَ فِيهَا خَيْرٌ .

فَإِنْ قُلْتَ : مَا فِـي خَلْقِ هَـٰؤُلَـاءِ مِنَ الْـحِكْمَةِ ؟ .

قُلْتُ : إِظْهَارُ الْقُدْرَةِ ، وَاعْتِبَارُ الْـمُؤْمِنِينَ وَفِكْرَتُهُمْ فِـي عَظَمَةِ اللَّٰهِ تَعَالَـىٰ الْقَادِرِ عَلَىٰ أَنْ يَـخْلُقَ الْـمَلَائِكَةَ وَالْبَشَرَ الصَّالِـحِينَ وَالْـأَنْبِيَاءَ وَمُـحَمَّدًا ﷺ سَيِّدَ الْـخَلْقِ ؛ وَعَلَىٰ أَنْ يَـخْلُقَ مِنَ الطَّرَفِ الْـآخَرِ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأَبَا جَهْلٍ وَشَيَاطِينَ الْـجِنِّ وَالْـإِنْسِ وَإِبْلِيسَ رَأْسَ الضَّلَالَةِ ؛ وَالْـقَادِرِ عَـلَىٰ خَـلْقِ دَارَيْـنِ ، مُتَمَحِّضَةٌ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَـا ، هَـٰذِهِ لِلنَّعِيمِ الْـمُقِيمِ ، وَهَـٰذِهِ لِلْعَذَابِ الْـأَلِيمِ ، وَدَارٍ ثَالِثَةٍ ، وَهِيَ الدُّنْيَا مُـمْتَزِجَةً مِنَ النَّوْعَيْنِ .

فَسُبْحَانَ مَنْ هَـٰذِهِ قُدْرَتُهُ ، وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ ، وَكَانَ اللَّٰهُ سُبْحَانَهُ قَادِرًا أَنْ يَـخْلُقَ النَّاسَ كُلَّهُمْ مُؤْمِنِينَ طَائِعِينَ (١) ، وَلَـٰكِنْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُبَيِّنَ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ، وَالْعِلْمُ مَنْشَأُ السَّعَادَةِ كُلِّهَا ، نَشَأَ

(١) يُشِيرُ إِلَـىٰ نَـحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَـىٰ : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩] . (الْـمُحَقِّقُ) .

عَنْهُ الْإِيـمَـانُ وَالطَّاعَةُ ؛ وَالْـجَهْلُ مَنْشَأُ الشَّقَاوَةِ كُلِّهَا ، نَشَأَ عَنْهُ الْكُفْرُ وَالْـمَعْصِيَةُ ؛ وَمَا رَأَيْـتُ مَفْسَدَةً مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا تَنْشَأُ إِلَّـا عَنِ الْـجَهْلِ ، فَهُوَ أَضَرُّ الْـأَشْيَاءِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ نُقِلَ عَنْ جَهْمٍ وَأَصْحَابِهِ أَنَّـهُمْ قَالُوا بِفَنَاءِ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَإِنَّ أَئِمَّةَ الْإِسْلَامِ كَفَّرُوهُمْ بِذَٰلِكَ لِـأَرْبَعِ آيَـاتٍ مِنَ الْقُرْءَانِ :

١- قَوْلُهُ تَعَالَـىٰ : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد : ٣٥] .

٢- وَ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ [ص : ٥٤] .

٣- ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة : ٣٣] .

٤- ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود : ١٠٨] .

وَلِـمَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِـيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ فِـي التَّفْسِيرِ [١] .

قُلْتُ : مَنْ قَالَ بِفَنَاءِ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ أَوْ أَحَدِهِمَـا .. فَهُوَ كَافِرٌ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ قَـالَ هَـٰذَا الْـمُصَنِّفُ : إِنَّ هَـٰذَا قَـالَـهُ جَـهْمٌ ، لِـأَصْلِـهِ الَّـذِي

---

(١) ذَكَرَ السُّبْكِيُّ أَنَّ ابْنَ مَاجَهْ أَشَارَ فِـي التَّفْسِيرِ إِلَـىٰ مَا يُفِيدُ أَبَدِيَّةَ الْـجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَمَا تَـحْتَ أَيْدِينَا مِنْ كُتُبِ ابْنِ مَاجَهْ هُوَ السُّنَنُ ، وَلَيْسَ فِيهَا كِتَابُ التَّفْسِيرِ ، وَبِالرُّجُوعِ إِلَـىٰ تَرْجَمَتِهِ فِـي كُتُبِ التَّرَاجِمِ .. وَجَدْنَا أَنَّ أَصْحَابَ التَّرَاجِمِ يَنُصُّونَ أَنَّ لِـابْنِ مَاجَهْ كِتَابًا فِـي التَّفْسِيرِ مُسْتَقِلًّا ، وَمَبْلَغُ عِلْمِي أَنَّـهُ لَـمْ يُطْبَعْ ، وَمَا تَـحْتَ أَيْدِينَا مِنَ الْكُتُبِ .. لَيْسَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَـى مَكَانِ وُجُودِهِ ، أَوْ مَا إِذَا كَانَ مَطْبُوعًا أَوْ مَـخْطُوطًا ، وَنَهِيبُ بِالْقَارِئِ الَّذِي يَجْتَمِعُ عِنْدَهُ عِلْمٌ حَوْلَ هَـٰذَا الْكِتَابِ أَنْ يُثْبِتَهُ ، أَوْ أَنْ يُـخْبِرَنَا بِهِ مُـحْتَسِبًا ذَٰلِكَ عِنْدَ رَبِّهِ .

وَابْنُ مَاجَهْ هُوَ : مُـحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الرَّبْعِيُّ الْقَزْوِينِيُّ ، أَبُـو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ مَاجَهْ ، صَاحِبُ كِتَابِ السُّنَنِ الْـمَعْرُوفِ ، وَهُوَ مِنَ الْكُتُبِ السِّتَّةِ ، عَاشَ بَيْنَ [٢٠٩ – ٢٧٣هـ = ٨٢٤ – ٨٨٧م] . (الْـمُحَقِّقُ).

اعْتَقَدَهُ ، وَهُوَ امْتِنَاعُ وُجُودِ مَا لَـا يَتَنَاهَـىٰ مِنَ الْـحَوَادِثِ ، وَهُوَ عُمْدَةُ أَهْلِ الْكَلَامِ ، اِسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَىٰ حُدُوثِ الْـأَجْسَامِ ، وَحُدُوثِ مَا لَـا يَـخْلُو مِنَ الْـحَوَادِثِ .

قُلْتُ : فِي هَـٰذَا دَسِيسَةٌ ، يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا الْـمُصَنِّفُ قَصَدَ بِهِ التَّطَرُّقَ إِلَـىٰ حُلُولِ الْـحَوَادِثِ بِذَاتِ الْبَارِي تَعَالَـىٰ وَتَنَزَّهَ ، وَقَدْ أَطَالَ الْكَلَامَ فِـي ذَٰلِكَ ، **وَقَالَ بَعْدَهُ** : « إِنَّـهُ اشْتَبَهَ هَـٰذَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ ، هَـٰذَا مَا اعْتَقَدُوهُ حَقًّا ، حَتَّىٰ بَنَوْا عَلَيْهِ حُدُوثَ مَا لَـمْ يَـخْلُ عَنِ الْـحَوَادِثِ » .

ثُمَّ قَالَ : « وَعَلَيْهِ أَيْـضًا بَنَوْا نَفْيَ الصِّفَاتِ ، لِـأَنَّـهَا أَعْرَاضٌ لَـا تَقُومُ إِلَّـا بِجِسْمٍ » .

هَـٰذَا كَلَامُهُ ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ عَمِلَ هَـٰذَا التَّصْنِيفَ وَسِيلَةً إِلَـىٰ تَـقْرِيرِ ذَٰلِكَ .

نَسْأَلُ اللَّـهَ تَعَالَـىٰ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَالْـحَمْدُ لِلَّـهِ وَحْدَهُ ، وَصَلَّىٰ اللَّـهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُـحَمَّدٍ وَآلِـهِ وَصَحْبِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَالتَّابِعِينَ لَـهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًـا كَثِيرًا .

قَالَ مُصَنِّفُهَا التَّقِيُّ السُّبْكِيُّ : صَنَّفْتُهَا فِـي ذِي الْـحِجَّةِ ، سَنَةَ ثَمَـانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِـائَةٍ .

تَمَّ بِـحَمْدِ اللَّـهِ

* * *

مُلْحَقٌ

مِنْ رِسَالَةٍ مَخْطُوطَةٍ لِابْنِ تَيْمِيَّةَ

هَٰذَا نَصُّهَا :

« **قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ** (١) **أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ** – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ – **فِي رِسَالَةٍ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ قَالَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَا نَصُّهُ :**

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِفَنَاءِ النَّارِ .. فَفِيهَا قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ عَنِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَالنِّزَاعُ فِي ذَٰلِكَ مَعْرُوفٌ عَنِ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَهَٰذَا أَحَدُ الْمَأْخَذَيْنِ فِي دَوَامِ عَذَابِ مَنْ يَدْخُلُهَا .

فَإِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إِنَّ عَذَابَهُمْ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، لَيْسَ بِدَائِمٍ كَدَوَامِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ .. **قَدْ يَقُولُونَ** : إِنَّهَا قَدْ تَفْنَىٰ ، **وَقَدْ يَقُولُونَ** : إِنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا فَلَا يَبْقَىٰ فِيهَا أَحَدٌ .

لَٰكِنْ قَدْ يُقَالُ : إِنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِذَٰلِكَ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مَعَ بَقَاءِ الْعَذَابِ فِيهَا عَلَىٰ غَيْرِ أَحَدٍ ، بَلْ يَفْنَىٰ عَذَابُهَا ، وَهَٰذَا هُوَ مَعْنَىٰ فَنَائِهَا .

---

(١) هَٰذَا جُزْءٌ مِنْ رِسَالَةٍ حَقَّقَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَلْبَانِيُّ ، وَأَوْرَدَهُ فِي مُقَدِّمَةِ تَحْقِيقِهِ لِكِتَابِ [رَفْعِ الْأَسْتَارِ لِإِبْطَالِ أَدِلَّةِ الْقَائِلِينَ بِفَنَاءِ النَّارِ] لِلصَّنْعَانِيِّ .

وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ مُمَهِّدًا لِهَٰذَا الْجُزْءِ مِنَ الرِّسَالَةِ :

« وَقَدْ وَقَفْتُ فِي مَخْطُوطَاتِ الْمَكْتَبِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَىٰ ثَلَاثِ صَفَحَاتٍ فِي وَرَقَتَيْنِ ، بِخَطٍّ لَعَلَّهُ مِنْ خُطُوطِ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ ، نَقَلَهَا كَاتِبُهَا – الَّذِي لَمْ يَكْشِفْ عَنْ هُوِيَّتِهِ – مِنْ رِسَالَةِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ قَالَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ وَهَٰذِهِ الْوَرَقَاتُ الثَّلَاثُ جَمَعَهَا أَخِي الْمُحَقِّقُ زُهَيْرٌ الشَّاوِيشُ مِنْ دَشْتِ مَخْطُوطَاتٍ عِنْدَهُ » . اهـ . (الْمُحَقِّقُ) .

وَقَدْ نُقِلَ هَـٰذَا الْقَوْلُ عَنْ عُمَرَ ، وَابْنِ مَسْعُودٍ ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْـخُدْرِيِّ ، وَغَيْرِهِمْ ، رضي الله عنهم .

وَرَوَىٰ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ - وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ - فِي تَفْسِيرِهِ الْمَشْهُورِ ، قَالَ : (أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ ، أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ : قَالَ عُمَرُ : لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ كَقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ [١] .. لَكَانَ لَهُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَخْرُجُونَ فِيهِ) .

وَقَالَ : (أَخْبَرَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ ، عَنْ حُمَيْدٍ ، عَنِ الْحَسَنِ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ : لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ .. لَكَانَ لَهُمْ يَوْمٌ يَخْرُجُونَ فِيهِ) .

ذَكَرَ ذَٰلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ [النبأ : ٢٣] .

وَهَـٰذَا يُبَيِّنُ أَنَّ مِثْلَ هَـٰذَا الشَّيْخِ الْكَبِيرِ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ .. يَرْوِي عَنْ مِثْلِ هَـٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ فِي الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ ، مِثْلِ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ ، الَّذِي هُوَ مِنْ أَجَلِّ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ ، وَمِثْلِ حَجَّاجِ بْنِ مِنْهَالٍ ، كِلَاهُمَا عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ - مَعَ جَلَالَتِهِ فِي الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ وَالدِّينِ - يُرْوَىٰ مِنْ وَجْهَيْنِ : ١- مِنْ طَرِيقِ ثَابِتٍ ٢- وَمِنْ طَرِيقِ حُمَيْدٍ ، هَـٰذَا عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - الَّذِي يُقَالُ : إِنَّهُ أَعْلَمُ مَنْ بَقِيَ مِنَ التَّابِعِينَ فِي زَمَانِهِ - يُرْوَىٰ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَإِنَّمَا سَمِعَهُ الْحَسَنُ مِنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ ، سَوَاءٌ كَانَ هَـٰذَا قَدْ حَفِظَ هَـٰذَا عَنْ عُمَرَ أَوْ لَمْ يَحْفَظْهُ .. كَانَ مِثْلُ

(١) هُوَ رَمْلٌ كَثِيرٌ جِدًّا ، مَسِيرَةَ أَرْبَعِ لَيَالٍ ، بَيْنَ (فِيدَ) وَ(الْقُرَيَّاتِ) .

هَٰذَا الْحَدِيثِ مُتَدَاوَلًا بَيْنَ هَٰؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْأَئِمَّةِ ، لَا يُنْكِرُونَهُ ، وَهَٰؤُلَاءِ كَانُوا يُنْكِرُونَ عَلَىٰ مَنْ خَرَجَ عَنِ السُّنَّةِ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ ، وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَقُولُ : أَحَادِيثُ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ هِيَ الشَّجَا [1] فِي حُلُوقِ الْمُبْتَدِعَةِ .

فَهَٰؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ أَعْلَامِ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ مِنَ الْبِدَعِ مَا هُوَ دُونَ هَٰذَا لَوْ كَانَ هَٰذَا الْقَوْلُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ ، كَمَا يَظُنُّهُ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ذَكَرَ هَٰذَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] لِيُبَيِّنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إِنَّ (الْأَحْقَابَ) لَهَا أَمَدٌ يَنْفَدُ ، لَيْسَتْ كَالرِّزْقِ الَّذِي مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ؛ وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ قَالَ هَٰذَا الْقَوْلَ : عُمَرُ ، وَمَنْ نَقَلَهُ عَنْهُ إِنَّمَا [2] أَرَادَ بِذَٰلِكَ جِنْسَ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا .

فَأَمَّا قَوْمٌ أُصِيبُوا بِذُنُوبٍ .. فَأُولَئِكَ قَدْ عَلِمَ هَٰؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنْهَا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَلْبَثُونَ فِيهَا قَدْرَ عَدَدِ رَمْلِ عَالِجٍ ، وَلَا قَرِيبًا مِنْ ذَٰلِكَ ؛ وَالْحَسَنُ كَانَ يَرْوِي حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ

---

(١) « الشَّجَا » : كُلُّ مَا اعْتَرَضَ فِي حَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالدَّابَّةِ ، مِنْ عَظْمٍ أَوْ عُودٍ أَوْ غَيْرِهَا .
وَأَرَادَ هُنَا : أَنَّهُ يَمْنَعُهُمْ عَنْ نَشْرِ كَلَامِهِمُ الْبَاطِلِ ؛ وَكَثِيرًا مَا أَثْنَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَلَىٰ حَمَّادٍ ، فَقَدْ كَانَ مِنَ الْأَعْلَامِ ، وَقَالَ عَنْهُ الْقَطَّانُ : « **إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَقَعُ فِي حَمَّادٍ .. فَاتَّهِمْهُ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ** » .
أُنْظُرْ [مَسَائِلَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ لِابْنِ هَانِئٍ : ٢ / ١٩٧ وَ٢٠٧] بِتَحْقِيقِي .

(٢) الْأَصْلُ : إِنْ .

وَمُسْلِمٌ عَنْهُ ، وَكَذَٰلِكَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ كَانَ يَجْمَعُهَا وَيُحَدِّثُ النَّاسَ بِهَا ، وَكَذَٰلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ وَأَمْثَالُهُ ؛ فَهَـٰذَا عِنْدَهُمْ لَا يُقَالُ فِيهِ مِثْلُ هَـٰذَا ، وَلَفْظُ (أَهْلِ النَّارِ) لَا يَخْتَصُّ بِالْمُوَحِّدِينَ ، بَلْ يَخْتَصُّ بِمَنْ عَدَاهُمْ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا .. فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ)(١) .

وَقَوْلُهُ : (يَخْرُجُونَ فِيهِ) أَيْ : يَخْرُجُونَ مِنْ جَهَنَّمَ ، بَعْدَ أَنْ يَفْنَىٰ عَذَابُهَا وَيَنْفَدَ وَيَنْقَطِعَ ، فَهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ خَالِدُونَ فِي جَهَنَّمَ كَمَا أَخْبَرَ اللَّٰهُ ، لَـٰكِنِ انْقَضَىٰ أَجَلُهَا وَفَنِيَتْ كَمَا تَفْنَىٰ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا عَذَابٌ ، وَذَٰلِكَ أَنَّ الْعَالَمَ لَا يُعْدَمُ ، وَجَهَنَّمُ فِي الْأَرْضِ ، وَالْأَرْضُ لَا تُعْدَمُ بِالْكُلِّيَّةِ ، لَـٰكِنْ فَنَاؤُهَا بِتَغَيُّرِ حَالِهَا ، وَاسْتِحَالَتِهَا مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٦] ، وَهُمْ لَا يُعْدَمُونَ ، بَلْ يَمُوتُونَ وَيَهْلِكُونَ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] ، فَإِذَا أَنْفَدَهُ الرَّجُلُ .. فَقَدْ نَفِدَ مَا عِنْدَهُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُعْدَمْ ، بَلِ انْتَقَلَ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ » . اِنْتَهَىٰ .

* * *

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ مُخَرَّجٌ فِي [سِلْسِلَةِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ : ١٥٥١] ، وَانْظُرْ [مُخْتَصَرَ صَحِيحِ مُسْلِمٍ] رَقْمُ [٨٧] .

وَقَالَ فِيهَا أَيْضًا :

« وَالْفَرْقُ بَيْنَ بَقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ عَقْلًا وَشَرْعًا :

أَمَّا شَرْعًا .. فَمِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِبَقَاءِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَدَوَامِهِ ، وَأَنَّهُ لَا نَفَادَ لَهُ وَلَا انْقِطَاعَ ، فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا .

وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ وَعَذَابُهَا .. فَلَمْ يُخْبِرْ بِبَقَاءِ ذَٰلِكَ ، بَلْ أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا .

الثَّانِي : أَنَّهُ أَخْبَرَ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُؤَبَّدٍ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ .

الثَّالِثُ : أَنَّ النَّارَ لَمْ يُذْكَرْ فِيهَا شَيْءٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ الدَّوَامِ .

وَالرَّابِعُ : أَنَّ النَّارَ قَيَّدَهَا بِقَوْلِهِ :

(أ) – ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ : ٢٣] .

(ب) – وَقَوْلِهِ : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

(جـ) – وَقَوْلِهِ : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود : ١٠٧] .

فَهَٰذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ تَقْتَضِي قَضِيَّةً مُؤَقَّتَةً أَوْ مُعَلَّقَةً عَلَىٰ شَرْطٍ ، وَذَٰلِكَ دَائِمٌ مُطْلَقٌ ، لَيْسَ بِمُؤَقَّتٍ وَلَا مُعَلَّقٍ .

الْخَامِسُ : قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ يُنْشِئُهُ اللَّهُ لَهَا ، وَيَدْخُلُهَا مَنْ دَخَلَ النَّارَ أَوَّلًا ، وَيَدْخُلُهَا الْأَوْلَادُ بِعَمَلِ الْآبَاءِ .. فَثَبَتَ أَنَّ الْجَنَّةَ يَدْخُلُهَا

مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا ؛ وَأَمَّا النَّارُ .. فَلَا يُعَذَّبُ أَحَدٌ إِلَّا بِذُنُوبِهِ ، فَلَا يُقَاسُ هَٰذِهِ بِهَٰذِهِ .

السَّادِسُ : أَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ مُقْتَضَىٰ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ ، وَالنَّارَ مِنْ عَذَابِهِ ، وَقَدْ قَالَ :

- ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر : ٤٩ - ٥٠] .

- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة : ٩٨] .

- وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [الأعراف : ١٦٧] .

فَالنَّعِيمُ مِنْ مُوجِبِ أَسْمَائِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ ، فَيَجِبُ دَوَامُهُ بِدَوَامِ مَعَانِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ .

وَأَمَّا الْعَذَابُ .. فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَالْمَخْلُوقُ قَدْ يَكُونُ لَهُ انْتِهَاءٌ - مِثْلُ الدُّنْيَا وَغَيْرِهَا - لَا سِيَّمَا مَخْلُوقٌ خُلِقَ لِحِكْمَةٍ تَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ .

الْوَجْهُ السَّابِعُ : أَنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ[(١)] كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، وَقَالَ : (سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي)[(٢)] وَ (غَلَبَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي)

(١) إِشَارَةٌ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦]

(٢) أُنْظُرْ [صَحِيحَ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ : ٤١٩٨] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، وَانْظُرِ [السُّنَّةَ لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ بِتَحْقِيقِ الْأَلْبَانِيِّ : ٦٠٨ وَ ٦٠٩] ، وَهُمَا مِنْ طَبْعِ الْمَكْتَبِ الْإِسْلَامِيِّ .

وَهَٰذَا عُمُومٌ وَإِطْلَاقٌ ؛ فَإِذَا قُدِّرَ عَذَابٌ لَا آخِرَ لَهُ .. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ رَحْمَةٌ أَلْبَتَّةَ .

الثَّامِنُ : أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ – مَعَ رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ – أَنَّهُ حَكِيمٌ ، إِنَّمَا يَخْلُقُ لِحِكْمَةٍ ، كَمَا ذَكَرَ حِكْمَتَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ؛ فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ يُعَذِّبُ لِحِكْمَةٍ .. كَانَ هَٰذَا مُمْكِنًا ، كَمَا يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا الْعُقُوبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ فِيهَا حِكْمَةٌ ؛ وَكَذَٰلِكَ مَا يُقَدِّرُهُ مِنَ الْمَصَائِبِ فِيهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، فِيهَا تَطْهِيرٌ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَتَزْكِيَةٌ لِلنُّفُوسِ ، وَزَجْرٌ لَهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِلْفَاعِلِ وَلِغَيْرِهِ لِيَجْتَنِبَهَا غَيْرُهُ ؛ وَالْجَنَّةُ طَيِّبَةٌ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا طَيِّبٌ ، وَلِهَٰذَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : (إِنَّهُمْ يُحْبَسُونَ بَعْدَ خُلُوصِهِمْ مِنَ الصِّرَاطِ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا .. أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ) (١) .

وَالنُّفُوسُ الشِّرِّيرَةُ الظَّالِمَةُ الَّتِي لَوْ رُدَّتْ إِلَىٰ الدُّنْيَا قَبْلَ الْعَذَابِ لَعَادَتْ لِمَا نُهِيَتْ عَنْهُ .. لَا تَصْلُحُ أَنْ تَسْكُنَ دَارَ السَّلَامِ الَّتِي تُنَافِي الْكَذِبَ وَالظُّلْمَ وَالشَّرَّ ، فَإِذَا عُذِّبُوا بِالنَّارِ عَذَابًا يُخَلِّصُ نُفُوسَهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ الشَّرِّ .. كَانَ هَٰذَا مَعْقُولًا فِي الْحِكْمَةِ ، كَمَا يُوجَدُ فِي تَعْذِيبِ الدُّنْيَا ، وَخَلْقُ مَنْ فِيهِ شَرٌّ يَزُولُ بِالتَّعْذِيبِ .. مِنْ تَمَامِ الْحِكْمَةِ .

أَمَّا خَلْقُ نُفُوسٍ تَعْمَلُ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْعَذَابِ .. فَهَٰذَا تَنَاقُضٌ ، يَظْهَرُ فِيهِ مِنْ مُنَاقَضَةِ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا لَا يَظْهَرُ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ مُخَرَّجٌ فِي [ظِلَالُ الْجَنَّةِ فِي تَخْرِيجِ السُّنَّةِ] لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ [٨٥٧ – ٨٥٨] ، طَبْعُ الْمَكْتَبِ الْإِسْلَامِيِّ .

مِنْ غَيْرِهِ ؛ وَلِهَٰذَا كَانَ الْجَهْمُ [1] لَمَّا رَأَىٰ ذَٰلِكَ .. يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ اللَّٰهُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، وَقَالَ : ﴿ بَلْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ . وَالَّذِينَ سَلَكُوا طَرِيقَتَهُ - كَالْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ - لَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ حِكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ ، لَٰكِنْ لَهُ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ ، وَإِرَادَةٌ لَا تُرَجِّحُ أَحَدَ الْجَانِبَيْنِ ؛ وَلِهَٰذَا لَمَّا طُلِبَ مِنْهُمْ أَنْ يُقِرُّوا بِكَوْنِهِ حَكِيمًا .. فَرَدَّهُ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ ، إِذْ قَدْ يُرَادُ : (يُرِيدُ) ، وَلَيْسَ مِنَ الثَّلَاثَةِ مَا يَقْتَضِي الْحِكْمَةَ ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ حَكِيمٌ رَحِيمٌ ، وَعُلِمَ بُطْلَانُ قَوْلِ الْجَهْمِ .. تَعَيَّنَ إِثْبَاتُ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ .

وَمَا قَالَهُ الْمُعْتَزِلَةُ أَيْضًا بَاطِلٌ ، فَقَوْلُ الْقَدَرِيَّةِ الْمُجْبِرَةِ وَالنُّفَاةِ فِي حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بَاطِلٌ ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا غَلَّطَهُمْ .. اِعْتِقَادُهُمْ تَأْبِيدَ جَهَنَّمَ ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ يَسْتَلْزِمُ مَا قَالُوهُ ، وَفَسَادُ اللَّازِمِ يَسْتَلْزِمُ فَسَادَ الْمَلْزُومِ » . اِنْتَهَىٰ [2] .

وَالْحَمْدُ لِلَّٰهِ أَوَّلًا وَأَخِيرًا
وَصَلَّى اللَّٰهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

* * *

(١) هُوَ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ ، الْمَقْتُولُ سَنَةَ ١٢٤هـ .

(٢) قُلْتُ أَنَا الشَّيْخُ نَاصِرٌ عَبْدُ اللَّٰهِ دُسُوقِيٌّ : قَدِ انْتَهَيْتُ - بِحَمْدِ اللَّٰهِ تَعَالَىٰ - مِنْ مُرَاجَعَةِ هَٰذَا الْكِتَابِ وَضَبْطِهِ وَتَرْتِيبِهِ وَتَنْسِيقِهِ فِي عِشَاءِ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ ، الْمُوَافِقِ ١١ / ٩ / ٢٠٢٣م ، فِي مُحَافَظَةِ الْقَلْيُوبِيَّةِ بِمِصْرَ الْمَحْرُوسَةِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّٰهِ فِي الْبَدْءِ وَالْخِتَامِ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ سَيِّدِ الْأَنَامِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ بَدْرِ التَّمَامِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ وَجَمِيعِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

المُحتَويات

المحتويات

❊ ❊ ❊

تمت